الحضارة العربية الإسلامية
بين الريادة والعالمية

حقائق ساطعة ومغالطات واهية

الدكتور رضا كشان

الحضارة العربية الإسلامية

بين الريادة والعالمية

حقائق ساطعة ومغالطات واهية

تأليف: الدكتور رضا كشان

العقاظية
للنشر والتوزيع

اسم المؤلف: الدكتور رضـــــا كشـــان

عنوان المؤلف: الحضارة العربية الإسلامية
بين الريادة والعالمية

النوع: الدعوة الإسلامية

تنسيق داخلي واخراج فني: نبيل حميدة

تصميم الغلاف: حنان ميزو

الطبعة الأولى: 2025

الردمك: 978-9969-515-39-8

دار العكاظية للنشر والتوزيع

الهاتف: 0658908590

الايميل: marwa.25cben@gmail.com

لا يسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدارأي جزء من هدا الكتاب

سواء ورقيا أو الكترونيا أو أية وسائط أخرى، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إدن خطي من الناشر.

الآراء الواردة في هدا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

إهـــداء

أُهدي هذا العمل المتواضع إلى والدي العزيزين أمدّ الله في عمرهما وبارك الله في صحّتهما، ثمّ إلى باقي الأهل والأصحاب والرّفاق، وإلى جميع طلبتي، والأمّة الإسلامية قاطبة من شرقها إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها، كما لا أنسى جميع الأساتذة الذين شرفت بالدراسة على أيديهم من الفترة الإعدادية إلى الفترة الجامعية، وأخيرا أهدي هذا العمل إلى جميع زملائي في العمل بجامعة سكيكدة (الجزائر).

تمهيد

تمهيد :

الحمد لله الذي تتّم بنعمته الصّالحات والشّكر له على جزيل عطائه وامتنانه علينا وعلى إخواننا في المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، نحمده حمدا يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه سبحانه وتعالى، وله الحمد كلّه على توفيقه لنا وهدايته لنا لنعمة الإسلام، وأن جعلنا من عباده المسلمين وتكريمه لنا بنعمة العقل والصّحة والعافية وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده له شريك له وأنّ محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم المبعوث رحمة للعالمين وخاتم الأنبياء والمرسلين أمّا بعد:

فقد منّ الله علينا بإتمام هذا الكتاب الذي تناولنا من خلاله موضوعا مهما جدا، والذي حاولنا من خلاله إبراز فضائل الحضارة العربية الإسلامية على العالم أجمع وعلى المسلمين بوجه خاص، حيث وقفنا من خلاله على جملة من خصائص وسمات الحضارة العربية الإسلامية، فضلا عن أبرز علماء المسلمين الذين برعوا في عدّة مجالات وتخصّصات علمية، وهذا ليعلم القارئ بأنّ الحضارة العربية الإسلامية ليست ككل الحضارات وأنّها حضارة فريدة من نوعها في مصادرها وأبعادها وأهدافها ومنطلقاتها، ورغم ما تميّزت به الحضارة العربية الإسلامية من خصائص ومميّزات فريدة فقد طالتها العديد من الاقتراءات المكذوبة والانتقادات الموهومة من الذين في قلوبهم مرض وحقد تجاه الحضارة العربية الإسلامية والمسلمين سواء من المشكّكين داخل الديار الإسلامية أو من قبل الكفرة والملحدين والعلمانين والماركسيين وغيرهم الذين لم يرقهم ما حقّقته تلك الحضارة من إنجازات لم يشهد التاريخ مثلها.

وعلى العموم فقد قصدنا من هذا الكتاب إظهار الحق الأبلج وقمع الباطل اللّجلج بالدليل والبرهان والحجّة والبيان بأسلوب علمي رصين، كما أردنا من خلاله التّأكيد على ضررة حماية التراث الإسلامي من جميع حملات التّشويه والتّحريف والتّزييف التي كثر عددها هنا وهناك، وما جعلنا نتحمّس أكثر للكتابة في هذا الموضوع هو انبهارنا بما وصفه المستشرقين المنصفين تجاه حضارتنا الإسلامية، حيث نطقوا بالحق بالأدلّة التي لا تحمل الشّك والحيرة، وما أكثر هؤلاء وفي آخر الكتاب سنجعل ملحقا خاصا بأقوال هؤلاء حتّى يعلم القارئ صدق ومكانة حضارتنا الإسلامية، وأنّها هي الحضارة الوحيدة التي ينعم في ظلّها الإنسان بالرّاحة الأبدية والسّعادة الدنيوية والأخروية، وتنقشع معها أوهام المبطلين والمنحرفين والزّائغين عن طريق الحق والدّين القويم الّذي بُعث به رسولنا الأمين محمّد عليه أفضل صلاة وأزكى وتسليم.

ولأجل ذلك فقد قسمنا هذا الكتاب المتواضع إلى ثلاثة فصول مهمّة، حيث تطرّقنا في الفصل الأوّل إلى الجانب المفهومي للحضارة بشكل عام وأهم الأركان والأسس التي تنهض عليها الحضارات الانسانية، إلى جانب أهم المراحل التي تمر بها تلك الحضارات، وفي الفصل الثاني خصّصناه للحديث عن الحضارة العربية الإسلامية وأهم انجازتها وخصائصها وأسرار تفوّقها على باقي الحضارات إلى جانب تفاعل الحضارة العربية الإسلامية مع الحضارات الإنسانية الأخرى، أمّا في الفصل الأخير فقد أفردناه للحديث عن أسباب سقوط وانهيار الحضارة العربية الإسلامية، ومدى إمكانية نهوض الحضارة العربية الإسلامية من جديد بالنّظر إلى واقع المسلمين الحالي، وختمنا الكتاب بالحديث عن موقف الغرب من عودة الحضارة العربية الإسلامية من جديد، هذه أهم النقاط الأساسية التي تعرّضنا لها في كتابنا المتواضع، مع العلم أننا لم نوف الكتاب حقّه

من الدراسة والبحث لأنّنا قصدنا من خلاله الاختصار وعدم تكرار ما سبقه إلينا غيرنا من الباحثين والمؤّلفين.

وفي الأخير أرجو أن يكون هذا الكتاب إضافة جديدة للمكتبة الإسلامية وأن يكون نافذة لمعرفة القليل عن الحضارة العربية الإسلامية، وفي الحقيقة لا تكفي المجلّدات الضّخمة لبسط الحديث عن انجازات الحضارة العربية الإسلامية المادية والمعنوية والأخلاقية، ولما كان الأمر كذلك اكتفينا بهذه الورقات العلمية القليلة آملين أن ينفع الله بها كل من يقرأها، وأن تستردّ الحضارة العربية الإسلامية مكانتها الحقيقية بين الأمم حتّى يعم الأمن والسّلام بين تلك الأمم لأنّ دين الإسلام هو دين الأمن والسّلام والحق والبيان، وليست النّظريات الديمقراطية الزّائفة هي الّتي تحقّق للأمم ذلك السّلام المنشود، بل قد انكشف –ولله الحمد– زيفها لكل عاقل وبصير حتّى من أنصار تلك النّظريات أنفسهم أقرّوا بهذا الباطل وكشفوا حقيقته، لأنّها نظريات قائمة على الكذب والظلم والنفاق وليس العدل والانصاف، وبيننا وبينهم من الحق كما بين المشرق والمغرب أو قل كما بين السّماء والأرض.

الدكتــور: رضــا كشــان

سنة التأليف 1446 هجرية الموافق لـ 2025 ميلادية

الفصل الأوّل:

ماهية الحضارة

(مدخل مفاهيمي وتأصيلي)

الفصل الأوّل: ماهية الحضارة

سنتطرّق في هذا الفصل إلى الكثير النقاط المهمة المتعلّقة بالحضارة على غرار مفهوم الحضارة ومقوّماتها إلى جانب خصائصها وأهم المراحل التي تمر بها أي حضارة إنسانية وما هو ما يطلق عليه بدورة الحضارة، ثمّ نختم الفصل بالحديث بشكل عام عن أسباب زوال الحضارات وأفولها عبر التاريخ البشري.

المبحث الأوّل: تعريف الحضارة

يمكن تعريف الحضارة لغة واطلاحا على النحو الآتي:

أوّلا: الحضارة لغة

حَضَرَ لغة: كـ: نَصَرَ وعَلَمَ، حضورا حضارة ضد غاب كاحتضر وتحضّر ويعدّى: يقال حضره، وتحضّره وأحضر الشّيء، وأحضره إيّاه، وكان بحضرته (أي بحضوره)، وحضره، ومحضره بمعنى وهو حاضر من حضّر وحضور وحسن الحضرة بالكسر: إذا حضر بخير، والحضر محرّكة والحضرة والحاضرة والحضارة بالكسر أو الفتح تعني الإقامة في الحضر، والحاضر خلاف البادي، والحاضرة خلاف البادية[1].

وفي لسان بن منظور الحضر خلاف البدو، والحاضر: خلاف البادي، وفي الحديث: "لا بيع حاضر لبادٍ"، الحاضر هنا المقيم في المدن والقرى، والبادي المقيم

((1)) مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، **القاموس المحيط**، مصر– القاهرة، دار الحديث، 2008، ص ص،373–374.

بالبادية، والحضارة الإقامة في الحضر، والحضر والحضرة والحاضرة خلاف البادية وهي المدن والقرى والأرياف، والحاضرة والحاضر: الحيّ العظيم أو القوم[2].

والذي يظهر من التّعريف اللّغوي لكلمة الحضارة أنّها تنصرف إلى معنى الحاضرة أو المدينة؛ فالحضري هو الذي يسكن المدينة أو الحاضرة، ولا يُفهم من هذا المعنى أنّ الحضارة المقصود بها المعنى الحديث والذي يراد بها: " مجموعة القيم والعادات والتّقاليد والسّلوكيات والمعارف والصّنائع والمعتقدات السّائدة في مجتمع ما"، فليس هناك إذن ترادف بين المعنى اللّغوي للحضارة والمعنى الاصطلاحي، ولم يكن العرب القدامى يستخدمون مصطلح الحضارة بمفهومه الحديث إنّما كانوا يعنون به من يسكن الحاضرة أو المدينة فقط، وهذا يدل من جهة أخرى أنّ المعنى اللّغوي لمصطلح الحضارة أضيق بكثير من المعنى الاصطلاحي الذي يزخر بالمعاني والمقاصد.

ثانيا: الحضارة اصطلاحا

لقد حظي مفهوم الحضارة باهتمام واسع من قبل العديد من الباحثين والتّيارات الفكرية المتباينة، ولهذا فقد تعدّدت تعريفات الحضارة نظرا لاختلاف وجهات نظر الباحثين ومنطلقاتهم الفكرية حول جوهر الحضارة وأساسها؛ فإذا كان بعض المفكّرين والفلاسفة يحصر جوهر الحضارة في جانبها المادي الصّرف فإنّ البعض الآخر يُضم إليها جانبا آخرا من الحضارة لا يقل أهمية عن جانبها المادي وهو الجانب الرّوحي والأخلاقي، ولذا سنرى كما هو معلوم اختلافا واسعا بين الباحثين والمنظّرين لا سيّما

((2)) جمال الدين ابن منظور، **لسان العرب**، القاهرة، دار المعارف، بدون ذكر سنة النشر، ص907.

في مكوّنات الحضارة وأسسها، وعلى كل حال سنكتفي بإيراد بعض التّعريفات ثمّ نتبعها بتعليقات وتعقيبات كلّما اقتضى الحال.

1-التعريف الغربي للحضارة:

لقد تناول الفلاسفة والمفكّرين الغرب مفهوم الحضارة من زاوية مادية بحتة، ولذلك فهناك شبه إجماع بينهم على أنّ المعنى الحقيقي للحضارة ينحصر في الجوانب المادية والعلمية المحسوسة في الغالب، ومن ضمن التّعريفات الغربية للحضارة نجد ما يلي:

في منتصف القرن الثامن عشر استخدم تورجوت turgot كلمة الحضارة بمعنى: "الانتقال إلى الدّولة المتحضّرة " [3] أي الانتقال بالمجتمع من الشّكل البدائي إلى الشّكل المتحضّر أو المدني، وهذا يدل على أنّ مصطلح الحضارة هنا تأثّر بشكل أو بآخر بالنّهضة الصّناعية التي شهدتها أوروبا في تلك الحقبة، حيث شهدت أوروبا إقلاع صناعي وتقني قلّ نظيره في ذلك الزّمان، ومهّد هذا الإقلاع للحضارة والمدنية الجديدة التي من أحد علائمها وشواهدها استبدال اليد العاملة اليدوية بالماكنة الصّناعية المتطوّرة، والحق أنّ النهضة الصناعية التي حدثت في أوروبا في القرن الثامن عشر وما تلا هذه الفترة كان له فضلا كبيرا في تطوّر البشرية من الناحية الصّناعية والتّكنولوجية، حيث سمحت هذه النّهضة بنقل المجتمعات من الأساليب البدائية في الفلاحة والصّناعة إلى الأساليب الحديثة التي تعتمد بالدرجة الأولى على الماكنات الحديثة والمتطوّرة.

((3)) Roland Lamontagne, « **Civilisation: terminologie et structure,Revue d'histoire de l'Amérique française** », Volume 18, numéro 3, décembre 1964, P358.

وفيما يخص **"تايلور"** فقد عرّف من جهته الحضارة بأنّها: "درجة من الثّقافة المتقدمة والتّطور في الفنون والعلوم والحياة السياسية "[4]، ويظهر من هذا التّعريف- كما سبق وأن أشرنا -أنّ الغرب بصفة عامة ومنهم تايلور يكادون يحصرون مفهوم الحضارة في الجوانب الفنيّة والثقافية والسياسية كما هو ظاهر من هذا التعريف، لذلك لا تستغرب حينما يتمّ البحث عن حقيقة الحضارة الغربية تجد أنّها حضارة تهتم بالجسد والعقل أكثر من اهتمامها بالرّوح والأخلاق، وهم أي الغرب نالوا حظّا كبيرا من التحضّر في الجوانب الثقافية والفنيّة والصّناعية لكن في المقابل نزلوا إلى أسفل دركات التّخلف الخلقي والرّوحي والاجتماعي والنّفسي، ولا غرابة في ذلك لأنّهم أرادوا أن يبرهنوا للعالم أنّهم أرقى المجتمعات فأثبتوا رُقيّا ماديا جافا وسُلبوا رُقيّا أخلاقيا عاليا، فوقعوا بذلك في المتناقضات التي انتهت بهم إلى التيهان الوجداني.

وفي نظر المفكّر والباحث السياسي الأمريكي **"صمويل هنتنجتون"** فإنّ الحضارة: "هي أعلى تجمّع ثقافي للناس وأوسع مستوى للهويّة الثقافية للشّعب ولا يسبقها إلاّ ما يميّز البشر عن الأنواع الأخرى، وهي تحدّد في آن معا بالعناصر الموضوعية المشتركة مثل اللّغة والدّين والتاريخ والعادات والمؤسّسات، وبالتّحديد الذاتي الذي يقوم به الشعب النفسي" [5]. ويظهر من هذا التّعريف أنّ صمويل هنتجتون جعل مفهوم الحضارة هنا مرادف لمفهوم الثقافة ولم يميّز بينهما إلاّ في اللّفظ وإلاّ فإنّ المعنى واحد، ويتفّق بذلك مع العديد من الباحثين الذي يجعلون من الحضارة والثقافة مفهوما متحدّا، وعلى كلّ حال فإنّ عالم السياسة الأمريكي صمويل هنتنجتون حينما يعترف بأنّ الحضارة هي

((4)) بدران بن لحسن، "**مفهوم الحضارة دراسة تحليلية مقارنة عابرة للثقافات**"، مجلة أنثروبولوجيا، المجلد 07، العدد02، 2021، ص163.

((5)) حمزة حسن سليمان صالح، "**أسس الحضارة في القرآن الكريم وآثارها على الحضارة الاسلامية**"، مجلة قرآنيكا، جامعة مالايا – ماليزيا، العدد07 أ، أفريل 2015،ص170..

أعلى تجمع ثقافي للنّاس فإنّه يقصد بها أعلى مراحل المدنية الغربية وبخاصة المدنية المنتشرة في الولايات المتّحدة الأمريكية،وإن كان هو يعترف ضمنيا بالعناصر المشتركة والمؤلّفة للحضارة بصفة عامة، وبهذا يلتقي هنتنجتون مع العديد من المفكّرين الغرب الذين يرون أنّ المفهوم الحقيقي للحضارة هو الذي يعبر عن الثقافة والقيم والمعارف والآداب والتقاليد الغربية وإن لم يصرّحوا بذلك في أبحاثهم وكتبهم، وما عدا ذلك فهو دون الحضارة الغربية ولا يرقى إلى المفهوم الحقيقي للحضارة.

وفي ذات السّياق يرى" **ليتري**" أنّ الحضارة يُقصد بها: "مجموع الآراء والعادات التي تنتج من الفعل المتبادل للفنون الصّناعية والدين والفنون الجميلة والعلوم"[6]، ولم يختلف ليتري في هذا التعريف عن نظرة صمويل هنتنجتون للحضارة، حيث يرر ليتري هنا أنّ مفهوم الحضارة ناتج أساسا عن التلاقح والاحتكاك بين مختلف الفنون الصّناعية والدين والعلوم والفنون الجميلة" بما في ذلك الثقافات والقيم، ويتّضح من هذا التّعريف الموجز أنّ ليتري والغرب بصفة عامة يركّزون في تعريفهم للحضارة على الجوانب المادية الملموسة وإن كان ليتري يجعل الدّين هنا أحد مكوّنات الحضارة فلا يقصد به الدّين الخالي من الشّوائب والأفكار الشّاذة والاعتقادات المحرّفة بل يقصد به مجرّد النحلة أو العقيدة السّائدة في مجتمع ما، حتّى ولو كانت تلك العقيدة قائمة على الشرك والخرافات. وهذا الّذي جعل مفهوم الحضارة لدى الغرب مفهوما جامدا وفاقدا لجوهره الحقيقي.

ومن وجهة نظر رالف بدنجتون "Ralph piddengton " إنّ حضارة شعب من الشّعوب تعني: "مجموعة الأدوات المادية والفكرية التي يستطيع بها ذلك الشّعب

((6)) جمال بروال، "**نظرية الحضارة في فلسفة أسوالد اشبنجلر**"، مجلة دفاتر المخبر، الملجد17، العدد01، 2022، ص237.

إشباع حاجاته الحيوية والاجتماعية ويكيّف نفسه لبيئته"[7]، ما يلاحظ على هذا التّعريف أنّه حصر مفهوم الحضارة في جانبين مهميّن، وهما الجانب المادي والجانب الفكري العقدي، ولهما دورا كبيرا في إشباع مختلف الحاجات الأساسية والاجتماعية لكل شعب من شعوب العالم، وبهما تستطيع الشعوب التلاؤم مع مختلف المستجدات والتّطورات التي تطرأ على بيئة المجتمع والتي تسهم بشكل أو آخر في إحداث الانسجام بين مختلف مكوّنات المجتمع.

وصحيح أنّ الأدوات المادية والفكرية تعد أحد هم مقوّمات أي حضارة انسانية لكنّها لا تكفي وحدها لبناء حضارة متكاملة الأركان، ودليل ذلك أنّ العديد من المفكّرين الغرب أن الجوانب المادية وحدها لا تكفي لاستمرار الحضارة وديمومتها وإلى ذلك يذهب الشّاعر الفرنسي شارل بودلير (1821-1867) إلى القول بأنّ تدهور الحضارة الغربية مسألة وقت فقط، ورأى أنّ التكنولوجيا التي يعيش بها الغرب تدمّر الثقافة، ومقصوده بالثقافة هنا الحضارة بمفهومها الحديث. ونفس الشّيء ذهب إليه الروائي الروسي الشّهير فيودور دوستويفسكي (1821-1881) حيث قال: "إنّ الحضارة الغربية تتجه نحو انهيار مأساوي"، وفي ذات السياق توقع جاكوب بوركهارت (1818-1879) أن يحدث كسادا اقتصاديا في القرن العشرين وحروبا كبرى وظهور دول استبدادية [8]، وما ذلك إلاّ بسبب الشّرخ الكبير الذي حدث بين مكوّنات الحضارة الغربية.

((7)) سمير عبده، **العرب والحضارة العلمية الحديثة**، الطبعة الأولى بيروت، دار الآفاق الجديدة، 1982، ص27.

((8)) لمزيد من المعلومات انظر إلى المقال الموسوم ب "**هل تحقّقت نبوءات المؤرّخين بشأن الحضارة الغربية؟**، صحيفة الاندبندنت، بتاريخ 05يولويو2023.

ونخلص في النّهاية أنّ التعريف الغربي للحضارة عموما يكاد يتّفق فيه الباحثين والمفكرّين على أنّ المدلول الحقيقي للحضارة يتمثّل في قمة الرّقي المادي والمعرفي والصّناعي والفني والثقافي للمجتمعات بما يجعلهم قادرين على التّأقلم للعيش في بيئة متناغمة مع أي تطوّر مدني أو فكري. وفي الحقيقة أنّ المعنى الحقيقي للحضارة في المفهوم الغربي يخدم القيم الّسائدة في بلدانهم بالدرجة الأولى، ويعزّز من هيمنتهم على العالم تبعا لذلك، كما أنّه يؤسّس للنظام الاجتماعي والسّلوكي الليبرالي الذي يسمح بتطوّر المجتمعات الغربية ومكتسباتهم المعرفية دون تقييد الحريّات الفردية في الإبداع والابتكار. ولذلك فهم يشجّعون تطوير المعارف والعلوم في مختلف المجالات لتحقيق التّنمية الشاملة والمستدامة. لكن ما يعاب عن المفهوم الغربي للحضارة هو أنّه مجرّد من القيم الانسانية والدينية والرّوحية، وهذا الّذي يجعلهم حضارتهم تتصادم مع بقية الحضارات الأخرى وتفقد بريقها، فهم يحصرون التّحضر في المجتمعات الغربية دون غيرهم من المجتمعات، بل أنّهم يصفون الحضارات الأخرى بأبشع الأوصاف وخاصة الحضارات التي تشكلّ حسبهم تهديدا لحضارتهم المادية، وهذا يعني أنّه هناك تحيّز كبير في مفهوم الحضارة بما يخدم قيم وثقافات الغرب على حساب بقية الثقافات الأخرى كما تقدّم معنا.

2-التعريف الإسلامي للحضارة:

ممّا لا ريب فيه أنّه هناك تباين واضح بين مدلول الحضارة في المفهوم الغربي والمفهوم الاسلامي مع الإقرار بأنّه هناك قواسم مشتركة بينهم في بعض مكوّنات الحضارة ومقوّماتها وأبعادها، ونكاد نجزم أنّ هذا التباين ناتج في الأساس عن الاختلاف في الدّين والمعتقد والسلوك بين هذين الاتجاهين، فضلا عن تباينهم في نظرتهم لجوهر الحضارة الحقيقي ومقاصدها الانسانية، ولذلك سنحاول أن نستجلي في هذه الجزئية

أوجه الاختلاف بين المفكّرين الغرب والمفكّرين المسلمين حول المعنى الحقيقي للحضارة.

ونجد في مقدمة علماء المسلمين الذين عنوا بمفهوم الحضارة ومقاصدها العلاّمة والمؤرخ الشّهير "عبد الرحمان بن خلدون "رحمه الله، حيث عرّف الحضارة بأنّها: " نهاية العمران وخروجه إلى الفساد ونهاية الشّر والبعد عن الخير[9]، والسّبب في ذلك أنّ أهل الحضر ألقوا بجنوبهم على مهاد الرّاحة والدّعة وانغمسوا في النعيم والترف"[10] والمقصود من هذه العبارة أنّ الحضارة هي أرقى درجات التّمدن أو التّحضر التي يصل إليه المجتمع في مرحلة معيّنة من الزّمن، وفي هذه المرحلة ينحدر المجتمع أخلاقيا بسبب ميلهم إلى حياة الترف وتخليّهم عن الأخلاق الفاضلة، ويتضّح من هذا التعريف أنّ الحضارة حسب ابن خلدون هي أولى أمارات (علامات) الضّعف الذي يحل بالمجتمع لكونهم تخلّوا عن الأسس القويمة التي تحفظ كيان المجتمع وقوّته وهي الدّين والأخلاق، وهذه النظرة وإن كانت تبدو للكثير أكثر تشاؤمية فهي تنبئ في الحقيقة عن بعد نظر هذا العالم النحرير المتضلّع بأحوال الأمم وأسباب انحرافها وضعفها، فهو يدرك بعين البصيرة أنّ بلوغ مجتمع ما لأعلى درجات التّقدم يصحبه في الغالب انحدار سريع في المنظومة القيمية والأخلاقية، لأنّه من الصّعب جدا أن يحافظ المجتمع على عاداته وقيمه في 6ظل انصرافه إلى حياة البذخ والتّرف المرافقة لعملية التحضّر والتّمدّن، ولا أحد يستطيع أن ينكر صعوبة ذلك إلاّ مكابرا أو معاندا للحق.

((9)) بدران بن لحسن، "**مفهوم الحضارة: دراسة تحليلية مقارنة عابرة للثقافات**"، مجلة انثروبولوجيا . المجلّد07، العدد 02، 2021، ص167.

((10)) عاطف الشاعر، "**قضم تفاحة الطبيعة: الحضارة وابن خلدون وفرويد**"، صحيفة العربي الجديد، لندن، 20أفريل 2020.

وفي رأي الكاتب والمفكّر الجزائري والباحث في مسائل الحضارة ومشكلاتها "مالك بن نبي" –رحمه الله– فإنّ للحضارة معنى آخر يختلف عن التّعريف السّابق للعلامة عبد الرحمان بن خلدون، إذ عرّف مالك بن نبي –رحمه الله – الحضارة من عدّة جوانب :[11]

أ–من ناحية الجوهر: يعرّفها بأنّها: "عبارة عن مجموعة من القيم الثقافية المحقّقة، فالثّقافة في جوهرها الحضارة لأنّ كل واقع اجتماعي هو في أصله قمّة ثقافية خرجت إلى حيز التّنفيذ.

ب– من حيث الفكرة: يعرّفها بقوله: "الحضارة هي نتاج فكرة جوهرية تطبع على مجتمع ما قبل التّحضر التي تدخل به التاريخ ويبني هذا المجتمع نظامه الفكري طبقا للنموذج الأصلي لحضارته".

ج–من حيث التّركيب: وفي هذا الصّدد يعرّف مالك بن نبي الحضارة بأنّها: " تعني تفاعل العناصر الثلاثة: "إنسان +تراب+ زمن "والذي يركّبها العامل الأخلاقي والدّين ويعمل على تماسكها".

د–من حيث الوظيفة: إذ يعرّفها من حيث هذه الجزئية بأنّها تعني: "هي جملة من العوامل المعنوية والمادية التي تتيح لمجتمع ما أن يوفّر لكل عضو فيه جميع الضمانات الاجتماعية اللازمة لتطوّره ".

ويظهر من هذه التعريفات أنّ مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي واسع الدلالة وغير مقيّد بظرف معيّن؛ فالحضارة عنده تعني مجموعة القيم الثقافية التي تسمح بتماسك

((11)) بلال بوسنة، "**الحضارة من منظور مالك بن نبي** "، مجلة العلوم الاسلامية، مجلّد01، العدد 02 ديسمبر 2019،ص96-97.

المجتمع ووحدته، وأنّها نتاج تأمل وتفكر وإبداع من المجتمع، كما أنّها حصيلة التفاعل بين ثلاثة عوامل أساسية وهي الانسان والتراب والزمن، وأنّها تشمل حسبه الجوانب المادية (العمران) والمعنوية (الأخلاق والدين والقيم)، وهذه بمجموعها هي التي تسمح بتطوّر المجتمع ورقيه. وبهذا يكون مالك بن نبي رحمه الله من الأوائل الذين أشاروا إلى أهمية وضرورة التّوازن بين المادة والرّوح أو بين الدنيا والدين في المفهوم الحديث للحضارة، وهذا الّذي يجعل المفهوم الإسلامي للحضارة يختلف ويتميّز عن المفهوم الغربي للحضارة، ولعلّ ذلك يرجع إلى معرفة واطّلاع مالك بن نبي –رحمه الله– لخصائص المجتمع الإسلامي وخصائص المجتمع الغربي لأنّه عايش البيئيتين بنفسه وشاهدهما بأم عينيه ممّا جعله يدرك المعنى الحقيقي للحضارة أكثر من غيره من الباحثين في ذلك الزّمن.

وفي تعريف آخر للحضارة ضمن الرؤية الإسلامية فإنّ الحضارة تعني: " **مجموع المعارف العلمية والتّشريعات والنظام والعادات والآداب التي تمثّل الحالة الفكرية والاقتصادية والخلقية والسياسية والفنيّة وسائر مظاهر الحياة المادية والمعنوية في مرحلة من مراحل التاريخ،وفي بقعة من بقاع الأرض سواء شملت شعبا أم أكثر** "[12]،والشّيء الملفت في هذا التّعريف أنّه جعل مفهوم الحضارة يتضمّن الجوانب المادية والمعرفية والجوانب الخلقية والمعنوية أي أنّها متعدّدة المقاصد والأبعاد ومشتملة على العديد من جوانب الحياة ومناحيها، كما يفهم من هذا التّعريف أنّ الحضارة لا تختص بشعب دون شعب أو مرحلة زمنية دون مرحلة زمنية أخرى، وبعبارة أخرى فهي تنتقل من أمّة إلى أخرى، ومن زمن إلى آخر، وهذا يعني أنّ الحضارة لا تستقر في أمّة واحدة

((12)) فريد امعضشو، "**مفهوم الحضارة في الثقافتين العربية والغربية**"، ارجع الى المرقع الالكتروني الآتي: https: //www.aljabriabed.net/n99_2amatchou.htm.

مهما كانت قوّتها ولا يمكن أن تخلّد إلى الأبد اللّهم إلّا الحضارة الإسلامية، والأدلة تنطق بذلك رغم حالات الضّعف التي تمر بها الأمة الإسلامية بين الحين والآخر.

وممّا يستفاد كذلك من هذا التّعريف أنّ الحضارة الواحدة قد تضم في جعبتها العديد من الأمم، وهذا يدل دلالة قطعية أنّ الحضارات تتأثر ببعضها البعض وتستفيد من بعضها حسب مقدرتها على ذلك، وهذا ما يجعلها تتّسع أكثر وتمتد لتشمل حيّزا جغرافيا أكبر بحسب قوّة تأثيرها والأساليب التي تستخدمها الحضارة الأم في التأثير على غيرها.

وعلى كل حال فإنّ مفهوم الحضارة واسع جدا لا يمكن حصره أو تقييده لكن مع ذلك تجب الإشارة إلى نقطة مهمة للغاية وهي أنّ المعنى الحقيقي للحضارة و الذي ينقدح في ذهن كل لبيب وسوي الفطرة هو أنّ الحضارة هي قبل كل شيء هي أخلاق وسلوك فلا يمكن أن نطلق على شخص ما أو شعب معيّن أنّه متحضّر إلاّ إذا توافرت فيه صفات معيّنة كصفات التّسامح والصّفح عن الآخرين والحياء واحترام الآخرين وعدم الاعتداء على مختلف حقوقهم وممتلكاتهم والتزم سلوك العقلاء والأناة وعدم الطيش، والحفاظ على أمن الشعوب واستقرارها وإلاّ فإنّ سلوك ذلك الشّعب أو الشّخص يصبح سلوكا غير حضاري أو سلوكا بربريا لا يمتّ بصلة إلى الحضارة الانسانية الحقّة.

المبحث الثاني: شروط بناء وتأسيس الحضارات الانسانية

بادئ ذي بدء يمكن القول إنّ مسألة بناء الحضارة وتشييدها ليس بالأمر السّهل والهيّن، ولا تنشأ بين عشيّة أو ضحاها، بل إنّها تتطلّب توفّر أو تحقّق مجموعة من الشّروط التي لا ينبغي إهمالها البتّة أو التّغاضي عنها، لأنّ الحضارة في الأساس تحتاج إلى استمرار في العطاء والعمل الدؤوب والصّرامة والحرص الشّديد على أداء مختلف المهام والمسؤوليات لكل فرد من أفراد الأمة بدون تفريط أو تقصير منه، وفيما يلي سنورد مجموعة من الشّروط التي رأيناها ضرورية ومهمّة للغاية لتشييد الحضارات الانسانية واستمرارها لأطول مدّة من الزّمن وحفاظها على قوّتها وهيبتها.

1-الانسان: إنّ أول شرط لبناء حضارة قويّة ومؤثرة هو الانسان في حد ذاته، فهو الرّكيزة الأساسية التي يعوّل عليها أكثر من غيرها في مسألة البناء الحضاري والمدني، ولذلك فلا غرو أن يجعل المفكّر الجزائري مالك بن نبي رحمه الله[13] الإنسان أهم شرط

((13)) **فائدة:** لم أر إلى هذه السّاعة في حدود علمي مفكّرا اهتم بقضايا الحضارة وشروط بنائها كمثل مالك بن نبي الجزائري، بل إنّ جل كتبه تتمحور حول الحضارة، وهذا إن دلّ على شيء إنّما يدل على بعد نظر مالك بن نبي في هذا الموضوع بالذات، فإنّه أدرك أنّ سر تخلّف المجتمعات الاسلامية وهو الفرد المسلم في حد ذاته، وجعل لذلك اصطلاحا يعبّر عن هذا المعنى وهو "**القابلية للاستعمار**"، وكأنّه يريد أن يؤكّد لنا أنّ الانسان هو الذي يكون سببا في التّخلف الذي يحل ببلده وأمته، وأنّ الحل الحقيقي لرفع ذلك التّخلف يبدأ من الانسان نفسه، فكما أنّه كان سببا في تخلّف بلده واحتلالها ونهب ثرواتها وممتلكاتها من أعدائها، فإنّه في الوقت ذاته يستطيع أن يكفّر عن خطيئته من خلال إصلاح نفسه أوّلا ثمّ اصلاح المجتمع عقب ذلك، وهذه أحد أهم شروط إعادة بناء الحضارة العربية الاسلامية حسبه وحسب العديد من العلماء والمفكرّين. والحق أنّ الاستثمار في الفرد العربي المسلم يجب أن يبدأ بتقويم سلوكه وأخلاقه والعودة إلى الغرز الأوّل الذي كان عليه أسلافنا وأجدادنا والتي سادوا بها على أمم الدنيا في ذلك الوقت، وهنا لا مناص من القول بأنّ الدين الإسلامي وتعاليمه المختلفة والعمل بها هي الكفيلة بإخراجنا

لتأسيس البناء والحضارة، حيث يرى أنّ الحضارة هي في الأساس "إنسان+تراب+ وقت"، وهي التي تعرف بمعادلة الحضارة، ونحن نوافق مالك بن نبي في جعله الانسان محور وأساس أي حضارة انسانية، إذ لا يمكن تصوّر أن تصل أمّة من الأمم إلى قمّة الحضارة الانسانية وأوّجها إلاّ من خلال أو بفضل استثمارها للفرد أو الانسان، وأي استثمار يهمل فيه الانسان فإنّه استثمار عقيم ولا معنى له بل قد يكون له الأثر العكسي أي يكون ضرّه أكثر من نفعه.

ونحن إذا تأمّلنا في سر تفوّق الدول الغربية اليومية على غيرها من الدول لألفيناه في اهتمامها الكبير بالفرد أو الانسان، وهي –أي الدول الغربية– وإن أبدت اهتماما كبيرا للعلوم التّقنية الحديثة في بناء حضارتها الحديثة فإنّها قبل ذلك اهتمت أكثر ببناء الفرد وبرمجته على التّوفق وحب العمل والتفاني فيه والإخلاص لأوطانهم الأم، والتّضحية من أجل أن تبقى بلدانهم أقوى البلدان، ويظهر هذا جليّا في مشاريعهم الاستثمارية وفي صنائعهم والمهن التي يمارسونها، إذ لا مجال عندهم للتّقاعس أو التّهوين من شأن المسؤوليات التي ألقيت على عاتقهم، كما أنّهم يدركون جيدا أنّ الاستثمار الأمثل للفرد هو أولى مراحل وخطوات بناء وتشييد الحضارات واستمرارها لأطول فترة ممكنة.

والأصل أنّ الانسان هو محور التّغيير وركيزته الأساسية،ولذلك يجب بناء الانسان القويّ بمعرفته لذاته ولغيره والمدرك لدوره والمؤمن بأهمية دوره ورسالته في المجتمع الذي يعيش في وسطه، ولا يتحقّق ذلك إلا بتغيير الجانب النفسي فيه –أي تغيير نفسية الفرد من النّفسية الانهزامية إلى النّفسية القوية والمبدعة والمؤمنة بذاتها ودورها الرّائد في المجتمع– لأنّ القدرة على التّغيير مستقرة في نفسية الفرد لا فيما يحيط به وما يمتلكه من

من الضّعف والهوان الذي حلّ بنا منذ قرون من الزّمن، وما عدا ذلك من حلول ومقترحات تبقى مجرّد غثاء.

وسائل مادية [14]. وهذ كلام حق لا مرية فيه فإنّ كثيرا من الأمم والشّعوب تمتلك ثروات كبيرة ومع ذلك لم تقدر على بناء حضارة انسانية حقيقية،وما ذلك إلاّ بسبب الوهن والضعف الذي دبّ في نفوس أفراد تلك المجتمعات وتخبطّهم في التّرهات والخزعبلات، وهذا يؤكّد مرّة ثانية على أولوية وضرورة الاستثمار في الانسان أكثر من غيره، لأنّ الثروات المادية تذهب وتجيئ وقد تفنى لكن الاستثمار في الفرد هو الّذي يعيد الأمل من جديد للأمة رغم قلّة الإمكانات المادية وثرواتها الطّبيعية، وهذا يذكّرني بفائدة نفيسة تنسب إلى الإمام العلاّمة عبد الحميد ابن باديس رحمه الله حينما سأله بعض تلامذته: لماذا لا تؤّلف يا شيخنا كتبا علمية كما يؤلّف غيرك من العلماء فأجاب رحمه الله أنا مشغول بتأليف الرجال قبل تأليف الكتب، وصدق الإمام في ذلك فإنّ إعداد رجلا واحدا قد يغيّر مجرى التاريخ ويعيد المجد والسّؤدد لبلده وابن باديس عيّنة منهم رحمه الله.

ولذلك فإنّ مسئولية الفرد في بناء الحضارة لا تنحصر في تشييد المباني والعمارات وإقامة المصانع وابتكار الآلات والمكائن أو وسائل الاتّصال البشري الحديثة بل تمتد لتشمل تنمية الفرد فكريا وأخلاقيا وسلوكيا وهي الحلقة المهمّة جدا في استمرار الحضارة واستقرارها، فتعليم الناس أصول ومبادئ الدين الحنيف فضلا عن التّسامح والتكافل الاجتماعي والإخلاص في العمل لها دورا كبيرا في تثبيت أركان الحضارة وترسيخها، ولهذا فقد أيقنت الدول والشّعوب أنّه لا يمكنها أن تبني حضارتها بسواعد غيرها أو بسخاء الدول الأجنبية عليها، بل إنّها تبني حضارتها بسواعد أبنائها ومواطنيها، ولهذا يتّعين على المسؤولين البحث عن الأسباب التي تحفّز الأفراد في زيادة انتاجهم الفكري

((14)) عبد القادر حوة، "**شروط بناء الحضارة وأطوارها في فكر مالك بن نبي** "،مجلة مقاربات، المجلد 01، العدد03، سبتمبر 2013، ص160.

والمعرفي، وتجعل ولائهم للبلد الأم أكثر من غيره، والمتأمّل في حال وتاريخ دولة ألمانيا يدرك أهمية الفرد ودوره في بناء حضارته دون الاستعانة بغيره، فقد خرجت ألمانيا كما هو معلوم منهزمة ومحطّمة تماما بسبب الحرب العالمية الثانية ولم يبق لها في ذلك الوقت أيّ أمل للنهوض من جديد إلاّ بسواعد الألمان، وبالفعل ففي فترة وجيزة جدّا تمكّن الألمان من إعادة بعث الاقتصاد الألماني من جديد ليصبح شيئا فشيئا أقوى اقتصاد في القارة الأوروبية ويحتل المراتب الأولى عالميا، وما ذلك إلاّ بسبب استثمار ألمانيا في الفرد الألماني الّذي يعرف بالثبات في العمل والتّضحية في سبيل إعادة مجد ومكانة ألمانيا التي فقدتها جرّاء انخراطها في الحرب العالمية الأولى والثانية.

وفي ذات السّياق يرى كثير من الباحثين أنّ الانسان هو المعيار الأوّل للحضارة، وهذا ما قرّره مالك بن نبي، حيث أكّد على أنّ القيمة الأولى في نجاح أي مشروع اقتصادي هي الانسان، فليس الاقتصاد –هكذا يقول مالك بن نبي–انشاء بنك أو تشييد مصنع ولكنّه قبل ذلك هو تشييد الانسان وتعبئة طاقاته الاجتماعية في مشروع تحرّكه إرادة حضارية [15]. ولا يمكن ذلك إلاّ بوضع الرجل المناسب في المكان المناسب وتقليد الناس لمناصبهم حسب قدراتهم وتخصصّاتهم العلمية، وهذا حتّى يسهل تقسيم الأدوار على المجتمع، لأنّ بناء الحضارة هي ليست مسؤولية شخص واحد بل هي مسؤولية جميع أفراد الأمة، وتتطلّب تناسق كبير بين تلك الأدوار الموزّعة على أفراد الأمة، فالإنسان إذن هو الحضارة نفسها والحضارة هي قبل كل شيء من انتاج الانسان، إذ لا مكان لإنسان ناجح إلاّ في بيئة نظيفة وحضارة تجعل من الانسان هو

((15)) مصطفى عاشور، "**الانسان معيار الحضارة**"، منشورات مركز الوجدان الحضاري، قطر، 14 أكتوبر 2021.

محورها الأساسي، ولا حضارة ناجحة بدون انسان واعي ومدرك لدوره في المجتمع الذي يعيش فيه، وهنا تظهر العلاقة الوطيدة بينهما.

2-العلم والمعرفة: حينما نتحدّث عن دور العلم والمعرفة في بناء وتشييد الحضارات أجدُني أتمثّل بقول الشّاعر –وهو جبران خليل جبران –حينما قال:

بِالعِلْـمِ يُـدْرِكُ أَقصَـى المجْـدِ مِـنْ أَمَـمٍ ولا رُقِـــيَّ بِغَـــيْرِ العِلْـــمِ لِلأُمَـــم

وفي ذات السياق يقول أمير الشعراء أحمد شوقي:

العلــمُ يبــني بيــوتاً لا عمــاد لهــا والجهـلُ يهـدمُ بيت العز والشّـرف

والعلم هو البوّابة الكبيرة التي تلج من خلالها الأمم إلى العزّ و التّمكين في الحياة الدنيا أو في الآخرة، وبه تنتقل المجتمعات من التّخلّف والرّكود إلى التّقدم والازدهار المستدام، وبه تكف الشّعوب عن التّسول من غيرها، وبه أيضا يُعرف الماضي والحاضر ويُستشرف المستقبل بكل احترافية، ولهذا تجد الدول المتقدّمة اقتصاديا وصناعية تصرف مبالغ ضخمة جدّا في مختلف التّخصّصات العلمية، وفي مختلف أطوار التّعليم والبحث العلمي، كما أنّهم يقدّموا الدّعم المادي والمعنوي للأساتذة والمعلّمين والطلبة أي جميع الفاعلين في قطاع التعليم والبحث العلمي، وهذا حتّى يبلغوا أعلى درجات العلم في مختلف التّخصّصات العلمية.

وببساطة إذا أردت أن تعرف مدى تطور أمّة من الأمم في الجانب الاقتصادي والصّناعي والعسكري فانظر قبل ذلك إلى حجم النّفقات والمبالغ المالية المخصّصة لمجال التّعليم والبحث العلمي الذي تخصّصه كل سنة في الموازنة العامة (الميزانية العامة للدولة)

فعند ذلك تدرك أنّ التّحضر أو التّطور ليس مجرّد أمنية تستقر في الخيال أو الذهن؛ بل هو جدّ وكدّ وعمل دؤوب واهتمام متواصل بتطوير المعارف العلمية، ولذلك ظهرت كثير من المصطلحات التي تنبئ عن أهمية العلم في بناء وتشييد الحضارات كمصطلح اقتصاد المعرفة الذي انتشر بقوّة لاسيّمامع الانتشار القوّي لوسائل التكنولوجية الحديثة كالأنترنيت وشبكات الاتّصال الحديثة، والذي يدل على انتقال الاقتصاد العالمي من مرحلة التّخمين والحدس إلى مرحلة الدقّة في مختلف العلميات الاقتصادية .

وحينما نربط الحضارة بالعلم والمعرفة فكأنّما نربط بين الرّوح والجسد، فكما أنّه لا تستقيم حياة الجسد إلاّ بالرّوح فكذلك لا تستقيم الحضارة ولا تستقر إلاّ بالعلم والمعرفة، ومن يحسن توظيف العلوم والمعارف في عملية البناء الحضاري فقد قطع بلا شك أشواطا كبيرة نحو التقدّم والتّطور بشكل دائم ومستمر، ومشكلتنا اليوم في العالم العربي على وجه الخصوص تكمن في تفريطنا وزهدنا في العلم والمعرفة، فقد انشغلنا بسفاسف الأمور أكثر من انشغالنا بالعلم والمعرفة وتوسيع دائرة معارفنا، والدّليل على ذلك حينما تركب وسيلة من وسائل النقل الحديث مثلا قلّما تجد شخصا يقرأ كتابا أو بحثا علميا في مجال ما، وحتّى في المعارض العلمية التي تعرض فيها الكتب العلمية في مختلف التخصّصات تجد الإقبال عليها ضعيفا مقارنة بالإقبال على معارض المرّكبات والمواد الغذائية واللّباس والحاجات الثانوية، وليس المراد من هذا الإيراد هو ازدراء الأمّة العربية أو الإزراء بها بل القصد من ذلك هو تشخيص واقع نعيشه بشكل يومي.

وعلاوة على ذلك فإنّ الابداعات العلمية والتقنية الحديثة واستعمال الآلات الحديثة قد غيّر بلا شك الوجه الطبيعي للحياة والانسان، فقد اعتمد الانسان عليها – أي الآلات الحديثة- في أغلب نشاطاته وأتاحت له تطوير مستوياته الصّناعية

والزّراعية، وزيادة كميات الانتاج وسرعته مع قلّة الجهد والتّعب، كما استخدمت في مجال الطّب والجراحة وفي الأعمال المنزلية والمواصلات كلّها في خدمة وتسهيل سبل الحياة لدى الانسان. كما أنّ الاعتماد على الأساليب العلمية الحديثة يعبّد الطريق لفهم الانسان بشكل أعمق للدّين والعقيدة والكون والاستخلاف في الأرض على بصيرة، وإذا استقصينا تاريخ الحضارات الانسانية فإنّنا لن نجد حضارة بنيت على الجهل، فالعرب مثلا كانوا قبل الاسلام كانوا يعيشون في جاهلية مظلمة ويسيطر عليهم قانون الغاب، ففشت بينهم بسبب ذلك الحروب والاقتتال الدائم لأتفه الأسباب ولم يقدروا على تأسيس حضارة مختصة بهم حتّى جاء الإسلام وحرّرهم من أخلاق الجاهلية وقيودها، وكان أوّل ما نزل من القرآن الكريم المصدر الأول للتشريع الإسلامي هو الحثّ على طلب العلم والقراءة[16]، وبذلك تمكّن العرب من بناء وتشييد **أرقى حضارة عالمية على مر التاريخ وبلا منازع** [17]، وهذا يدل على أنّ العلم هو صنو الحضارة وركنها الركين.

((16)) عبد الوهاب بن محمد علوط، "العلم وبناء الحضارة"، لمزيد من المعلومات حول هذا المقال انظر إلى الموقع الالكتروني الآتي:
/https: //www.irwane.org

((17)) **فائدة:** لا يغرنّك أيّها القارئ من يطعن في الحضارة العربية الإسلامية أو يشكّك الناس في أهليتها وتفوّقها على باقي الحضارات، إذ لا تزال سهام النقد موجّهة بقوّة للحضارة العربية الإسلامية من الدّاخل والخارج، وهذا من أجل تزهيد الأمة العربية والاسلامية في أسباب عزّهم وتمكينهم. وقد نتج للأسف بسبب الحملات الموجهّة لتشكيك الناس في أفضلية الحضارة العربية الإسلامية وتأثيرها على باقي الحضارات الانسانية أن تراجعت مكانة اللّغة العربية في عقر دارها وجعلوها لغة للشعر والأدب فقط، وكأنّ اللغة العربية لا تصلح لحمل مشعل التّقدم والرّقي الاقتصادي، وهذا والله جهل بمقام اللّغة العربية ومكانتها بين لغات العالم، فليست المشكلة في اللّغة العربية بل في الذين ينطقون بها، حيث استبدلوا الذي هو خير بالّذي هو أدنى، ولو سبروا مدى حب الأعاجم للغاتهم الأم لأدركوا على

3– القيادة الكفؤة: إنّ المتأمّل في تاريخ الحضارات الانسانية على مر التاريخ يدرك لا محالة أنّ لكل حضارة انسانية قادة أكفاء هم الذين وضعوا اللبنة الأولى لبناء حضارتهم، وتابعوا عملية البناء والتّأسيس لتلك الحضارة خطوة بخطوة، وسهروا على إقامة أركانها وأسسها بكل ما أوتوا من قوة وفطنة وذكاء، وربطوا بين الأسباب والمسبّبات لتفادي أي عطب أو خلل لعملية البناء والتّشييد، والقيادة ليست متاحة لكل فرد من أفراد المجتمع بل تتوّفر في خواص الناس أو الأشخاص الموهوبين للقيادة وسياسة الأمور، ولذلك فلا تعجب إذا قيل أنّ الحضارة هي من انتاج العقلاء والأذكياء والعلماء الأصفياء والأنقياء.

ولكون أنّ الحضارة عملا إنسانيا دؤوبا وتتطلّب جهدا كبيرا غير منقطع، فإنّ اختيار القادة المؤهلّين للقيام بهذا الدّور البالغ أهمية أضحى من الأولويات القصوى في أيّ بناء حضاري وفكري، فانظر مثلا كيف استطاع نبيّنا وقائدنا محمد صلى الله عليه وسلّم كيف استطاع بأخلاقه السّامية أن يشيّد أعظم حضارة انسانية على مر التاريخ، والتي شهد لها القاصي والداني، ثمّ فقد أرسى نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم دعائم قوية لبناء الفرد المسلم أوّلا، وذلك من خلال تخليصه من العبادات والأخلاق الجاهلية التي كانت منتشرة قبل بعثته صلّى الله عليه وسلم، حيث غلب على تلك العبادات الشّرك بالله وصرف العبادات لغير الله والاستغاثة بالأموات وطلب الغوث من الجمادات والأصنام المصنوعة والمنحوتة بأيدي البشر، وبعد ذلك بدأ تعليم المجتمع المسلم شرائع دينهم تباعا وتدريجيا، وسما بهم إلى الأخلاق الفاضلة والحميدة التي لم تكن

الأقل مدى الحرب المعلنة على اللّغة العربية قديما وحديثا، ونحن من هذا المنبر نقول رافعي رؤوسنا إلى السماء بأنّ الأمة العربية لا يمكنها أن تبني حضارة قوية وأصيلة بلغات غيرها من الأمم، ولذلك نأمل أن تنال اللغة العربية حقّها في العلم والتعليم والبحث العلمي في العالم العربي.

قبل ذلك، فصار الصّحابة خير الناس في ذلك الزّمن علما وأدبا وعملا وسلوكا، وصاروا مضرب المثل في التّضحية للدّين والأرض والوطن، وصاروا يقدّموا أرواحهم فداءً لهذا الدّين الخالص وطاعة لله ولرسوله، ولذلك جاء في وصف ذلك الجيل بقوله صلّى الله عليه وسلّم: "**خير الناس قرني ثمّ الذين يلونهم ثمّ الذين يلونهم**...." [18]، فهذه الخيرية مرّدها لاتباع هدي وسمت خير الناس وخير قادة العالمين وهو محمد صلوات ربي وسلامه عليه.

وهكذا هو ديدن القادة قديما وحديثا ففي كل حضارة انسانية كالحضارات الشّرقية والغربية دائما تجد شخصا أو مجموعة من الأشخاص هم الذين يتجشّمون مشقّة البناء الحضاري والتّشييد المادي والعمراني لحضارتهم، فالحضارة البيزنطية مثلا قادها الامبراطور قسطنطين الكبير، والحضارة البابلية الحديثة قادها وأسّسها نبوبو لا صر الكلدي سنة 627 قبل الميلاد، والحضارة اليابانية الحديثة قادها الجنرال ميجي، وهكذا الحضارة الفرعونية قادها فراعنة مصر وهم الأسرة الحاكمة في تلك الحقبة كرمسيس الأوّل، ورمسيس الثاني، وكل الحضارات بلا استثناء أسسّها وقادها رجالا وقادة أصحاب كاريزما، فهم الّذين غيّروا مجرى العالم، وهم الّذين وصلوا اللّيل بالنهار من أجل إقامة وتشييد أركان وأسس الحضارة، وضحّوا بأموالهم وأرواحهم من أجل تلك الغاية.

ومن استنطق تاريخ الدولة الأموية أو العباسية مثلا يجد كيف كان الملوك والأمراء يربّون أولادهم على تولّي الخلافة وتسلّم زمام الحكم بعدهم أو في حياتهم، فقد كانوا يخصّصون لهم دروسا مشدّدة في السياسة والكياسة ولغة الخطاب والفصاحة وغيرها من أبجديات الحكم والسياسة، وهذا حتّى يتّهيؤوا للحكم وقيادة الرّعية التي تخضع

((18)) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الشهادات برقم 2652، ومسلم في صحيحه في كتاب فضائل الصحابة برقم2533.

لسلطانهم وإمارتهم، وبالفعل كان لهذه الدروس الخاصة دورا كبيرا في خلق جيلا قادرا على إدارة دواليب الحكم لأطول فترة ممكنة، وأخضعوا العديد من المقاطعات والأراضي لحكمهم فسادوا الدنيا في ذلك الزّمن، وكتبوا التاريخ بسعيهم وجدهم وحزمهم، وهذا إن دلّ على شيء إنّما يدل على أنّ الرجال أو القادة هم الذين يصنعون الحضارة وهم اللّبنات الأولى لتشييدها ورفع راياتها لترفرف عالية سامقة شامخة في مختلف الميادين ومناحي الحياة.

4–الأمن: لا يشك اثنان ولا يتناطح عنزان في كون أنّ الأمن هو الركن الأساسي الذي تنهض عليه أي حضارة انسانية، إذ لا يتصوّر إطلاقا أن تُبنى الحضارات والدول في ظل انتشار الخوف واستشراء القتل والفوضى والحروب، وقد دلّت السنة النبوية أنّ الأمن هو أكثر ما يحتاجه الانسان في حياته وأنّه نعمة تستوجب الشّكر من العبد لربّه، فقد جاء في الحديث قوله عليه الصّلاة والسّلام: "من أصبح منكم آمنا في سربه[19]، معافى في جسده، عنده قوت يومه فكأنّما حيزت له الدنيا [20]بحذافيرها "[21] فانظر كيف جعل عليه الصّلاة والسّلام نعمة الأمن تأتي في المرتبة الأولى، وهذا يدل على أهمية ودور الأمن في تحقيق سعادة المرء في الحياة الدنيا، حيث سبق هنا الأمن الصّحة والقوت من حيث الأهمية والخطورة ، ولا غرابة في لك إذ لا يمكن للمرء أن يسعد بحياته وبصحته أو قوته وهو خائفا على حياته وروحه من القتل وإزهاقها،

((19)) **آمنا في سربه:** أي في أهله وعياله أو في بيته وسكنه، أو عشيرته.

((20)) حيزت له الدنيا بحذافيرها أي اجتمعت له النعم والمتطلبات أو كأنما الدنيا بأسرها (جميع نعم الدنيا ملكها).

((21)) رواه ابن ماجة والترمذي وحسّنه الألباني في صحيح الجامع والسّلسلة الصحيحة بدون لفظة حذافيرها.

فالأمن إذن ركيزة أساسية في بناء وتأسيس الحضارات لا يمكن التّساهل فيها أو التّقليل من شأنها.

ومن كان له أدنى شك في دور الأمن في بناء الحضارات وأفولها فليسأل الشّعوب التي تعاني من ويلات الحروب والاقتتال، أو ليذهب إلى تلك الأمنة ليبصر نعمة الأمن، فليس الخبر كالمعاينة كما يقال في المثل، عند ذلك ستتبدّد عنده جميع الشّكوك التي تحوم حول دور الأمن في استقرار الدول والشّعوب والحضارات، لأنّه بانعدام الأمن تتوقف عجلة التنمية وتغلق المدارس والجماعات والأسواق والدكاكين . وتنعدم حركة المواصلات ويقل السّفر، وتجمّد المشاريع الاستثمارية الصّغرى والكبرى، ويصبح الشّغل الشّاغل للمجتمع هو تحقيق الأمن واعادة الاستقرار لبلدانهم وأوطانهم، ولقد كان لنا في الحرب العالمية الأولى والثانية أعظم درسا في كون أنّ الأمن يحتل أهمية كبيرة جدّا في سعادة الناس واستقرارهم في الحياة الدنيا وشعورهم بالطمأنينة والرّاحة النفسية في معاشهم.

وترجع خطورة قضية الأمن بشكل عام إلى كونه ضرورة رئيسة لاستقرار المجتمعات وتقدّمها، والحفاظ عليه يعد محورا أساسيا لصناعة الحضارة، وهو ما يجعل الأمم تحرص عليه أشّد الحرص، وترتبط كذلك قضية الأمن بالسُّلم القيمي للمجتمعات [22]وإدراك المجتمع لأهميته وخطورته، فعندما يغيب الأمن ويفرّط المجتمع فيه تنتشر الجرائم ولا يأمن الناس على أنفسهم، فكيف بهم عند ذلك يتفرّغون إلى الحفاظ على مكتسبات الحضارة ومقومّاتها ؟، وكيف يستطيعون أداء وظائفهم الموكلة إليهم؟، ولا شكّ أنّ غياب الأمن يفضي إلى توقف عجلة التّنمية والحضارة بشكل تام، بل إنّ غياب الأمن

((22)) أحمد مصطفى علي، "**الأمن خطوة في طريق الحضارة**"، منشورات شبكة الألوكة الإسلامية، 2012/05/13.

يؤدّي إلى انهيار الحضارة بكل جوانبها وأركانها، ويجعل الناس يبحثون عن ملاذ آخر للعيش فيه، وإن كانت بلدانهم تتوفّر فيها جميع شروط وضرورات الحياة والتحضّر، بل إنّ الناس عادة يفرّطون في ثرواتهم وممتلكاتهم بحثا عن الأمن والاستقرار، وفي الحروب ينزح الناس من المناطق غير الآمنة ولو كانت مزدهرة إلى المناطق الآمنة وإن كانت قليلة الحركة والنشاط التجاري .

ومجمل القول إنّ الأمن هو الذي يمهّد الطريق لبناء الحضارة ويهيّئ كل الظروف الملائمة لتحقيق جميع شروط الحضارة، وبه يشعر أهل الحضر والبدو بالراحة النفسية والطمأنينة، ويطلقون العنان لإظهار إبداعاتهم وقدراتهم العلمية والمعرفية والمهنية، ومن ثمّ تنفتح أمام الناس كل سبل العمل المريحة والمشجّعة، فتشيّد عن ذلك جميع مظاهر الحضارة الانسانية كالمصانع والمباني والطرقات وجميع وسائل الاتصال والنقل والمدارس والمستشفيات وغيرها من مظاهر الحضارة المادية والمعنوية، وتستقر بسبب ذلك حياة الناس وتزداد وشائج المحبة والتآزر بينهم إلى حد تفيض معه مشاعر الثقة المتبادلة بين الشعوب والحكومات، وبهذا تصل المجتمعات إلى أرقى درجات التقدّم والتحضّر.

5– المال: كما هو معلوم فإنّ المال[23] هو عصب الحياة، وبدونه يعجز الانسان عن تلبية حاجاته الضرورية فضلا عن حاجاته الثانوية، وبفقدانه تتعطل عجلة التنمية وينتشر الجوع بين الناس، وتقل فرص العمل والحياة الآمنة، والانسان بفطرته يحب المال ويكرّس حياته لجمع المال من كل مكان، ليحقق لنفسه فرص السّعادة والهناء في الحياة

((23)) **المال:** ما سميّ المال بهذا الاسم إلاّ لميل النفوس إليه، فالناس يميلون إليه ميلا ويقبلون عليه إقبالا، وما ذلك إلاّ بسبب أنّه تُقضى به الحاجات و ترفع به الدرجات ومكانة المرء بين الناس.

الدنيا، وما دام المال هو عصب الحياة فإنّه من باب أولى شرط أساسي لبناء الحضارات الانسانية، وكما قال أحمد شوقي:

بالعلم **والمال** يبني الناس ملكهم لم يبن ملك على جهل **وإقلال**

وما الحروب التي جرت بين شعوب العالم إلاّ بسبب حب المال وحب السيطرة والملك، فحب المال غريزة، قال تعالى: " وإنّه لحب الخير لشديد " [24]، وقد فسّر الخير هنا بالمال ومعنى الآية أنّ الانسان شديد الحب للمال، وهذه حقيقة مستقرة في نفوس البشر لا ينكرها إلاّ معاند أو مستكبر. ومهما يكن فإنّ المال له علاقة كبيرة بالجانب المادي للحضارة، إذ كلّما امتلكت الأمم مالا وفيرا سهّل عليها ذلك القيام بمختلف المنجزات المادية والمعنوية والمعرفية للحضارة دون أن تحتاج إلى تقديم إعانات مالية من غيرها من الأمم، فالمال يحقّق السيادة للأفراد والأمم، وبه تستنير قلاع الحضارة الفكرية والمادية، وتبني حصونها الدّفاعية ليأمن المجتمع من جميع المخاطر التي تحدق ببلدهم أو حضارتهم، وتقطع الطريق أمام أعدائها الذين يريدون أن يهدموا الحضارة من أصلها، فمال إذن هو الشّريان الرئيس الذي تتوقف عليه حياة الحضارة أو فنائها.

وحتّى في الحضارات القديمة كان المال سببا رئيسا في إقبال الناس على العيش في مدينة من المدن أو حاضرة من الحواضر دون غيرها، فتزايد النشاط الاقتصادي والتجاري تدفع كثير من الناس للتّوجه نحو المدن والحواضر الكبيرة لممارسة مختلف الأنشطة المربحة، وبفضل المال يلتئم الناس في مكان واحد، ونتيجة لذلك تتطوّر المدن والحواضر شيئا فشيئا، وتصبح قابلة للتقدّم المستمر في جميع المجالات، سواء العلمية

((24)) سورة العاديات، الآية 08.

منها أو الاقتصادية أو الاجتماعية، ويشيّد أصحاب الأموال المصانع والمنشآت الاقتصادية وتزيد فرص العمل، وتتحسّن القدرة الشّرائية للمواطنين بسبب تزايد الأنشطة التجارية والصّناعية في تلك المدن، وعند ذلك تتهيّأ كل الظروف المناسبة لإقامة حواضر العلم والمعرفة والانتاج العلمي والعملي، وتزدهر حياة النّاس وتتداعى عليهم أسباب الرفاه الاجتماعي تباعا.

6- التفاني والإخلاص في العمل:

إنّ أهم ما يميّز الانسان عن غيره من الكائنات هو إدراكه قيمة العمل في بناء الحضارات، واستمرار هذه الحياة الدنيا، وهو يعلم أنّه المخلوق المكلّف شرعا بالعمل لعمارة الأرض واستثمار ما فيه لمصلحته وبما ينفعه في العيش كمخلوق مكرّم على سائر المخلوقات، والعمل في الأساس هو مكرُمة للإنسان وبه عزّه وشرفه، وفي السُّنة النبوية ما ينص على أهمية العمل وضرورته في حياة الناس، فقد صحّ عنه عليه الصّلاة والسّلام: "لَأَنْ يأخذَ أحدكم حَبْلَهُ، فيَأْتِي بحِزْمَةِ الحطبِ على ظهرِهِ فيَبيعها، فيَكُفَّ اللهُ بها وجهَهُ، خيرٌ لهُ من أن يسألَ الناسَ، أعطوهُ أو منعوهُ" "[25]، وصحّ عنه كذلك قوله عليه الصّلاة والسّلام: "اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنْ اليَدِ السُّفْلَى....."[26] والنّصوص الشّرعية التي تحث على ضرورة العمل كثيرة لا تحصى ولا تعد، ولكن المقصود أنّ الحضارة الانسانية هي من كسب الانسان وعمله، فالحضارة لا تبني نفسها بنفسها، والعمران لا يشيّد بالصّدفة بل بالعمل والجهد الدؤوب للنّاس، فالعمل هو أُس الحضارة وقاعدتها

((25)) أخرجه البخاري في صحيحه (1471) وصحّحه الألباني في غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام برقم 156.

((26)) حديث متفق عليه أخرجه البخاري في كتاب الزكاة برقم 1427 ومسلم في كتاب الزكاة برقم 1034.

الأساسية في كل زمان ومكان، فهذه الحضارات الانسانية على مر التاريخ هي ترجمة عملية لما كان يبذله الانسان من جهد بدني أو فكري في ذلك الوقت، والتّمسك بالعمل والمداومة عليه هو الّذي يدل على مدى حب الناس لبلدانهم وأوطانهم، فلا قيمة للوطن والبلد والشّعب إلاّ بالعمل ولا سؤدد لهم إلاّ بما تنتجه سواعدهم وأيديهم من سلع ومواد غذائية أو صناعية أو تقنية، ومن ثمّ فإنّ العمل هو قاطرة التّنمية وهو الّذي يرفع الأمم إلى أعلى المقامات وأسنى الدرجات وأولى الرتب في الاقتصاد والمعرفة والمكانة الدولية.

لكن ثمّة مسألة مهمّة يجب الإشارة إليها هنا بخصوص العمل، فالعمل لا يثمر الناجح الحقيقي ما لم يكن خالصا ومتقنا وفق الأطر الأخلاقية والقانونية المعمول بها، ولذلك فإنّ التفاني في العمل وإتقانه هو بيت القصيد في بناء أي حضارة انسانية، فليس مجرّد أداء عمل يومي وبشكل روتيني أنّنا نستطيع أن نؤسّس لحضارة قويّة وقادرة على الصُّمود والتّحدي لأطول فترة ممكنه بل قد يكون للعمل آثار عكسية إذا لم يراعَ فيه الاتقان والإخلاص والصّرامة من قبل العاملين والمنتسبين للقطاع العام أو القطاع الخاص، ولذلك فقد حثّ ديننا الإسلامي على ضرورة اتقان العمل كما يجب أن يعمل الانسان لنفسه.

وقد صحّ عن نبيّنا محمد صلّى الله عليه وسلم أنّه قال: " إنَّ اللهَ يَحبَ إذا عمل أحدَكَم عملا أنْ يُتْقِنَهُ" [27]هذا منطوق الحديث ومفهوم الحديث أنّ الله يبغض إذا عمل أحدا عملا ولم يتقنه، فكما أنّ إتقان العمل يوجب محبة الله للعبد بنص الحديث، فإنّ عدم اتقانه من جانب آخر يوجب بغض الله للعبد، وبغض لله للعبد هي من أشد العقوبات عليه إن لم نقل أنّه قد يكون سببا في بعده عن رحمة الله ما دام أنّ الله قد

((27)) أخرجه أبو يعلى والطبراني وصحّحه الألباني في السلسلة الصّحيحة.

أبغضه، وهذا يدل صراحة على أنّ العمل من الإيمان فالمؤمن لا يخون ولا يغش في عمله لقوله صلّى الله عليه وسلّم: "من غشّنا فليس منا"[28]، وهذا من أهم الأحاديث التي تدل صراحة على خطورة الغش في العمل وعدم الإخلاص فيه، ولذلك من المفترض أنّ يكون المسلم أكثر اتقانا وإخلاصا في عمله بغض النّظر أن يكون هناك رقيبا على عمله أو لم يكن لأنّه يتقن العمل طاعة لله ولتحقيق الأمن الغذائي له ولمجتمعه ولبلده، فما أُستعبدت الشّعوب والأمم إلاّ بسبب تركها للعمل أو عدم الإخلاص فيه، وبتفريطها في العمل فقدت سيادتها وأصبحت تتكّل على غيرها في تأمين غذائها وقوتها.

وإذا أردت أن تقف على أهمية العمل ودوره في بناء الحضارات فانظر مثلا كيف يتفانى العامل الياباني في عمله، إذ يخصّص جلّ وقته للعمل، وقد يضطر لزيادة وقتا إضافيا منه لإتمام عمله والتفاني فيه، بل قد كان الناتج المحلّي الاجمالي للفرد في اليابان في عام 1973 يعادل 95% و69% من نظيريه في كل من بريطانيا والولايات المتّحدة الأمريكية على التوالي، وفي عام 1991بلغ الناتج المحلي الاجمالي للفرد الياباني 120%و 85% من نظيريه في بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية على التوالي[29]، وبهذا تعرف أنّ أحد الأسرار الكبرى للتفوق الياباني في الصّناعة والتكنولوجية هو مضاعفة الجهد والعمل والاتقان في الأعمال الموكلة لهم، إذ أنّ الفرد الياباني ينظر إلى المؤسّسة التي يعمل بها أنّها جزءا من حياته وسعادته بل ينظر إليها كأنّه مؤسّسته هو فلا فرق بين المالك والمملوك إلاّ الصفة أو الرتبة فقط، ويسود احترام كبير بيم الرئيس

((28)) أخرجه مسلم في صحيحه برقم 146و147.والهيثمي في مجمع الزوائد برقم82.

((29)) أوكازاكي تيتسوجي،**"من الدمار إلى القوة: كيف حققت اليابان معجزتها الاقتصادية لتصبح ثالث أقوى اقتصاد في العالم؟** " انظر إلى الموقع الإلكتروني الآتي: https: //www.nippon.com/ar/in-depth/a

والمرؤوس نتيجة التفاني في العمل وشعور كل أحد بالآخر، ولذلك فقد ظلّ الاقتصاد الياباني من أقوى اقتصادات العالم إلى يومنا هذا، وهذا لم يأت من فراغ بل هو حصيلة سنوات من الجد والاجتهاد والعمل الدؤوب.

وعليه يتّضح أنّ الحضارة هي في الأساس وليدة العمل وما ينتجه الانسان من أعمال وأنشطة إذ كلّما تفانى الانسان او الفرد في عمله وأخلص فيه أقام صرح حضارته وبناه على أسس سليمة، وكلّما تلكّأ الفرد وتقاعس في أدائه لعمله كان ذلك إيذانا بخراب الحضارة والعمران، وصار عند ذلك تابعا لغيره بدل أن يكون هو المتبوع، فالحضارة والعمل لا ينفكّان عن بعضهما البعض ما بقي الليل والنهار، ولذلك جاء عن سيّدنا محمد صلّى الله عليه وسلّم في الحديث الذي يرويه الصّحابي الجليل أنس بن مالك عنه: "إن قامت السّاعة وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل"[30] وهذا يدّلك مرّة أخرى على أهمية العمل في الدين الاسلامي ودوره في البناء الحضاري واشباع حاجات الناس.

7- **التّخطيط العلمي**: إنّ المقصود بالتّخطيط العلمي هنا وعلاقته ببناء الحضارة وتطويرها هو التّخطيط المبني على النّظريات العلمية والفروض العلمية الدقيقة والاستشراف للمستقبل، وأن يضطلع به علماء وخبراء مختصين في مجالات علمية ومهنية معيّنة. وفي الحضارات القديمة كان الملوك والأمر يدنون منهم خبراء في العديد من المجالات يستشيرونهم في المجالات التي يتقنونها سواء تعلّق الأمر بفنون الحرب والقتال أو في فنون البناء والعمران أو المعاملات الدبلوماسية والدولية أو التبادلات التجارية، حيث يطلب منهم الملوك والأمراء وضع خطط استراتيجية في تلك المجالات

((30)) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، وصحّحه الألباني في السّلسلة الصحيحة، وقال عنه الأرناؤوط إسناده صحيح على شرط مسلم.

من أجل تحقيق أكبر المنافع وتفادي الخسائر قدر الإمكان، فالله عزّ وجل لم يجعل لشخصا واحدا مهما أوتي فهما وذكاءً ومن باب أولى إحاطة بكل شيء من أمور الدنيا والسياسة ولأجل ذلك فهو يحتاج إلى من يعينه في تدبير أمور الدولة وإدارتها، وذلك من خلال التّخطيط والتّدبير للحاضر والمستقبل، وبهذا يحدث التّكامل والتّعاون الوظيفي بين الحاكم والمحكوم، ويتفرّغ الحاكم أو القائد لتعزيز أركان الحضارة التي يشرف على إدارتها ورعايتها .

وما فاتتنا الدول المتقدّمة اليوم إلاّ من خلال اعتنائها الشّديد بالتّخطيط؛ بل قد أصبح التّخطيط عندهم علما قائما بذاته وله وزارات ودوائر حكومية مستقلة يعهد لها التّخطيط ووضع مخطّطات للسياسة العامة للدولة، فهم يخطّطون في مختلف مجالات الدولة فالتّعليم مثلا له خبراء ومتخصّصين يقع على عاتقهم مسؤولية وضع برامج علمية قادرة على رفع المستوى العلمي والتربوي في المنظومة التّعليمية، كما أنّ الصناعة والتكنولوجية لهما كذلك خبراء متخصّصين في هذين المجالين هم الّذين يضعون الخارطة العامة لتطوير هذين المجالين، وهكذا دواليك. ويفهم من هذا أنّ التّخطيط لبناء الحضارة وتطويرها مبني في الأساس على عنصر الخبرة والدراية من جهة ومبني كذلك على أسس تقسيم المهام والأدوار؛ فالسّياسة العامة للدولة مثلا تتضمّن العديد من التخصّصات والقطاعات ومن المستحيل أن تقوم وزارة واحدة بجميع مهام الحكومة وأن تتفرّغ للتّخطيط لجميع شؤون الدّولة في الداخل والخارج، ومن ثمّ فالحكومة تجد نفسها مضطرة إلى تفعيل مبدأ التّخصّص العلمي والمهني وهذا حتّى تسهل عملية التّخطيط وإدارة شؤون الدّولة بكل يسر وسهولة.

إنّ التّخطيط للحاضر والمستقبل لم يعد مستندا على التّوقع والتنبؤ أو مجرّد التخمين كما كان عليه سابقا بل قد أصبح اليوم يعتمد على الأساليب العلمية الحديثة

كالحواسيب والانترنيت والإحصاء وغيرها من الأساليب العلمية الدقيقة، وهو ما يجعل الحضارة اليوم قادرة على صنع المعجزات والخوارق في المجالات العلمية والخدماتية؛ فانظر مثلا إلى حال الصّين اليوم كيف استطاعت بفضل التّخطيط العلمي والاستراتيجي أن تحقّق قفزة نوعية ورهيبة في مجال الاقتصاد والتجارة والمواصلات والبحث العلمي والصّحة وغيرها من المجالات الحيوية التي باتت تؤرّق الغرب وفي مقدّمتها الولايات المتّحدة الأمريكية، ومن المتوقع وهذا ليس بغريب أن تتفوّق الصّين في المستقبل على الولايات المتحدة الأمريكية في العديد من المجالات وبخاصة في مجال التّكنولوجية الحديثة والمواصلات والصّناعات الإلكترو منزلية والخدمات العامة على الغرب، بل إنّ تخوّف الولايات المتّحدة الأمريكية من النّجاح الصّيني المستمر جعلها تدّق ناقوس الخطر وتختلق للصين العديد من الأزمات الداخلية كأزمة تايوان على سبيل المثال، وبهذا يتضّح أنّ النّجاح الذي حقّقته بعض الدول و صنعته بعض الحضارات هو في الأساس ناتج عن حسن التّدبير والتّخطيط، حيث تُبنَ حضارة يوما بمجرّد التّمني أو التّرجي أو عن طريق الصّدفة.

8-الحزم والصّرامة: والمراد به عدم تأجيل عمل اليوم إلى الغد وعدم التّساهل كذلك في تسليط أقسى العقوبات على من تورّط في مخالفات مقصودة ومتكرّرة، فما بنيت الحضارات على مر التاريخ إلاّ بالجدّ والحزم ولا مكان للتّساهل أو التّفريط أو التّقاعس في إدارة شؤون الدّولة والمجتمع ففي عصر الدولة العباسية مثلا رأينا كيف كان أمراء الدولة العباسية حازمين مع العدو الداخلي والخارجي، وكيف كانوا يحرصون على إنجاز المهام والمهّمات بصرامة فائقة كالخليفة هارون الرشيد الذي عرف عنه الصرامة والجد في إنفاذ الجيوش إلى ساحات الوغى والرد على أعداء الأمة الإسلامية آنذاك ردودا تليق بمقام أولئك الأغمار، وهو ما جعل للّدولة الإسلامية كبيرة آنذاك إذ كان يخشاها

البعيد قبل القريب، ويحسب لها الأعداء ألف حساب قبل أن يفكرّوا بغزوها وشن الغارات عليها.

وفي العصر الحديث نجد في التجربة اليابانية أفضل مثال عن حزمهم وصرامتهم في العمل وسرعة انجاز المشاريع بإتقان لا نظير له، فهم لا يؤجّلون عمل اليوم إلى الغد أبدا؛ بل قد أصبحوا مضرب المثل في الإتقان وجودة العمل وسرعته، ولهذا تجد البنية التحتية في اليابان هي من أقوى البني التحية في العالم وأسرعها، وهذا ما مكّن لليابانيين أن يتبوءوا مكانة عالية جدّا في سلم ترتيب أحسن وأقوى الاقتصادات في العالم، ولذلك تجد العمالة اليابانية اليوم هي الأكثر طلبا على مستوى العالم وقليل من يستطيع الصّمود معها أو منافستها، فهم استطاعوا أن يحتل المراتب الأولى في المجال من المجالات وبخاصة المجالات التكنولوجية فقد نافسوا فيها كبار دول العالم وأحرزوا تفوقا عليها.

فالجّد والصّرامة والحزم إذن كلّها عوامل مهمّة لبناء الحضارة وتعزيز قواعدها وفي الثورة الجزائرية التي اندلعت في منتصف القرن العشرين وبالتحديد سنة 1954 في غرة شهر نوفمبر خير مثال على ذلك إذ تحلّى مسؤولي الثورة الجزائرية بصرامة شديدة، وقد كان لذلك دورا حاسما في نجاح الثورة وإرباك العدو رغم تفوّقه العسكري، كما أثبت رجال الثورة آنذاك صرامة كبيرة جدّا في نقل المعلومات بين الثوار ومنسقّي الثورة التّحريرية إلى درجة عجز فيها العدو الغاشم عن توقيف مسار الثورة الجزائرية، ولا أدّل على ذلك من صرامة منظّمي الثورة التّحريرية في تحديد موعد تفجير الثورة، فقد كان القليل جدا من يعرف موعد تفجير الثورة بل من يعرف ذلك يعدّون على الأصابع، وهكذا في مؤتمر الصومام 1956 فقد عقد هذا المؤتمر في سريّة تامة وعجيبة حيّرت حتّى أبناء الثورة الجزائرية، ولو تأمّلت في سر نجاح الثّورة بشكل عام لوجدته بسبب

السّرية الشّديدة والصّرامة والحزم، وقد كان كبار قادة الجيش لا يتساهلون البتّة في معاقبة كل من تورّط في جريمة إفشاء أسرار الثورة الجزائرية، حيث يكون مصيره الذّبح أو القتل مباشرة، وهذا حتّى يكون في ذلك عبرة لمن تسوّل له نفسه القيام بنفس ما قام به ذلك الشّخص.

9- العدل: إنّ العدل هو أساس الملك كما ذهب إلى ذلك العلاّمة عبد الرحمان بن خلدون رحمه الله أي أنّه أساس للحكم في الدولة واستقرارها، وعندما يكون العدل هو الفيصل في المنازعات والحكم بين المتخاصمين فإنّه من المؤكّد سينعم المجتمع بالأمان والاستقرار وتستتب عند ذلك أمور الدّولة ويشعر النّاس بالرّاحة والطمأنينة، فلا يدّخر عند ذلك المجتمع وسعا في بناء أركان الحضارة وقواعدها الأساسية وتصبح العلاقة بين الحاكم والمحكوم يسودها الاحترام المتبادل، ولذلك فقد عرفت الأمة الإسلامية في عهد الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه أسمى صور العدل فأعجز بعدله من أتى بعده رضي الله عنه فقد حلّ الأمن في عهده واستقرّت أمور المجتمع المسلم في خلافته، وضرب للعالم أبهى مشاهد العدل في تاريخ البشرية، وإنّ هذا الكتاب ليعجز عن حصر قصص عمر الفاروق رضي الله عنه في العدل، وهو المعروف بمقولته الشهيرة "**متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أماتهم أحرارا**" وقصص عدله رضي الله تكاد لا تصدّق حتّى يظن البعض أنّها من وحي الخيال، ونتيجة لذلك فقد عاشت الأمة الإسلامية في عصر نبينا محمّد صلى الله عليه وسلم وخلفائه الرّاشدين وبخاصة سيّدنا عمر بن الخطاب في كنف العدل وانتشرت المحبة بين الناس وأمِن الناس من الجور والظلم والضيم، فكان ذلك العصر عصر العدل بحق وليس مجرّد شعارات كما ترفعها بعض الهيئات الدولية والمحاكم بهتانا وزورا.

والعدل هو الّذي يرفع راية حقوق الانسان وجميع المخلوقات، وهو الّذي يرّد المظالم لأهلها، ولذلك فمن أسباب انحطاط الحضارات وزوالها هو الظلم؛ إذ كلّما استبدل العدل بالجور والظلم كان ذلك مدعاة في ضياع حقوق الناس وانهيار الدولة وشيوع الفوضى بين الناس، وبسبب ذلك قد حرّم الله على نفسه الظلم وجعله محرّما بين الناس، وقد جاء في الحديث القدسي الذي رواه أبو ذر الغفاري عن نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربّه عزّ وجل أنّه قال: "يا عبادي إنّي حرّمت الظُّلم على نفسي وجعلته بينكم محرّما فلا تظالموا....."[31]،و قد جاء النّص في القرآن صريحا على حرمة الظلم وشناعته في قوله تعالى " وَمَا رَبُّكَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ" [32]، وقوله أيضا: " ولا يظلم ربّك أحدا" [33]، ونصوص الشّرع مترعة بالأحكام والأدلّة التي تبيّن مدى أهمية العدل وتحريم الظلم بجميع أنواعه كظلم العبد لنفسه وظلم العبد لأهله ولغيره وظلم الحاكم لرعيته، ولذلك لم تعرف الحضارات الإنسانية على مر التاريخ نظاما عادلا وتشيع فيه معاني العدل كالحضارة العربية الإسلامية وسنذكر ذلك بالتفصيل عندما نتطرّق إلى خصائص الحضارة العربية الاسلامية

وقد ذكرت الكاتبة إحسان الفقيه جملة رائعة جدا بخصوص أهمية العدل ودوره في حصول الاستقرار الحضاري والمجتمعي يجدر بنا ذكرها في هذا المقام حيث قالت: "**إن قيمة العدل أوسع وأشمل من ذلك، هو سبيل المجتمعات إلى الاستقرار والنهوض وجمع الكلمة، والطريق إلى قيام الدول وتثبيت أركانها**"، والقاعدة الذّهبية التي اتفق عليها البشر جميعا: «العدل أساس الملك». ومن أجل أهمية العدل للمجتمعات

((31)) أخرجه مسلم في صحيحه.

((32)) سورة فصلت الآية 46.

((33)) سورة الكهف الآية 49.

والدول، أدرجه الإمام الماوردي في كتابه «**أدب الدنيا والدين**»، ضمن القواعد اللاّزمة لصلاح الدنيا واستقرار المجتمعات ونهوضها، فقال: «القاعدة الثالثة: «**عَدْلٌ شَامِلٌ يَدْعُو إِلَى الْأُلْفَةِ، وَيَبْعَثُ عَلَى الطَّاعَةِ، وَتَتَعَمَّرُ بِهِ الْبِلَادُ، وَتَنْمُو بِهِ الْأَمْوَالُ، وَيَكْثُرُ مَعَهُ النَّسْلُ، وَيَأْمَنُ بِهِ السُّلْطَانُ**». فمتى وجد العدل سادت الألفة بين الناس وبينهم وبين حكامهم، ومن ثمّ انصرفت الهمم للبناء والإعمار والإنتاج، إذ إن العمل مبناه على الأمن، والأمن مبعثه العدل، وقد نقل ابن عبد ربه في كتاب «العقد الفريد» عن عمرو بن العاص قوله: «لا سلطان إلاّ بالرجال، ولا رجال إلا بمال، ولا مال إلاّ بعمارة، ولا عمارة إلاّ بعدل»[34]. وقد آثرت أن أنقل النّص كما هو دون تغيير لأهمية ما نقلته الكاتبة واكتفي بما أوردته الكاتبة في هذا الباب فقد أجملت وأحسنت الحديث عن أهمية العدل في فقرة قصيرة.

وهذه إذن باختصار جملة من الشّروط التي رأيناها مهمة للغاية ابناء وتشييد أي حضارة انسانية، مع اعتقادنا بأنّه هناك شروط أخرى لا تقل أهمية عن هذه الشروط التي ذكرنا طرفا منها، ولكن أردنا الاختصار والإيجاز حتّى نتحاشى الإطناب والحشو الممل الذي يزيد عن الحاجة، وكما قيل ما لا يدرك كلّه لا يترك جلّه.

((34)) إحسان الفقيه، "**العدل أساس الملك...هل حقا هو كذلك؟**"، صحيفة القدس العربي، 06فبراير 2022.

المبحث الثالث: دورة الحضارة(مراحل الحضارة الانسانية)

لا شكّ أنّ للحضارة الانسانية مراحل تمرُّ بها مثلها مثل الكائن البشري (الانسان)، ولكن وإن طال أمد أحد مراحلها فهذا لا يعني أنّها ستبقى هي الحضارة القوية والمسيطرة للأبد، بل إنّه من سنن الله الكونية في خلقهّ أنّ القوة والغلبة تتعاقب بين الأمم والمجتمعات والأفراد قال تعالى " وتلك الأيام نداولها بين النّاس...."[35]، واليوم مثلا قد تكون أمّة ما أو دولة معيّنة هي الأقوى لكن لن تسطيع تلك الدولة أن تضمن لنفسها الحفاظ على تلك القوّة والمكانة بصورة دائمة، وهذا إن دلّ على شيء إنّما يدل على فناء الدول والحضارات كما يفنى الانسان ومختلف الكائنات الحيّة.

وقد تتفاوت الدول والحضارات من حيث مدّة تعميرها ومراحلها الزّمنية لكنّها في النهاية سيكون مصيرها الفناء والزّوال ما خلا الحضارة الاسلامية، -نقصد هنا الفناء الأبدي-وهذا ما سنتكلّم عليه لاحقا حينما نتطرّق إلى خصائص الحضارة العربية الاسلامية، وعلى العموم يذهب العديد من المفكّرين وعلماء الاجتماع على غرار عبد الرّحمان ابن خلدون، ومالك بن نبي وأسوالد اشبنجلر الألماني إلى القول بأنّ الحضارة تمر بعدّة أطوار ومراحل وآخر تلك المراحل هي مرحلة الانحطاط والزّوال والفناء، ومن ثمّ فإنّ مصير كل حضارة إلى فناء ونقصان، وهذا يوافق قول عمر بن الخطاب رضي عنه "كلّ شيء إذا تمّ نقُص" من النقصان"، وإن اختلف علماء الاجتماع في أهم المراحل التي تمر بها الحضارة الإنسانية فإنّه بالإمكان أن نلخّص تلك المراحل على النّحو الّذي ساقه العلاّمة عد الرحمان بن خلدون، والذي نعدّه أحد المراجع الأساسية في هذا الموضوع بالذّات، حيث قال إنّ الحضارة تمر بثلاث مراحل أساسية وهي:

((35)) سورة آل عمران، الآية 140.

المرحلة الأولى: مرحلة البداوة

وهي مرحلة ما قبل التّحضر أي هي المرحلة التي تفتقر لكل عوامل التّحضر كالعلم والعدل والتّعاون الاجتماعي؛ ففي هذا المرحلة يغلب على المجتمع طبائع حب الاستبداد والقوّة والهيمنة الأمر الذي يجعل من الصّعب بمكان جمع الناس على كلمة واحدة وهدف واحد ورجل واحد لسيطرة الأهواء على العلاقات الاجتماعية والسياسية بصفة عامة ولصعوبة خضوع الناس للأحكام والشّرائع والقوانين، وهذه المرحلة تشبه المرحلة الجاهلية التي سبقت ظهور الإسلام في بلاد العرب والحجاز.

ونجد هنا أنّ ابن خلدون –بخصوص هذه المرحلة– قد أطلق كلمة البداوة على البدو الذي يقطنون الصّحراء في قبائل، وعلى البربر الذي يسكنون الجبال، وعلى كذلك التتار الذين يعيشون في السهول مجتمعين في عصبيات قويّة، وهؤلاء جميعا – حسب ابن خلدون– لا يخضعون لقوانين متحضّرة ولا تحكمهم سوى حاجاتهم وعاداتهم –أي أنّهم مجتمع براغماتي بالمصطلح الحديث– وهم يمرّون بمرحلة من الحياة تكون سابقة على مرحلة التّحضر، وفي هذا الصّدد يرى عبد الرحمان بن خلدون أنّ أهم دوافع اجتماع القوم الذين تنطبق عليهم كلمة البدو هي تحصيل أقواتهم وتأمين حياتهم من جميع الأخطار، وفي سياق آخر يقول ابن خلدون: " بأنّه إذا ما اتّسعت أحوال البدو ووصلت إلى الغنى وجاوزته إلى التّرف دعاهم ذلك إلى السّكون والدّعة واتّخاذ القصور والمنازل وهؤلاء هم أهل الحضر"[36].

((36)) نصارى فهمي محمد، "**نظرية التعاقب الدوري للحضارات عند ابن خلدون**"، محاضرة ألقيت بجامعة المنية، كليّة دار العلوم، قسم التاريخ الإسلامي، بدون ذكر تاريخ النشر.

وفي الجملة فإنّ أهم مميّزات مرحلة البداوة حسب ما يظهر من أقوال العلاّمة ابن خلدون هي كالآتي:

-أنّهم يسكنون في أماكن بعيدة عن الحواضر العلمية، وهذا ربّما انعكس سلبا على طبائعهم وأخلاقهم ممّا جعلهم غير مؤهّلين لإقامة نظام حكم يسود فيه العدل والأمان، فكما هو معلوم كلّما بعدت المجتمعات على قلاع العلم وأهلها صارت أخلاقهم أقل تحضّرا ويغلب عليها الطّيش والنّزق [37].

-أنّهم لا تحكمهم قوانين متحضّرة بل تسيطر عليهم الأهواء والشّهوات والعادات الموروثة، وعادة ما يحصل بسبب ذلك الفوضى والنزاع على أبسط شيء من حقوق الناس، وهذه الميزة تجعل مسألة التّحضر ملغاة تماما ولا يمكن التفكير فيها البتّة، فقوم لا يحتكمون إلى دين أو شريعة أو قانون أقل ما يقال عنهم أنّهم غير عقلاء وليسوا أهلا لأن يسودوا على غيرهم.

- التّعاون فيما بينهم محصورا في تحصيل القوت والغذاء وتأمين حياتهم من الأعداء والشّرور فقط.

- أنّ آخر مراحل البدو تنتهي بتحصيل أسباب التّحضر كالغنى والسُّكون والدّعة ولا شك أنّ هذا يحصل نتيجة تبنّي أهل البدو لنظام اجتماعي وسياسي محكم ومنضبط خاصة بعد تبيّن صعوبة العيش في ظل نظام البداوة والفوضى في مختلف مناحي الحياة.

وقد يقول قائل إنّ هذه المظاهر –أي مظاهر البداوة– زالت بالكليّة ولم يعد لها وجودا مطلقا في هذا الزّمان التي تنتشر فيه وسائل الاتصال والتّكنولوجية الحديثة، بل

((37)) **النّزق:** هو الخفة والطيش في كل أمر.

نقول هي موجودة في كثير من القبائل والعشائر والقرى الإفريقية والآسيوية وحتّى الأمريكية وكل الأماكن البعيدة عن المدن الآهلة بالسّكان والعامرة بالعلم والصّناعات والمهن، حيث تتركّز تلك الجماعات في التّضاريس الصّعبة والتي تتخذ من أنماط العيش القديمة كالصّيد والرّعي أسلوب حياتها الوحيد، ولا أحسب أنّ هؤلاء يفرّطون بسهولة في طريقة عيشهم وأسلوب حياتهم من أجل مظاهر التّحضّر الحديثة التي تكتنفها كثير من الرّهانات والتّحديات والصّعاب رغم ما تقدّمه من خدمات نوعية وسريعة ومريحة في آن واحد.

المرحلة الثانية: مرحلة التّحضر (التّمدن)

وحسب ابن خلدون ففي ظل هذه المرحلة تؤسّس الدول ويتحقّق الملك وينتقل المجتمع من مرحلة الحياة البدائية وطور البداوة الخشنة أو العمران البدوي إلى مرحلة وطور الحياة المتمدّنة المترفة أو العمران الحضري، ويتم ذلك عن طريق تغلّب القبيلة بالعصبية الناشئة على دول مجاورة فيصير الملك والحكم لها، وفي هذه المرحلة بالذّات يؤكّد العلاّمة بان خلدون على دور الدّين في التّحضر والحفاظ على مختلف مكتسبات الحضارة والدولة بصفة عامة حيث يقول في هذا الصّدد: "إنّ للدين أهمية كبيرة في تعضيد (تقوية) مكانة وقوّة الدولة على قوّق عصبيتها، فالصّبغة الدّينية حسبه تذهب بالتنافس والتّحاسد الذي هو أحد صفات أهل العصبية"، ويضرب لذلك مثلا للعرب في صدر الإسلام عند الفتوحات، إذ كانت جيوش العرب قليلة العدد والعدّة إذا قيست بجيوش دولة الفرس وامبراطورية الروم [38].

((38)) محمد نصارى فهمي، "**نظرية التّعاقب الدور للحضارات لابن خلدون** " منشورات جامعة المنيا، قسم التاريخ الإسلامي بدون ذكر سنة النشر.

وهكذا يؤكّد ابن خلدون على دور الدين وأهميته في تماسك الأمم والحضارات وحماية مكتسباتها، فعزّة واستقرار المجتمعات والحضارات تكون بالدّين وبه تحافظ الأمم على وحدتها وتماسكها وحمايتها من مختلف أسباب التفكّك والتّشردم، وإلى جانب الدّين يرى ابن خلدون أنّ مرحلة التّحضر تستلزم قوّة اقتصادية كذلك، فالجانب الاقتصادي للأمّة أو الحضارة له دور كبير في تكوين الدول وإنفاذ مختلف سياساتها العامة، وحسب ابن خلدون دائما فإنّ تقدّم الحضارة أو بلوغ الدولة مرحلة التّحضر يقتضي منها تحقيق ثلاث ركائز مهمّة وهي: "**الحكومة المستقرة**"، و"**استثمار الأرض كأحد مصادر الانتاج المهمّة**"، و"**الأيدي العاملة المنتجة التي تدفع بها الدولة عجلة الانتاج والتّنمية**"[39].

وفي سياق حديثه عن التّحضر ومراتبه يضيف ابن خلدون قائلا: إذا اتّسعت أحوال هؤلاء المنتحلين للمعاش وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرّفاه دعاهم ذلك إلى السّكون والدّعة، وتعاونوا في الزّائد على الضروري واستكثروا من الأقوات والملابس والتّأنق فيها وتوسعة البيوت واختطاط المدن والأمصار للتّحضّر، ثمّ تزيد أحوال الرفاه والدّعة فتجيد عوائد التّرف البالغة مبالغها في التّأنق في علاج القوت واستجادة المطابخ وانتقاء الملابس الفاخرة في أنواعها من الحرير والديباج وغير ذلك ومعالاة البيوت والصروح.....ويتّخذون القصور والمنازل ويجرون فيها المياه ويعالون في صرحها ويبالغون في تنجيدها، ويختلفون في استجادة ما يتّخذونه لمعاشهم من ملبوس

((39)) نفس المرجع.

أو فرش أو آنية أو ماعون وهؤلاء هم الحضر ومعناه الحاضرون أهل الأمصار والبلدان" [40]انتهى قوله رحمه الله.

ويبدوا ممّا سبق أنّ معنى التّحضرأو مرحلة التّحضر والتّمدن عند ابن خلدون تعني كل مظاهر حياة التّرف والبذخ حيث يصل فيها الناس إلى أعلى مراحل الرّفاه، والتّحضر بالنسبة إليه نهاية العمران وغايته القصوى حيث يصل فيها المجتمع إلى قمة التّطور الثقافي والاقتصادي والشّخصي، وكأنّ العلامة ابن خلدون يريد أن يؤكّد أنّ مرحلة التّحضّر هي المرحلة الأكثر عطاءً ونتاجا في حياة البشرية، وهي بداية لمرحلة التّدهور التي ستعقب هذه المرحلة، فما دام المجتمع وصل إلى الكمال في حياته الدنيا فقد يكون هذا سببا في تراخيه وميله إلى حياة الدّعة والراحة والسكون، وهذه أحد أسباب تدهور الحضارات على مر التاريخ، فكل سكون يعقبه خفقان وهذه سنن الله في خلقه، فدوام الحال من المحال كما قيل.

وعلى العموم فإنّ مرحلة التّحضرهي مرحلة عابرة وغيرمستقرة مهما طال الزّمن، إلاّ أنّ الأمم تتفاوت من حيث درجة الحذر والاستفادة، فهناك من الأمم من تبالغ في الحفاظ على مكتسبات هذه المرحلة ولا تدّخر وسعها في تعزيز أركان الحضارة المدنية، ومن الأمم من لا تبالي ولا تهتم بالمكاسب التي تحظى بها حضارتهم ولا يفكرّون إلاّ في السّاعة التي يعيشونها، أمّا الغد فلا قيمة له عندهم، وكما يقول القائل اليوم خمرٌ وغدا أمرٌ، فهذا الّذي يجني عليهم الويلات والخراب ويجعلهم آخر الأمم في كل شيء، كما يجعل مرحلة التّحضر أو التفوق الحضاري قصيرة ومعدودة الأيام.

((40)) حسن رمضان الكايخ، "**التحضّر عند العلاّمة ابن خلدون**"، أطروحة مقدّمة لنيل شهادة الدكتوراه في علم الاجتماع الحضري، جامعة الفاتح (ليبيا)، شعبة علم الاجتماع، 2009/2008، ص ص 114-115.

ويمكن أن نصف هذه المرحلة بصفة عامة بأنّها مرحلة القوّة والازدهار والرّقي أو مرحلة الشّباب والفتوة؛ إذ فيها من المزايا والفضائل مالا في غيرها من المراحل خاصة فيما تعلّق بالجانب المدني أو الخدمات النوعية والتقنية المتوفرة في هذه المرحلة، وهي في الغالب تدعو (تكون سببا) هذه المرحلة إلى التّرف والغرور والاعجاب المفرط، وأحيانا تدعو إلى الغرور والاستهزاء بالغير أي الاستهزاء بالحضارات التي هي أقل تمدّن منها، ولذلك فإنّ هذه المرحلة تتميّز عموما بضعف الجانب القيمي والأخلاقي والميل الشّديد إلى إشباع مختلف الشّهوات والملّذات المادية والمعنوية، وهو ما يفقد هذه المرحلة قيمتها الحقيقية في شقّها الرّوحي.

المرحلة الثالثة: مرحلة التّدهور والانهيار

تعد مرحلة التّدهور آخر مراحل وأطوار الدّولة أو الحضارة [41]حسب ابن خلدون، وفي هذه المرحلة تبدأ الحضارة في الأفول والزّوال شيئا فشيئا، وسبب هذا الانهيار حسب ابن خلدون هو العصبية والتّرف، ويؤكّد ابن خلدون أنّ بداية سقوط الدّولة أو الحضارة يكون بدخولها في الحكم والاستقرار في أجواء التّرف والثروة ممّا يصعب معه إصلاح الوضع والدّعوة إلى خشونة الطور الأول أي طور البداوة، وهكذا فإنّ الانهيار والتّدهور سببه الترف، وهذا يفسد الحكم ويُضعف الدولة اقتصاديا، والضعف إذا حلّ بدولة كما يقول ابن خلدون فإنّه لا يُرفع، فالمرء يولد ثمّ يكتمل نموّه وهي المراهقة وبعهدها يهرم ويشيخ حتّى يفنى ويموت، وعلى هذا الأساس تفنى الحضارة كما يفنى الانسان، ويستشهد على ما قرّره من فناء الحضارة والدولة بقول الله تعالى: **"وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ"**[42]، كما أنّ تحديد عمر الدولة أو الحضارة حسب ابن خلدون لم يكن تحديدا مطلقا بل كان تحديدا نسبيا قياسا على ثلاثة أجيال من الأشخاص[43].

وتعليقا على ما قاله ابن خلدون بخصوص أطوار الحضارة فإنّ الحضارة بالفعل تمر بأطوار عدّة وإن كانت غير محصورة فيما ذكره ابن خلدون رحمه الله، والدّليل على ذلك وجود اختلاف واضح وجلّي بين العديد من علماء الاجتماع حول أهم وأبرز أطوار

((41)) إنّ مفهوم الحضارة عند ابن خلدون رحمه الله هو نفسه مفهوم،ولذلك فلا غرابة إذا عُبّر عن مفهوم الحضارة بمفهوم الدولة من قبل ابن خلدون، لأنّ الحضارة في الأصل هي منجزات الدولة المادية والقيمية أي أنّ الحضارة هي نتاج الدولة في الأصل.

((42)) سورة الأعراف، الآية 34.

((43)) أحمد سعودي، "**فكرة الدولة ونشأتها عند عبد الرحمان بن خلدون** "، مجلة العلوم الانسانية والحضارة، المجلد 03، العدد02، 2021، ص19.

الحضارة، لكن ما ينبغي قوله إنّ ابن خلدون كان الأولى به أن يتحاشى تحديد عمر كل مرحلة لأنّ ذلك من علم الغيب الذي لا يطلّع عليه ملك مقرّب ولا نبيٌّ مرسل، وفي رأيي أنّ أطوار الحضارة وإن تعدّدت فإنّها بالفعل إلى زوال والدّليل على ذلك أنّ كثيرا من الحضارات الإنسانية القديمة قد فنيت وزالت بالكليّة، ولم يعد لها وجود إلاّ في الكتب والمراجع العلمية، وإلاّ فإنّها أصبحت في خبر كان، ولذلك فمهما بلغت الدول أوج قوتها وإن طال بها الزّمن فهي سائرة نحو الضّعف والانحطاط والأفول، ولا بقاء إلاّ لله وحده سبحانه وتعالى، وهذه سنة الله في خلقه لا مفر منها ولا محيد عنها.

كما يُستفاد من ذكر هذه المراحل أنّ الحضارات الانسانية تتعاقب فيما بينها من حيث القوّة والضّعف، ولا يمكن لحضارة إنسانية بعينها أن تبقى قويّة للأبد حتّى ولو جمعت جميع أسباب القوّة والهيمنة، لأنّه سيأتي ذلك اليوم الذي تظهر فيه بعض ملامح الضّعف والنقص والفتور على بعض مفاصل الحضارة، ثمّ تنتقل تدريجيا إلى باقي مفاصل الحضارة إلى أن تنهار تماما وبشكل كلّي، بمعنى أنّ أفول الحضارة وزوالها لا يحدث فجأة بل يكون ذلك تدريجيا، وهذا ربّما الّذي يجعلم يغفلون عن تدارك هذا الضّعف ومن ثمّ يصعب عليهم فيما بعض تدارك الأمر بسبب انتشار المرض في جسد الحضارة بشكل كبير جدا لدرجة أن المعافاة من ذلك المرض يصبح أشبه بالمستحيل.

المبحث الرابع: أسباب انحطاط الحضارات وتدهورها

يمكن تقسيم أسباب تدهور الحضارات وانحطاطها إلى ما يلي:

أوّلا: الأسباب السياسية

تعد الأسباب السياسية من الأسباب الشّائعة في انحطاط الحضارات على مر تاريخ البشرية، إذ كلّما دبّت الخلافات السياسية بين أبناء الأمّة الواحدة أو الدّين الواحد إلاّ وشاعت بينهم الفوضى وضعفت شوكتهم وتفرّقت بهم الأهواء والمذاهب السياسية بما لا يحمد عقباه، والصّراع على السّلطة والحكم هو الّذي يعجّل بسقوط الدّولة وذهاب هيبتها بين أعداء تلك الدولة، وما رأينا على مر التاريخ أمّة تنازع أبنائها على السّلطة واستطاعت أن تصمد طويلا أمام تلك الأطماع، بل سرعان ما يصيب تلك الأمة الضّعف والهوان وتصبح آيلة للسّقوط والزّوال، مهما حاولت الصّمود والتّحمل، فالصّراع على السُّلطة كثيرا ما ينتهي بسفك الدماء وتجييش الدّهماء وإثارة القلاقل والفوضى الخلاّقة التي لا تبقي ولا تذر.

ولذلك لم تسلم الشّعوب في مختلف الحضارات السابقة من تبعات التّشردم السياسي والتنازع على السّلطة؛ ففي أوروبا مثلا الّتي تزعم أنّها أكثر الأمم تحضرّا وتمدّنا ظلّت لقرون من الزّمن ترزح تحت وطأة الحروب الطائفية والعرقية بسبب الخلافات السياسية التي سادت الأنظمة السياسة آنذاك، إذ انعدمت الثقة بين القادة السياسيين والشّعوب التي تخضع لسلطانهم لفترة طويلة ولم تنته إلاّ بعد صراعات دامية راحت ضحيتها خلق كثير، ففي الحرب الأهلية الإسبانية التي امتدت من سنة 1936إلى غاية 1939 قتل أكثر من مليون ونصف (وهذا رقم كبير جدا بالنّظر إلى حجم تلك الدولة) بين قتيل ومشرّد وسجين وجريح، وقد دارت هذه الحرب الطاحنة بين

الجمهوريين المدافعين الجمهورية تحت راية حزب الجبهة الشّعبية برئاسة مانويل أزانا وبين ما يدعمون عودة النّظام الملكي وكان يمثل هذا التيار الكنيسة الكاثوليكية بقيادة الجنرال فرانسيسكو فرانكو الذي انقلب على الحكومة عام 1936[44]، وقد تركت هذه الحرب عدّة تداعيات أمنية واقتصادية واجتماعية على الشّعب الاسباني والّذي ضاق لوحده ويلات هذه الحرب وشررها لعدّة سنوات بعد انتهاء تلك الحرب.

وفي إيطاليا دامت الحروب الأهلية الطائفية بسبب الصّراع على السّلطة سنوات عديدة ولم تتوقف آلة الحرب إلاّ بعد التوقيع على اتفاقية 02ماي 1559، وتعرف الحروب الطّائفية الكبرى في إيطاليا بحروب هايسبورغ فالوا[45]، وقد شملت تلك الحرب الأهلية معظم المدن الإيطالية والولايات البابوية وامتدت إلى معظم الدول الرّئيسية في أوروبا الغربية كفرنسا واسبانيا وانجلترا واسكتلندا وسبب تلك الحرب نزاع حول خلافة دوقيا ميلانو ومملكة نابولي، وقد اتّسمت هذه الحرب بدرجة متزايدة من التّحالفات والتّحالفات المضادة والخيانات، ونفس الشّيء بالنسبة إلى بقية دول أوروبا الغربية؛ ففي فرنسا وحدها خلّفت الحروب الطائفية على السّلطة الملايين من القتلى والتي انتهت بإضعاف سلطة النظام الملكي في فرنسا وهي المعروفة بالحروب الدّينية الفرنسية بين

((44)) لمزيد من المعلومات انظر إلى المقال الموسوم ب "**الحرب الأهلية الإسبانية.. يوم واجه الجمهوريون الجنرال فرانكو بالسلاح**" على الموقع الالكتروني الآتي: **https: //www.aljazeera.net/encyclopedia**

((45)) **الحرب الإيطالية 1551-1559** المعروفة أحيانًا باسم **حروب هابسبورغ فالوا** أو **الحرب الإيطالية الأخيرة**، بدأت عندما أعلن هنري الثاني ملك فرنسا، الذي خلف فرانسوا الأول في العرش، الحرب ضد الإمبراطور الروماني المقدس كارلوس الخامس بنية استعادة إيطاليا وضمان سيطرة فرنسا على الشؤون الأوروبية بدلًا من آل هابسبورغ. منقول عن الموسوعة الحرّة ويكيبيديا.

الكاثوليك والبروتستانت (المعروفين باسم الهوغونوت)[46]، حيث لم تتعافى دول غرب أوربا من تلك الحروب إلاّ بعد عودة الهدوء السياسي في تلك الدول، وهذا يدل على خطورة الصّراع السياسي على الدولة والشعوب معا.

ونفس الشيء بالنسبة للإمبراطورية الرومانية فقد أوعز أستاذ العلوم السياسية الكلاسيكية بجامعة سوانزي –التابعة لمقاطعة ويلز بالمملكة المتّحدة – أسباب ضعفها إلى التنافس بين حكام الرومان، وهو ما أدّى إلى انقسام الإمبراطورية إلى قسمين إمبراطورية غربية وإمبراطورية شرقية، وقد ساءت العلاقة بينهما لفترة طويلة من الزمن وهو ما أدّى إلى نشوء حالات من التوتر بينهما وقد استمر التوتر بينهما إلى غاية انهيار الإمبراطورية الغربية تماما [47]، وهكذا فقدت الإمبراطورية قوّتها وهيبتها ولم يعد لها تلك المكانة التي كانت عليها قبل حالة التّفكّك.

والحاصل أنّ الصرّاع على السّلطة هو المعول الذي تُهدم به الحضارات وتزول به قوّة الدول وهيبتها، فهو يفضي إلى الانقسامات الخطيرة وإلى سفك الدّماء وتحريك الدهماء وفقد الأمن وإحلال الفوضى مكان الأمن والسكينة، ولذلك لا يمكن لأيّ دولة من دول العالم مهما كانت قوّتها العسكرية والاقتصادية أن تحافظ على استقرارها ووحدتها المتماسكة في ظل التّشردم السياسي بين مختلف الطوائف والجماعات السياسية في تلك الدولة، أو في ظل الصّراع الدائم على السّلطة التي تغذيّه أطماع شخصية محضة وهو البقاء على عرش الحكم والملك لأطول فترة ممكنة.

((46)) محمد عبد الرحمان، "**الحروب الإيطالية الكبرى.. حرب أوروبا الطاحنة من أجل السلطة والأرض**"، صحيفة اليوم السابع، مصر، 03أفريل 2022.

((47)) جو فيلان، "**الإمبراطورية الرومانية: سيرة التفكك والانقسام**"، ترجمة حيان الغربي، مجلة القدس العربي، 09أكتوبر 2022.

ثانيا: الأسباب السلوكية والأخلاقية

لا شكّ أنّ تدّني الأخلاق لدى المجتمعات والأمم كانتشار الظلم والجور والمجون واللّهو والكذب فضلا عن أخذ حقوق الغير بغير وجه والانصراف إلى ملذّات الدنيا وشهواتها وعدم التفكّر في عواقب تلك السلوكيات والأخلاق من شأنه أن يصيّر تلك المجتمعات والأمم من حالة القوّة والعزّة إلى حالة الضّعف والهوان. والمتأمّل في سبب اندثار الحضارات الانسانية البائدة يجد أنّ السّبب الرئيس في اندثارها وزوالها هو انحطاط أخلاقها ومعاملاتها سواء بين أفراد الأمة الواحدة أو مع بقيّة الأمم الأخرى المجاورة لها،فانظر مثلا إلى الحضارات البائدة كالحضارة الفرعونية مثلا كيف كان غرور الفراعنة بقوّتهم وسلطانهم سببا في زوال ملكهم إلى الأبد، فقد عاث الفراعنة في أرض مصر فسادا، وساد الخوف بين الناس في تلك الأيام، وانعدم الأمن وانتشر القتل بكثرة، وظنّ الفراعنة أنّ ذلك يحفظ لهم سلطانهم وملكهم في مصر ويحصّنهم من العصيان المدني كما يقال، وكانت الأرواح في عهدهم تساق إلى الموت كما تساق الأنعام بلا شفقة ولا رحمة، وظلّوا على ذلك على الحال لأعوام عديدة، حتىّ أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر وأزال ملكهم بالكليّة، وجعلهم عبرة لمن يعتبر.

وقد يقول قائل إنّ لهذه القاعدة استثناء والاستثناء هي الولايات المتّحدة الأمريكية فقد عاثت هذه الدولة المارقة الآسنة في الأرض فسادا وظلما، وألحقت الخراب والدّمار بكثير من الأمم والشعوب والدول ولم يصبها بعد ما أصاب الفراعنة من ذل وهوان، فنقول إنّ تأخير العقاب ليس دليلا أبدا على دوام الحال أو الأمن من العقاب، قال تعالى: " أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ"[48] فسيأتي بلا شكّ العقاب والجزاء من الله طال الزمن أم قصر، وهذا مصداقا لقوله تعالى: "وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ

((48)) سورة الأعراف، الآية 99.

ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ"[49]، فلا تغتروا بقوّة الولايات المتّحدة الأمريكية العسكرية والنووية والاقتصادية فهي لا تساوي شيئا أمام قوّة الله وسيجعلهم الله عبرة لمن يعتبر، وستزول بإذن الله هيمنتهم على العالم اليوم أو غدا، والله قادرٌ على أن يزيل ملكهم في لمح البصر، ولم يكتب الله لأحد دوام الحال من القوة والعافية والهيمنة مهما كان الحال فأين الملوك الذين حكموا الدنيا وزعموا الألوهية والرّبوبية؟ أين هم؟ إنّهم فنوا ولم يعد لهم أثر، وهكذا هو حال الولايات المتحدة الأمريكية التي بلغت أوج الظلم والفساد، فصحيح أنّها تحتل الصّدارة العالمية في القوّة العسكرية والاقتصادية وفي مختلف العلوم والمجالات لكنّ ذلك لا يشفع لها أن تبقى على هذا الحال إلى الأبد.

فالحاصل أنّ تدهور أخلاق الأمم هو السبيل إلى ضعفها واندحارها وتضعضعها، وأغلى ما في الحضارة هي الأخلاق والدّين والقيم الانسانية وهي ركنها الركين وحصنها الحصين، وكما قال أحمد شوقي رحمه الله:

وإذا أصـــيب القـــوم في أخلاقهـــم فـــأقم لهـــم مأتمـــا وعـــويلا

أي أنّ ذلك أمارة على فنائهم وزوالهم، وهذا صحيح، فانظر في حال الحجاج بن يوسف الثقفي الذي أذاق المسلمين والعلماء الأمرّين في عصره، لم يشفع له جبروته وظلمه على دوام ملكه وسلطانه بل كان ظلمه سبب زوال ملكه، فقد دعا عليه العالم والحبر سعيد بن جبير رحمه الله بعد أن سفك دمّه ظلما وجورا فقد دعا عليه هذا الإمام الحبر بألاّ يسلّطه الله على أحد بعده فما هي إلاّ أيام قليلة ومات الحجّاج بن يوسف الثقفي حتّى فرح المسلمون بموته وسجد العلماء فرحا بخبر موته، وقد رُوي عنه

((49)) سورة الشعراء، الآية 227.

أنّه لما مات رآه بعض الناس في النوم فقيل له ما فعل الله بك **قال: قتلني الله بكل امرئ قتلة واحدة، وقتلني بسعيد بن جبير سبعين قتلة. وهذه هي عاقبة كل ظالم سواء كان فردا أو دولة أو مجتمعا بما في ذلك الحضارات الانسانية**، ولا محيد عن سنة الله في خلقه.

ثالثا: الأسباب الاقتصادية

من الأسباب كذلك التي تعجلّ بسقوط الدول وأفول الحضارات هي ضعف الاقتصاد وانقباضه، فإذا قلّت فرص العمل وتضاءلت مؤشّرات الاستثمار وزادت نسبة البطالة والتّضخم فمن الصعب جدا عند ذلك أنّ تستمر الدولة في تلبية مختلف الحاجات الأساسية للمجتمع ، وقد تضطر الدّولة إلى الاستدانة من الخارج لمواجهة العجز الذي قد تواجهه الدّولة بسبب ضعف اقتصادها وقلّة صادراتها وانتاجها، مع العلم أنّ الاستدانة من الخارج بقدر ما هي حل مؤقّت وغير مضمون فإنّها تضع الدولة في الغالب أمام خيارات صعبة تكون فيها الدولة المستدينة الخاسر الأكبر أمام تلك الخيارات (السياسية والاقتصادية)، وقد تكون لتلك الخيارات المفروضة على الدولة من قبل الجهات الدّائنة تداعيات خطيرة جدّا على سيادة الدّولة وشؤونها الدّاخلية، كما قد يعرّضها للضّعف والتّبعية للدول الأخرى أو الدول الدّائنة.

وإذا كان الاقتصاد القوي هو أحد أسباب الاستقطاب المجتمعي ورؤوس الأموال فإنّ تهاوي الاقتصاد واضمحلاله هو أحد أسباب أفول الحضارات واندثارها من جانب آخر، وكما لا يخفى فإنّ الاقتصاد هو الشّريان الرئيس لتطوّر الأمم والمجتمعات، وهو الذي يدفع نحو تطور جميع القطاعات المهمة داخل الدولة، ولذلك فإنّ التّفريط فيه أو عدم الاهتمام به من شأنه أن يسهم في هدم فرص التّنمية والازدهار المستدام، لذا فقد أصبح التّنافس بين الدول المتقدّمة على تطوير اقتصاداتها على أشدّه لأنّهم يعلمون أنّه من يمتلك اقتصاد قوي يستطيع أن يسيطر على العالم وأن يبسط هيمنته عليه، والمؤشّرات الاقتصادية أصبحت حديث السّاعة، ومن هنا تظهر أهمية العامل الاقتصادي في تطوير البني التحتية للدول وتحقيق الاكتفاء الذاتي للدولة والذي يعد أحد أبرز أسباب استقرار الدولة واستتباب أمنها.

كما أنّ تضييق سبل النشاط التجاري داخل الدولة ومختلف المعاملات الاقتصادية قد يفضي إلى نتائج سلبية على الدولة والمجتمع معا، إذ لا يتصور أن تزدهر حضارة أمّة من الأمم في ظل تضييق سبل التجارة والفلاحة، أو في ظل فشل السياسات المالية التي تنتجها الدولة، فالاقتصاد بمختلف فروعه هو الركن الأساسي الذي تنهض عليه أرزاق الناس ومعاشاتهم، ومن ثمّ فإنّ أيّ خلل يظهر في تركيبة الاقتصاد كالتّضخم وتدني القدرة الشرائية وتدهور قيمة العملة الوطنية قد يكون دافع قويّ نحو الهجرة إلى الخارج، وهذا في حد ذاته له عدة انعكاسات سلبية على الاقتصاد الوطني للدولة.

ولا يخفى أنّ الأزمات الاقتصادية الحادّة كالمجاعات وسوء التّغذية لها دور كبير في سقوط الحضارات وانحطاط الدول وموت كثير من الخلائق، إذ لا يمكن تصّور العيش في أمن واستقرار في ظل انعدام سبل العيش السليم كتوفير الغذاء والصّحة والأمن الغذائي والانساني بصفة عامة، وإذا حلّت المجاعة بأمة فإما أن تواجه حتمية الموت وإما أن تهاجر نحو المناطق التي توفر لها العيش الكريم، ولذلك قد رأينا كثير من الشّعوب-لاسيّما الشعوب الإفريقية- التي تعاني من أزمات الفقر والمجاعة وسوء التّغذية تركت بلدانها وتوجّهت نحو الدول الأكثر غنى والتي تقدّم خدمات إنسانية محترمة بحثا عن حياة آمنة ومستقرة، ولذلك فإنّ المجاعات كانت سبب في فناء أمم بأكملها.

وفي هذا الصّدد أخبر المؤرّخ الشهير أبو العبّاس تقي الدين المقريزي أنّ مصر وحدها شهدت ثمانية عشر مجاعة حيث أرجع سبب ذلك في كتابه "**إغاثة الأمة بكشف الغمّة** " بنقص المياه وتراجع الزّراعة وقلّة المحاصيل وفناء الثورة الحيوانية وظهور الغلاء الفاحش، وكانت أخطر تلك المجاعات ما عرف بالشدّة المستنصرية التي وقعت في زمن الخليفة الفاطمي المستنصر، حيث فقدت فيها مصر ثلثي سكّانها وعمّ الخراب

كل أنحاء البلد، وذلك لمدّة سبع سنين، حيث أكُلت الكلاب والقطط من شدّة الجوع، وازداد الحال حتّى أكل الناس بعضهم بعضا [50]من هول ما وقع بهم من مجاعة وفقر.

رابعا: الأسباب الأمنية

تأتي الأسباب الأمنية من حيث الأهمية في سقوط الحضارات وزوالها في المراتب الأولى، ذلك أنّ انعدام الأمن وانتشار الحروب والنّزاعات المسلّحة هي من الأسباب الرّئيسة في انحطاط الحضارات وزوالها بالكليّة، فانظر مثلا ما خلّفته الحروب الصّليبية في الأندلس فقد زالت بسببها أشرف وخير حضارة إنسانية على مر التاريخ، وهي الحضارة الإسلامية في بلاد الأندلس، فبعدما كانت أوروبا تستضيء بأنوار وأضواء الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس لقرون من الزّمن لاسيّما في العصور المظلمة التي كانت تعيشها أوروبا أصبحت تلك المنطقة أشد ظلاما وغربة رغم تقدّم العلوم المادية بها، ولذلك فقد تحسّر كثير من الإسبان على زوال الحضارة الإسلامية في بلادهم والتي كان ينعمون في ظلالها الوارفة وحلقات العلم بنعم لا نظير لها.

والمتّمعن في سبب سقوط أغلب الحضارات الإنسانية يجد أنّ الحروب والنزاعات كانت السبب الأكبر في زوالها وأفولها، فالحروب خاصة الحروب التي أشعلها اليهود والنصارى لا ترحم الكبير ولا الصّغير، ولا الأخضر ولا اليابس، فهي تبيد الأمم وتزيل النّعم وتجعل الولدان شيبا، إذ لا تنعم الأمم في ظل الحروب بالأمن ولا السّكينة، وهو ما يجعل العيش في الأماكن التي تشهد حروبا دائمة صعبة جدا إن لم نقل مستحيلا، والأدلّة على سقوط كثير من الحضارات بسبب الحروب أكثر من تحصى وأشهر من أن

((50)) عامر عبد المنعم، "**قبل أن تدهسنا المجاعة** "، انظر إلى الموقع الإلكتروني الآتي: https: //ar.islamway.net(تاريخ زيادة الموقع 2024/10/08)

تذكر، فانظر مثلا كيف أبادت الولايات المتحدّة الأمريكية الهنود الحمر من عقر دارها من خلال حروبا قاتلة شنتّها على أصحاب الأرض، حيث تذكر المصادر التاريخية أنّ الولايات المتّحدة الأمريكية أزهقت أرواح أكثر من عشرين مليون من الهنود الحمر لتقيم دولتها على أنقاضهم، وهي ما تسمّى بحروب الإبادة الجماعية التي اقترفتها الولايات المتّحدة الأمريكية ضد شعب أعزل وصاحب الأرض، حيث بلغت تلك الإبادة الجماعية ذروتها في عهد الرئيس الأمريكي أندرو جاكسون[51]، ومن أشهر المجازر الأمريكية التي ارتكبتها في حق السّكان الأصليين الهنود الحمر هي مذبحة الركبة الجريحة[52] في منطقة ساوت داكوتا والتي سقط بها العديد من القتلى في صفوف الهنود الحمر.

وهكذا أباد المغول المسلمين في أرض العراق حيث أبادوا وقتلوا -بقيادة هولاكو أهلكه الله وأخزاه -أكثرمن مليونين مسلم في مدّة قصيرة جدا، وأعملوا الذّبح فيهم لأيام متتالية، وأتلفوا الكتب والمخطوطات العلمية التي هي أنفس من الذهب والماس ورموها حقدا في نهر دجلة حتى لا ينتفع بها المسلمين، وكان ذلك سببا في توقّف حلقات العلم في بغداد، ومن ثمّ فقد تضرّرت الحضارة الإسلامية بأرض العراق تضرّرا كبيرا حتّى تعطّلت الأسواق والمساجد ودور العلم ومجامع الناس، إلى أن قيّض الله من

((51)) **أندرو جاكسون** هو الرئيس السابع للولايات المتحدة الأمريكية في الفترة الممتدة 1829-1837، عرف بالصرامة، وهو الذي كان سببا في إلحاق الهزيمة بالقوّات البريطانية، وشارك في عدّة حملات عسكرية ضد الهنود الحمر، وهو مؤسّس الحزب العتيد في الولايات المتحدة الأمريكية وهو الحزب الديمقراطي.

((52)) **مجزرة الركبة الجريحة** أو مذبحة ووندد ني، وهى مجزرة جرت أحداثها فى 29 ديسمبر 1890 قرب غدير الركبة الجريحة، في داكوتا الجنوبية بالولايات المتحدة، بالقرب من نهير الركبة الجريحة وذهب ضحيتها شعب لاكوتا الذى كان يعيش في محمية باين ريدج الهندية في ولاية داكوتا الجنوبية، بالولايات المتحدة.

أوقف هذا الجيش الجرّار على يد سيف الدين قطز في معركة عين جالوت[53] الشّهيرة بفلسطين سنة 658 هجري الموافق ل 1260 ميلادي.

والحقيقة أنّ الأمة الإسلامية أو الحضارة الإسلامية بصفة خاصة والعالم أجمع خسر الكثير من التراث العلمي النّفيس في مختلف العلوم والتّخصّصات العلمية بسبب الحرب الضروس التي شنّها التتار على المسلمين بأرض العراق، وماذا استفاد العالم والتتار بتلك الحرب التي تسبّبت في فوات الكثير من الفوائد على البشرية قاطبة؟، وبهذا يتّضح أنّ عجلة الحضارة والتّحضّر قد تتوقّف نهائيا وإلى الأبد بسبب الحروب الطّاحنة، لأنّ الحروب بقدر ما يجني منها بعض القادة فوائد فإنّه في المقابل سيخسر لا محالة أكثر ممّا يجني، حتّى ولو قدّر له النّصر أحيانا، لأنّه سيأتي ذلك اليوم وتدور عليه الدّائرة ويذوق مرارة الهزيمة ولو طال به الزّمن، وقد حصل ذلك مع أدولف هتلر، ونابليون بونابرت، وهولاكو وغيرهم كثير.

((53)) **معركة عين جالوت:** هي واحدة من أهم المعارك التي شكّلت منعطفا حاسما في التّاريخ الإسلامي، جرت أحداثها في 25 رمضان عام 658 هـ، الموافق للثالث من سبتمبر/أيلول 1260 ميلادي، وفيها انتصر المسلمون بقيادة السلطان المملوكي سيف الدين قطز على جيش التّتار المغولي بزعامة هولاكو في منطقة عين جالوت بفلسطين.وكانت هذه المعركة هي الأولى التي يُهزم فيها المغول منذ عهد جنكيز خان، وكان من نتائجها انحسار المد المغولي الذي أسقط الخلافة العباسية قبل ذلك في العراق، وهذه سنة الله في خلقه فإنّ الله لا يمكّن لأهل الباطل على أهل الحق وإن طال الزمن، فالنصر سيكون حليف لأهل الحق على أهل الباطل، وفي هذا درس لمن يريد أن يستعلي على الآخرين مغترا بقوّته وسلطانه.

خامسا: الأسباب الاجتماعية:

إنّ انتشار الفقر والجهل والأمية في المجتمع من شأنه أن يفشل مخطّطات بناء الحضارات في مهدها، أو هدمها بعد بناء صرحها، وكما سبق معنا قول الشّاعر أحمد شوقي:

العلم يبني بيوت لا عماد لها والجهل يهدم بيوت العزّ والشرف

وهكذا نقول نحن أنّ الجهل يهدم صرح الحضارة ويقطع الطريق أمام المصلحون لإصلاح العطب والخلل الذي قد يطرأ على أحد أركان الحضارة، وإذا كان أهل العلم هم من يخطّطون لإقامة الحواضر العلمية بين الحين والآخر فإنّ أهل الجهل في المقابل يخطّطون غالبا لإفشال تلك المخططات، لأنّهم يعلمون أنّ لا مكان لهم في تلك الأماكن، ومن جهل شيء عاداه، فهم يعادون أهل العلم والفضل لمزيد فضلهم عليهم، وكما قيل:

حسدوا الفتى إذ لم ينالو سعيه فالقوم أعداء له وخصوم
كضرائر الحسناء قلن لوجهها حسدا وبغيا إنّه لذميم
والوجه يشرق في الظلام بدر منير والنساء نجوم

وأهل الجهل تاريخهم يشهد عليهم أنّهم كانوا سبب في وأد حضارتهم وفنائها، وهذا الّذي أراده أبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر المخزومي القرشي، حيث أراد أن يئد الدعوة الإسلامية في مهدها ووقف أمام الرسول يصدّه عن دعوته ومن شدّة أذاه لرسول الله دعا عليه رسول الله، فخصّه صلّى الله عليه وسلّم بدعائه

الشّهير عليه اللّهم عليك بأبي جهل حتّى أهلكه الله في موقعة بدر، وقد واجه المسلمون على مر التاريخ أعداء وجهّال كثر أرادوا أن يطفؤوا نور الإسلام في قلوب المسلمين الطاهرين، لكن لم يفلحوا وخابوا وخسروا.

والمقصود أنّه إذا مُكّن لأهل الجهل من تبوأ المناصب السياسية العليا فإنّهم لا يلبثون في إلحاق الأذى والضّرر بالنّاس، فإنّ ضررهم على الأمم والمجتمعات والحضارات أخطر من السّم الزعاف، لأنّ السّم قد يهلك شخص أو شخصين او مجموعة من الناس والجهل يهلك أمما بأكملها، وهذا ليس بغريب، لأنّهم لا يدركون المصالح العليا لشعوبهم بقدر ما يميلون إلى إشباع شهواتهم وبطونهم.

ومن جانب آخر فإنّ انتشار الآفات الاجتماعية في المجتمع كالسّرقة والقتل والظلم والطبقية لابدّ أن يكون ذلك سببا في تعجيل سقوط الدول وانحطاطها وذهاب بريق الحضارات واختفائه، لذلك فإنّه إذا حلّت بالأمم هذه الآفات الخطيرة فإنّه يستحيل العيش في تلك البيئة ولو كانت كل الظروف المادية مهيّأة، لأنّ غالبية الناس تبحث عن الاستقرار في معاشها، ويأنفون من الحياة تحت وطأة الخوف والظلم والتّمييز العرقي والدّيني ولو تقاضوا أعلى المرتّبات وسكنوا في أفره العمارات والمباني، فالعبرة إذن بالأمن والاستقرار لا الماديات فقط.

ولذلك يرى العلامة عبد الرحمان بن خلدون أنّ الظلم هو أحد أسباب زوال السّلطان والملك، لأنّه عندما ينتشر الظلم تضطرب أمور الدّولة وتضيع حقوق الناس وتتغيّر موازين الحق لصالح فئام من الناس دون غيرهم، وتسند الأمانات إلى غير أهلها، ويصبح الحق باطلا والباطل حقا، وعند ذلك تبدأ الدولة بالانهيار شيئا فشيئا إلى أن تزول بالكلّية أو تتعرّض للغزو من الخارج، فقد أُثر عن الإمام ابن تيمية قوله رحمه الله:

"إنّ الله ينصر الدولة العادلة ولو كانت كافرة ولا ينصر الدّولة الظالمة ولو كانت مؤمنة"، وقد صدق رحمه الله في قوله وفي هذا ردّ على الذين يقولون كيف تقدّم الكفار على المسلمين في الحضارة المادية والمدنية لأنّهم أقاموا دولة العدل بينهم وأنزلوا الناس منازلهم ونبذوا الظلم وشمّروا على ساعد الجد والعمل، ولم يتقاعسوا في أداء المهام المسندة إليهم.

ولذلك فقد أكّد العلاّمة ابن خلدون في كتابه الشّهير المقدّمة على أنّ الظلم مؤذن –أي علامة– بخراب العمران، وقال: " **لا تحسبنّ الظُّلم إنّما هو أخذ المال أو الملك على يد مالكه من غير عوض ولا سبب كما هو المشهور، بل الظلم أعّم من ذلك، وكل من أخذ ملك أحد، أو غصبه في عمله، أو طالبه بغير حق، أو فرض عليه حقاً لم يفرضه الشّرع فقد ظلمه، فجباة الأموال بغير حقها ظَلَمَة، والمنتهبون لها ظلَمَة، والمعتدون عليه ظلَمَة، والمانعون لحقوق الناس ظلَمَة، وغصّاب الأملاك على العموم ظلَمَة، ووبال ذلك عائد على الدولة بخراب العمران**"[(54)]، ولذلك فكلّما حلّ الظلم بأمّة من الأمم إلاّ وعرّضت نفسها للخراب والضعف والهوان، ومعنى الظلم هنا واسع ولكنّه مؤدّاه أن توضع الأشياء في غير موضعها الحقيقي، ولكن في المقابل هناك نصوص كثيرة من الشّرع تؤكّد على ضرورة الصبر على الظالم حماية لجناب الإسلام والمسلمين وذرءً للمفاسد والشّرور التي تترتب عن الخروج عن الحكام والسلاطين، ولذلك فإنّ قصدنا من إيراد الظلم في هذا الباب هو الحديث عن الظلم بمفهومه العام الذي يشمل الحاكم والمحكوم.

((54)) عبد الرزاق الزهراني، "**أهلكناهم لمّا ظلموا**"، صحيفة الجزيرة، المملكة العربية السعودية، العدد12220، 14 مارس2006.

سادسا: الأسباب النفسية

إنّ شعور المجتمع بالهزيمة النفسية والتّخلف والتبعية هو كذلك أحد أسباب انحطاط الحضارات وضعفها، فمحاولة تقليد الآخرين بغير ما سبب يؤدي ذلك إلى فقدان الثّقة بالنفس، وإلى الإعجاب بما يملكه الآخر من عادات وتقاليد وسلوك، وإذا ازدرى مجتمعا ما لديه من إمكانات مادية ومعنوية ونفسية وتعلّق بما هو سائد في الجانب الآخر بدعوى التحضّر والتقدّم، فسيؤدي به ذلك إلى انسلاخه كليّا أو تدريجيا عمّا تربّى عليه أو نشأ عليه منذ طفولته من قيم أخلاقية وتربوية ودينية، وعند ذلك سيفقد هويته الحقيقية ويصبح تابع لغيره ومعجبا بذلك أيّما إعجاب، وهذه أحد الطوام التي ابتلينا بها في هذا العصر الذي ظلم فيه العبد نفسه قبل أن يظلمه غيره، واحتقر فيه ما لديه من قدرات قبل أن يحتقره غيره.

وقد شاعت مقولة لصاحبها مالك بن نبي والتي قرّرها فيها ما يسمّى **بالقابلية للاستعمار** ويقصد بها العوامل الداخلية التي أدّت إلى انحطاط الأمة الإسلامية ومكّنت العدو من غزوهم واحتلالهم، وهي أشّد خطورة من العدو في حد ذاته، فإذا لم تشعر الأمّة بقوّتها واحتقرت ما تملكه من موارد مالية وبشرية وفكرية فإنّ ذلك سينتج عنه ضعف عام في بنية الدولة والمجتمع، وهو ما قد يترك عدّة آثار سلبية على وحدة وتماسك الأمّة الواحدة.

وفي الحقيقة أنّ العامل النفسي له دور كبير في رفع معنويات الأمّة أو انحطاطها، ولذلك تلجأ الدول الغازية والمحتلة إلى تحطيم معنويات ونفسية من تريد احتلاله بالحروب النفسية تارة وبث روح الهزيمة بينهم، لأنّها تعلم علم اليقين أنّه إذا أصيبت الأمّة في عزيمتها ونفسيتها فإنّه يسهل فيما بعد تنفيذ كل المخطّطات الاستدمارية بأقل

جهد وتكلفة، وفي الحقيقة أن قوّة العزيمة هي أقوى من السّلاح والقوّة العسكرية، وهذا يذكرني بموقف للعلاّمة عبد الحميد بن باديس حينما خوّفه العدو الفرنسي بالمدفع وقوّته تحقيق النصر على العدو قال لهم عبد الحميد بن باديس وهو شامخ رأسه إننّا نملك مدفع أقوى من مدفعكم فتعجب قادة فرنسا من هذا الرّد وظنّوا أنّ الجزائر توصّلت بالفعل إلى صنع أقوى الأسلحة القتالية في ذلك الوقت وقالو له: ما هو مدفعكم، ولكن العجيب أنّ الشيخ صدمهم بجوابه إنّ نملك مدفع الله، وهو مدفع التّوكل على الله وحسن الظن به إنّها نفسية كبيرة والله، وهذه النفسية هي التي أنجبت لنا جيل الثورة الذي حرّر بنصر من الله وتوفيقه أرض الجزائر الطاهرة الزّكية التي جثم عليها العدو الفرنسي لأكثر من قرن واثنين و ثلاثين سنة.

ويفهم مما سبق أنّ أهم الأسباب التي تؤدّي إلى سقوط الحضارات وانحطاطها هي الذهنيات والعقليات السّائدة في المجتمع، فإذا كان هذا الأخير يحتقر علمائه ومقدّراته وثرواته وعاداته وتقاليده أو دينه ولغته وتاريخه فإنّه سيكون بلا شك معول هدم لبلده، ويكون بذلك فقد فتح الباب على شرور كثيرة ضد بلده يصعب فيما بعدها مواجهتها وصدّها جميعا، وعلى العكس إذا كان المجتمع يعتز بما يملك من مقدّرات وثروات وكفاءات ولغة ودين وهوية فإنّه لا أحد يستطيع أن يزعزع ثقته أو حطّ من قدره ويستطيع بذلك أن يقف أمام جميع جحافل العدو الخارجي أو الدّاخلي مهما كانت قوّته، وأن يبث الهلع والخوف في صفوف العدو الذي يريد أن يسلب منه أسباب عزّته وقوّته. ويتضّح من خلال ما مرّ معنا أنّ العامل النفسي هو سلاح ذو وجهين إمّا إن يكون له دورا كبيرا في تثبيت وتعزيز أركان الدولة أو الحضارة، وإمّا أن يكون معول هدم وسبب في تدهور منجزات الحضارة العلمية والإيمانية والمادية وافولها بشكل كلّي.

هذه باختصار هي أهم العوامل والأسباب التي تؤدّي غالبا إلى انهيار الحضارات وانحطاطها بشكل عام، مع العلم أنّ أسباب الانهيار هي في الحقيقة سلسلة متداخلة ومتشابكة لا ينفكّ بعضها عن بعض ممّا يصعب تحديد جميع تفاصيل الانهيار بشكل محدّد ودقيق، وعلى العموم فإنّنا بسطنا القول على مجمل الأسباب التي يتفق كثير من الباحثين أنّها تفضي فعلا إلى تدهور الحضارات وسقوطها، ويتضّح ممّا سبق أنّ سقوط الحضارات قد تبدأ بأحد تلك الأسباب التي ذكرناها سابقا ثمّ تعم فيما بعد جميع المجالات، وهذا يدل على أنّه هناك عدّة عوامل تتداخل فيما بينها تكون هي السّبب في بداية أفول الحضارة وانحطاطها، وهذه هي سنة الله في كونه وخلقه التي تعم جميع الأمم بدون استثناء.

الفصل الثاني:

لمحة عن الحضارة العربية الإسلامية:

المفهوم، الخصائص، الأبعاد

الفصل الثاني: لمحة عن الحضارة العربية الإسلامية: المفهوم والخصائص والأبعاد

إنّ الحديث عن الحضارة العربية الإسلامية سيجعلنا نقف أمام العديد من المحطّات المهمّة والفارقة في تاريخ البشرية، وهذا من خلال الوقوف على أهم الخصائص والسّمات التي تتميّز بها الحضارة العربية الإسلامية عن بقية الحضارات،ومن خلال كذلك الوقوف على أبرز مقاصدها وأبعادها وتجلّياتها، وفي هذا الفصل سنتعرّض كذلك إلى مفهوم الحضارة العربية الإسلامية ونشأتها محاولين بذلك التعرّف على أهم الفروقات بين الحضارة الإسلامية وباقي الحضارات الإنسانية التي جاءت قبل أو بعد الحضارة العربية الإسلامية.

المبحث الأوّل: مفهوم الحضارة العربية الإسلامية

لقد وردت العديد من التعريفات بخصوص مفهوم الحضارة العربية الإسلامية، حيث يصعب استقصاء جميع تلك التّعريفات وجمعها في هذا الكتاب، ولذا سنقتصر على إيراد بعض من تلك التّعريفات بشكل مختصر وموجز، ومن تلك التّعريفات نذكر ما يلي:

تعريف حسّان علاق والّذي عرّف الحضارة العربية الإسلامية بأنّها: " **تلك الإسهامات المدنية التي أنجزتها دمشق وبغداد وقرطبة وغرناطة والقاهرة وفاس وبلاد فارس وسواها من المدن والحواضر الإسلامية**" [(55)] وما يؤخذ عن هذا التعريف أنّه حصر مفهوم الحضارة العربية الإسلامية في الجوانب المادية فقط والأصل أنّ مفهوم الحضارة العربية الإسلامية يتعدّى الجوانب المادية إلى الجوانب المتعلّقة بالأخلاق

((55)) ففضيلة هدار، "**مصادر الحضارة الإسلامية، دراسة في المفهوم والتّصنيف**"، مجلة المقدّمة للدراسات الانسانية والاجتماعية، العدد06، جوان 2019، ص110.

والسّلوك والمعاملات والقيم التي كانت منتشرة في المجتمعات الإسلامية، وصحيح أنّ الجوانب المادية مهمّة في أي بناء حضاري لكّنها لا يمكنها أن تحقّق جميع الأهداف المرجوة (النفسية، والاجتماعية، والبيئية...الخ)خاصة فيما تعلّق بالجانب الرّوحي والإيماني والعقدي والإيديولوجي، فالمدنية وحدها لا تصنع الإنسان المتحضّر إلاّ إذا كانت لديه قيم أخلاقية وسلوكية يؤمن بها ويسعى إلى تحقيقها على أرض الواقع وإلاّ فإنّ ضرّرها سيكون أكثر من نفعها [56].

وهناك من يعرّف الحضارة العربية الإسلامية في شكل مجمل ويقول: " **الحضارة العربية الإسلامية هي نتاج عمل إنساني مشترك بين جميع الشُّعوب والأمم، وليست خاصة بأمّة معينة أو قومية معيّنة أو جنس معيّن، وتربطهم قيم ومبادئ وتعاليم**

((56)) قد يقول قائل أو قد يتوهّم واهم أنّ الحضارة الغربية هي حضارة مدنية بامتياز و يعيش أصحابها في قمّة الهناء والسّعادة والرّخاء، فالرّد على ذلك سهل والحمد لله، صحيح أنّهم وصلوا إلى القمّة في المدنية والتكنولوجية والكشوفات العلمية المتقدّمة والصناعات المتطوّرة والبنى التحتية بصفة عامة، إلاّ أنّ ذلك لا يمنع من القول بأنّ الحضارة الغربية فيها العديد من الثغرات والنقائص والمتناقضات، فجوهر الحضارة الحقيقي هو الانسان في حدّ ذاته والاهتمام بالإنسان في الغرب مرتبط بالمصالح المادية البحتة لا غير، و هناك إخفاء لكثير من الحقائق المتعلّقة بالتّعسف والاعتداء على حقوق الانسان والشعور بالإحباط واليأس في البلدان الغربية، وذلك بسبب سيطرة الرّؤية المادية على الرؤية الإنسانية في العلاقات الاجتماعية السائدة، ولذلك فإنّ المجتمعات الغربية بصفة عامة لا تزال تعاني من العديد من المشكلات النّفسية إمّا بسبب قلّة الاهتمام بالجانب الرُّوحي للحضارة الغربية، وإمّا بسبب جموح النفس وطغيانها نتيجة إشباعها المفرط بالحاجات المادية الفانية، وهو ما انعكس عليهم سلبا في الفهم الحقيقي لمعنى الحضارة الإنسانية حيث ظنوا أنّ الحضارة مجرّد أمور مادية ومتعة فحسب وهي أبعد عن ذلك بكثير،وقد لا يروق هذا الكلام لكثير من الناس ولكن الواقع ينطق بصحّة ما ذهبنا إليه.

الإسلام سواءً كانوا من المسلمين أو من غيرهم ممّن يعيشون تحت لواء الإسلام" [57].

وقد ركّز صاحب هذا التعريف على خاصية عالمية الحضارة الإسلامية حيث يرى أنّها لا تقتصر على أمّة من الأمم أو جنس معين أو قومية بعينها، إذ أنّ الرابط الحقيقي بينهما هو الإسلام وتعاليمه ومبادئه، ويفهم من هذ التّعريف أنّه ليس هناك حدّ جغرافي أو ديموغرافي للحضارة الإسلامية فطالما التزمت أمّة من الأمم بتعاليم الإسلام ومبادئه بغض النّظر عن لغتها وانتمائها الجغرافي فهي بذلك تمثل الحضارة الإسلامية، وكل ما تنتجه الأمّة الإسلامية من إنجازات مادية ومعنوية فهي تضاف إلى الحضارة العربية الإسلامية، لأنّ هذه الأخيرة هي في الأصل محصّلة عمل جماعي مشترك كما جاء في مطلع تعريفه، وهذا يعني أن مدلول الحضارة العربية الإسلامية واسع جدا سواء من حيث الزمان أو المكان، الأمر الذي يجعله مفهوما يحمل في طياته كثيرا من الخصائص والسّمات.

وإلى جانب التّعريفين السابقين فقد عرّفت الحضارة العربية الإسلامية كذلك بأنّها: "**تعني ما قدّمه الإسلام –أي ما قدّمه المسلمون – للبشرية من علم وقيم ومبادئ، وتمكنّه من التّطور والازدهار في جميع جوانب حياة الإنسان** "[58]، وعلى الرّغم من أنّ هذا التعريف موجز وقصير إلى أنّه حوى العديد من الفوائد التي لم ترد في غيره، منها أنّ منافع الحضارة الإسلامية تشمل البشرية جمعاء،وهو ما يطلق عليه بشمولية الإسلام للعرب والعجم وجميع الخلائق، ومنها كذلك أنّ أهم شيء في الحضارة الإسلامية هي القيم والأخلاق والمبادئ التي تسمح للمجتمعات بالتّطوّر الحقيقي، فالمدنية كما هو

((57)) جابر عيد الوندة، "**عوامل استقرار وازدهار الحضارة الإسلامية: نظام الاسرة في الإسلام نموذجا**"، مجلة العمران والفنون، العدد09، 2018.

((58)) عبد الحفيظ علي تهليل، "**الحضارة الإسلامية..المفهوم والمقارنة بالحضارة الغربية**"، صحيفة تبيان، 14جوان2023.

معلوم مهما بلغت أوّجها لا يمكن أن تسمو بالمجتمع إلى الدرجات العلا من الأخلاق الفاضلة والسلوك القويم، وهنا يكمن الفرق بين الحضارة الإسلامية وسائر الحضارات الأخرى.

وقريبا من التّعريف السابق عُرّفت الحضارة العربية الإسلامية بأنّها: "**هي ما قدّمه الإسلام للمجتمع البشري من قيم ومبادئ وقواعد ترفع من شأنّه وتمكّنه من التقدّم في الجانب المادي وتيّسر الحياة للإنسان**"[59] ويظهر من هذا التعريف أنّ الحضارة الإسلامية تمزج بين المادة والرُّوح وتجعل منهما ركنان أساسيان لأي بناء حضاري، فمثلما أنّ التقدّم المادي والتقني يسهم في تطور البشرية وازدهارها وتسهيل سبل الحياة للبشرية قاطبة فإنّ الجانب الروحي والقيمي له كذلك فائدة لا تقل أهمية عن سابقتها وهي أنّ التّقدم الرّوحي يعلو من شأن المجتمعات البشرية ويرفع من مقامها ويجعل التقدّم المادي تقدّما إنسانيا ومتزنا، ولا توجد حضارة على وجه الأرض اعتنت بالجانب الروحي والأخلاقي للبشرية مثلما اعتنت به الحضارة الإسلامية، والأمة الإسلامية هي خير الأمم بنص القرآن الكريم بسبب القيم والأخلاق التي اتسمت بها هذه الأمة: قال تعالى: **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...**"[60]، وعلى الرّغم من النقائص الموجودة في الأمة الإسلامية فهي تبقى خير الأمم، والعبرة ليست بالتّطور الحاصل في علوم المادة إنما في كيفية تسخير تلك العلوم لمنافع الناس دون تفرقة أو تمييز، وكذا في تحقيق مبادئ وقيم

((59)) لمزيد من المعلومات انظر إلى المقال الموسوم ب: " **من أنواع الحضارة الإسلامية**"، راجع الموقع الإلكتروني الآتي: https: //www.islamweb.net.

((60)) سورة آل عمران، الآية 110.

التّسامح ومكارم الأخلاق بين البشر ، وهذا هو المفهوم الحقيقي لمعنى الحضارة الإنسانية.

وفي هذا الصّدد يقول الدكتور اسماعيل أحمد ياغي: "**إنّ الإسلام جعل من المسلمين أمّة متميّزة وجعلها خير أمّة أخرجت للناس** –كما مرّ معنا في الآية الكريمة– **وهي تجمع شمل المسلمين وتفتح صدرها لمن لم يكن مسلما** "[61]، والحق أنّ الحضارة الإسلامية لا مثيل لها في جانبها الرّوحي والعقدي وحتّى في مسألة الاهتمام بالعلم فقد سبق الإسلام جميع الأديان والشّرائع في الحث عليه والإنفاق عليه لما له من أهمية في نقل المجتمع المسلم من ظلمات الجهل إلى أنوار الحكمة والبصيرة، والعيب ليس في الإسلام إنّما العيب فينا نحن المسلمين الذين غفلنا عما يرفع شأننا ضاربين ذلك عرض الحائط فذقنا بذلك من كأس المهانة بقدر تضييعنا للأمانة التي عرضت علينا، ولكن مع ذلك فالوقت لا يزال أماننا لكي نبرهن على أنّنا قادرين على النهوض من جديد رغم كل الصّعاب التي تواجهنا، والسّقوط أو التّعثر ليس بعيب إنّما العيب في أن نرضى بهذا السّقوط والهوان إلى الأبد.

وللأسف هناك من يرى من أبناء جلدتنا أنّ الحضارة العربية الإسلامية مجرّد وهم لا مكان لها في الواقع، وهناك من يزعم أنّها أكبر أكذوبة، ومن يحمل هذا الفكر العقيم لا يحصون كثرة، ولا شك أنّ أمثال هؤلاء يمثّلون زبالة الفكر ولا محلّ لهم من الإعراب، لأنّهم لا يمثّلون الإسلام شكلا ولا مضمونا، وهم مجرّد أبواق ناعقة وأقلام مأجورة تخدم مصالح دولا تعادي الإسلام والمسلمين. والله نصر دينه ولا يحتاج إلى هؤلاء الأعيار

((61)) اسماعيل أحمد ياغي، **أثر الحضارة الإسلامية في الغرب**، الطبعة الأولى، الرياض، مكتبة العبيكان،1997، ص09.

لينصر هذا الدّين العزيز وهذه الحضارة السّامقة السّاطعة الأنوار، ولا أحد يستطيع أن يطمس هذه الأنوار المتجليّة والحقائق الدّامغة مهما أُوتي من قوة وذكاء.

ومن قديم الزمان والحضارة الإسلامية تحارب من هنا وهناك من قبل أعداء الديّن في الداخل والخارج ولكن في المقابل نجد أنّها أثرها لا يزال يمتد في ديار الإسلام وخارجها، ولو كانت هذه الحضارة أكبر أكذوبة كما يزعم أهل الأهواء والطّيش الفكري ما اعترف بها كبار علماء الغرب وما أقرّوا بفضلها عليهم وعلى البشرية جمعاء، وكما قيل: "**لا يضر الجبال نطح الوعول، ولا يضر الأسود زمجرة الضباع** "، بل كلّما شن أعداء الحضارة العربية الإسلامية حملات تشويه ضدّها إلاّ وزاد عدد المعجبين بها، والمدافعين عنها ، قال تعالى: "**يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**" [(62)]، والحاقدين على هذه الحضارة وعلى هذا الّدين لا يمكنهم بحال من الأحوال أن يحققوا أهدافهم الدنيئة لأنّ الله تولى نصر هذا الدّين ولو كثر أعدائه، وهذه أحد أسرار تفوّق الحضارة العربية الإسلامية على سائر الحضارات لأنّها حضارة ربّانية وإيمانية قائمة على أسس متينة لا يزعزعها أهل الأهواء والباطل.

وبخصوص نشأة الحضارة العربية الإسلامية فقد ظهرت مع بعثة النبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم بمكة المكرّمة أي في القرن السّابع الميلادي، وتأسّست أركانها الأساسية ومبانيها القاعدية في المدينة النبوية على يد نبيّنا محمد صلّى الله عليه وسلمّ، ثمّ أخذت في التّطور والتوسع منذ عهد الخلفاء الرّاشدين، وفي عهد الخلافة الأموية والعباسية، وقد عرفت تطورا كبيرا في تلك المرحلة إلى أن بلغت حدود الدولة الإسلامية من الصين شرقا إلى بلاد الأندلس غربا، ثم بدأت تضعف شيئا فشيئا في أواخر الخلافة العباسية

((62)) سورة الصّف الآية 08.

وفي عصر المماليك إلى أن تفكّكت بشكل كبير وصارت دويلات في أواخر عهد الدّولة العثمانية.

المبحث الثاني: أركان الحضارة العربية الإسلامية

لكل حضارة إنسانية أركان وأسس تنهض عليها أوّلا، ثمّ تبدأ تلك الحضارة في الانتشار بحسب قوّة تلك الأركان، ولا يمكن بحال أن تبنى حضارة بدون أسس أو تأتي من فراغ، بل إنّ قوّة أي حضارة تستمد في الأصل من الأركان التي تُبنى عليها، وعندما تنهدم تلك الأركان تنهدم الحضارة وتبدأ في الضّعف والتّدهور شيئا فشيئا، ولذلك كثيرا ما يركّز الأعداء على هدم أصول الحضارة كاللّغة والدّين والهويّة لأنّهم يعلمون علم اليقين أنّ قوّة أي أمّة من الأمم تستمد من تلك المقوّمات والأصول، والحضارة العربية الإسلامية كغيرها من الحضارات لها أصول وأركان وركائز أساسية هي بمنزلة الرُّوح من الجسد، إذ لا يمكن تصوّر بقاء الحضارة الإسلامية بدون هذه الأسس والمقوّمات، وفيما يلي سنعرّض بشيء من التفصيل إلى تلك الأركان بحسب ما يتبيّن لنا من البحث والتّقصي:

1-الدّين الإسلامي:

إنّ مكانة الدّين الإسلامي بالنّسبة للحضارة الإسلامية كمكانة الرّوح من الجسد، فكما لا يحي الجسد إلاّ بالروح فكذلك الحال بالنسبة لعلاقة الدّين بالحضارة الإسلامية، بل لو لا الدّين الإسلامي ما وجدت أصلا الحضارة الإسلامية، فالدّين من حيث الوجود والزّمن أسبق من الحضارة الإسلامية، وهذا يدل دلالة قطعية أنّ أهم أركان الحضارة العربية الإسلامية على الإطلاق هو "**الدّين الإسلامي**"، وهذا الدّين يشمل جميع مناحي الحياة فلم يترك الدّين الإسلامي شيئا من أمور الدنيا إلاّ ودلّ

الناس عليها، وهو صالح لكل زمان ومكان، ولا يتغيّر بتغيّر الليل والنهار بل هو باقٍ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وما دام الدين الإسلامي باقٍ فإنّ الحضارة الإسلامية مهما بلغت من الضعف ما الله به عليم، لأنّ سنن الله الكونية تقضي بأنّ دوام الحال من المحال، وكما أنّ الدين الإسلامي يمر بحالات من القوّة والتّمكين فإنّه يمر كذلك في بعض الأحيان بحالات من الضّعف والتّراجع- **والأصل أنّ الدّين الإسلامي لا يضعف إنّما المسلمون هم الذين يضعفون بسبب تخلّيهم عنه وعدم اعتنائهم به**-، وهذا مرّده لبعد الناس عن الدين فعزّة المسلمين بقدر تمسكّهم بالدين وكذا قوّة حضارتهم مرهونة بقوّة معتقدهم وتعلّقهم بالله وبشرائعه، ومن ثمّ فقوة وضعف الحضارة الإسلامية متعلّقة أساسا بقوة الدّين والمعتقد.

والدّين الإسلامي دين شامل، وقد تجلّت هذه الشمولية في عطاء الإسلام وبعده الحضاري، إذ هو يشمل كل جوانب الحياة الحضارية كالجوانب الاقتصادية والجوانب السياسية والجوانب الاجتماعية وكذا الجوانب الفكرية، كما أنّ الدّين الإسلامي يشمل كل متطلّبات الإنسان الرُّوحية والعقلية والبدنية، والحضارة الإسلامية تشمل الأرض ومن عليها إلى يوم القيامة، لأنّها حضارة القرآن الذي تعهّد الله بحفظه إلى يوم القيامة قال تعالى: "**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**" [63]، وهي ليست حضارة جامدة أو متحجرّة، بل هي تسعى إلى القيام بكل ما من شأنه أن يسهم في النهوض بالبشر، وتيسير أمور معاشهم وحياتهم، فهي حضارة ذات أسس ثابتة ومتينة[64].

((63)) سورة الحجر، الآية 09.

((64)) علي فرحان عبد الله الفكيكي، "**دور الدين الإسلامي في بناء الحضارة الإسلامية**"، مجلة الكليّة الإسلامية الجامعة، العدد42، 1997، ص411.

ولا ريب أنّ أهمية الدّين الإسلامي في تأسيس الحضارة الإسلامية وبنائها يظهر من خلال تربية المجتمع المسلم على قيم الصّفاء والإخاء والإخلاص (في الاعتقاد والعمل) والصّدق والمحبّة الخالصة بين المسلم وأخيه والحاكم والمحكوم ورب العمل والأجير، وهذا الذي غرسه نبيّنا محمد صلّى الله عليه وسلم في جيل الصّحابة ومن جاء بعدهم، حيث ربّاهم عليه الصّلاة والسّلام على التّوحيد الخالص والصّدق في القول والفعل والتّضحية في سبيل إعلاء كلمة الحق ونصرة المظلومين وإعلاء كلمة الحق، ولما كوّن رسول الله هذا الجيل –أي جل جيل الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين–المفعم بالصدق والإخلاص لله استطاع أن يبني أقوى حضارة إنسانية على مر التاريخ بل لم يشهد التّاريخ مثلها على الإطلاق ولا مبالغة في ذلك، حيث بنى الإنسان أوّلا عقديا وفكريا ودينيا ثمّ عقب ذلك أرسى دعائم الدولة الإسلامية الأخرى كالمسجد والجيش والأوقاف وبيت المال وغيرها من الدّعائم، فالحاصل أنّ الدين هو الذي يبني الفرد أوّلا وببناء الفرد تُبنى الحضارات، ويُقام العدل على الأرض، وتستقر حياة الناس ويأمنوا على بعضهم من الظلم والاستبداد.

ولما كان الدّين الإسلامي هو أساس تشييد الحضارة الإسلامية وركنها الأساسي فقد سعى أعداء الحضارة الإسلامية أو الدّين الإسلامي بشكل عام إلى هدمه من أساسه من خلال إضعافه في قلوب المسلمين وترك العمل به واستبدال أحكام الشّريعة الإسلامية بالقوانين الوضعية كإلغاء حكم القصاص والجلد مثلا وقطع الأيدي وغيرها من أنواع القصاص وكل مظاهر الإسلام، و قصدهم من ذلك ليس كما يزعمون إنقاذ حياة الناس وتعزيز حقوق الإنسان بل قصدهم أبعد من ذلك بكثير فأنّ إلغاء أحكام الإسلام هو أحد أسباب الضّعف الذي حلّ بالأمة الإسلامية، لأنّ عز وجل قال

تعالى: **"وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ"** [65] فهل نصدّقهم هم ونكذّب الله عزّ وجل كلاّ والله وما ينبغي لنا ذلك إطلاقا، ولذلك فإنّ سر قوّة المسلمين ليس في قوة الاقتصاد أو الصّناعة –وإن كان هذا لابدّ منه في وقتنا المعاصر لتحقيق عزّة المسلمين – بل إنّ قوّتهم الحقيقية في مدى تمسكّهم بالشّريعة الإسلامية و مدى تطبيق أحكامها، لأنّ تطبيق الشّريعة الإسلامية هو حماية لجناب الدّين الإسلامي بشكل عام والمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها بشكل خاص، وأكثر ما يخشاه الكفّار من المسلمين هو الدّين الإسلامي لأنّهم يعلمون علم اليقين أنّ الدين الإسلامي هو آخر الأديان السماوية،وأنّه لا يقهر مهما حاولوا محاربته، وأنّ فيه رفعة للمسلمين إلى يوم الدّين، لذلك يرى كثير من علماء الغرب الحاقدين الدّين الإسلامي على أنّه أكبر عدو لحضارتهم، وما دام الحق والباطل لا يجتمعان ما تعاقب اللّيل والنّهار فإنّ الدّين الإسلامي هو الّذي سيظهر وينتصر بتوفيق من الله على خرافاتهم وترّهاتهم اليوم وغدا.

2– اللّغة العربية (اللّسان العربي):

إنّ المتأمل في تاريخ اللّغة العربية ودورها الرّيادي في نشر علوم وأبحاث العلماء المسلمين على مدار تاريخ الحضارة العربية الإسلامية يدرك مدى أهميتها في الحفاظ على هوية المسلمين وتأثيرها في بقية الحضارات الإنسانية الأخرى، إذ لم تكن اللّغة العربية لغة الشّعر والنثر فقط كما يزعم بعض الحاقدين على اللّغة العربية، بل إلى جانب ذلك كانت لغة تدرّس بها علوم الشّريعة الإسلامية من فقه وحديث وعقيدة وتفسير وتاريخ وغيرها من العلوم الإسلامية، كما كانت لغة لتعليم علوم الطّب والهندسة والفلك والفيزياء وعلم الأحياء والحساب وغيرها من العلوم، لذا كانت بعض

((65)) سورة البقرة، الآية 179.

الدول الأوروبية في العصور الوسطى –أو ما يطلق عليها بعصور الظلام – على غرار إيطاليا تلجأ إلى تعلم اللّغة العربية لينهلوا من علوم المسلمين ومعارفهم، خاصة في ذلك الوقت التي ازدهرت فيه العلوم أيُّما ازدهار في بلاد الأندلس وفي بغداد عاصمة الدولة العباسية آنذاك.

وفي ذات السياق تقول المستشرقة زيغريد هونكه[66]: "**وكان من الطّبيعي أن تكون اللّغة العربية لغة للإدارة والسياسة والقانون، ولغة للتّجارة والمعاملات، ومن ذا الذي يريد أن يخرج عن لغة الجماعة ؟ وكيف يستطيع أن يقاوم جمال هذه اللّغة ومنطقها السّليم وسحرها الفريد ؟، فجيران العرب أنفسهم سقطوا صرعى سحر تلك اللّغة**" [67]– إشارة منها إلى بلاد فارس وهم أكثر من تأثروا باللّغة العربية وقد برع فيها علماء كثر من تلك البلاد، وكذا البلاد المجاورة للأندلس أي البلدان الأوروبية.ويظهر من هذا التّصريح للمستشرقة الألمانية أنّ اللّغة العربية كانت تستعمل بكثرة في مختلف مجالات الحياة إلى درجة أنّها سحرت حتّى من لا ينطقون بها، وهذا يدل دلالة قطعية على تفوّق اللّغة العربية وقدرتها العجيبة في التأثير على الآخرين،

((66)) **زيغريد هونكة:** هي مستشرقة ألمانية شهيرة،ولدت في 26أفريل1913 وتوفيت في 15 جوان 1999، كان لها اهتمام بالدراسات الدينية و الإسلامية، تحصّلت على شهادة الدكتوراه سنة 1941، اشتهر عنها في أواخر عمرها نظرتها العادلة والمنصفة للإسلام حتى أنّها تعرّضت للعديد من الانتقادات من المستشرقين الغرب بسبب نظرتها للإسلام والمسلمين، من أشهر كتبها وأكثرها انتشارا "**شمس العرب تسطع على الغرب** " وكذا كتاب الله ليس كمثله شيء، وممّا يذكر عنها أنّها أتقنت اللّغة العربية وأنّها تلقّت العديد من التّكريمات من حكّام العرب، وهذا بسبب مواقفها العادلة والمنصفة أمام أكبر حضارة إنسانية وهي الحضارة العربية الإسلامية والدّين الإسلامي بشكل عام.

((67)) الأخضر شريط، "**أهمية اللغة العربية في الاتصال والتبادل بين الحضارات**"، مجلة دراسات فلسفية، العدد08، جوان 2012، ص ص،31–32.

والعجيب في الأمر أنّه في بلاد الأندلس كانت تعقد جلسات علمية وأدبية في الشّعر وعلوم اللّغة العربية كالبلاغة والبيان والنّحو ويحضرها من غير العرب الكثير ويعجبهم ذلك أيّما إعجاب، حتّى قيل إنّ المجتمع الأندلسي اكتسب حسّا شعريا فطريا وكأنّ معظم أهله تحوّلوا إلى شعراء.

وتضيف "زيغريد هونكه" في معرض حديثها عن فضائل اللّغة العربية ودورها في الاتصال الحضاري قائلة: "**وانتقلت الحضارة العلمية والأدبية والتّقنية إلى أوروبا عبر إيطاليا والأندلس والحروب الصّليبية والتجارة، وقد تعلّم الأوروبيون –وهو الشّاهد من قولها– اللّغة العربية وآدابها وعلومها في طليطلة وفاس ومدن المغرب العربي، وكنات أوروبا في تلك الفترة تعيش في ظلمة العصور الوسطى" – وهذا القول بالذّات هو الذي أثار حفيظة المفكّرين والمستشرقين الغرب لأنّه كشف حقيقتهم التي يريدون إخفائها عنّا عمدا– بينما المسلمون كانوا يعيشون في زمن الأنوار والانتعاش الحضاري**"[68]، وتجدر الإشارة أنّ "**زيغريد هونكه**" ليست الوحيدة والأخيرة التي شهدت بتفوّق العرب واللّغة العربية عن سائر اللّغات في العصور الوسطى، وهذا يدل دلالة قطعية أنّ اللّغة العربية والعرب بشكل عام كان لهم فضلا كبيرا على الغرب والعالم أجمع بسبب ما كان يقدّمونه من إسهامات علمية وفكرية مشرقة لم يسبقها إليهم أحد في ذلك الزّمن، وهذا فخر لنا نحن المسلمين وحُقّ لنا أن نفتخر بذلك، فنحن أمّة العزّ والتّمكين، وما ذاك إلاّ بسبب هذا الدّين العظيم الذي رفع هامتنا في سماء الدنيا ضاربين عرض الحائط كل الدّعاوى التي تريد أن تهدم هذا الدّين أو تنقص منه أو من قدر اللّغة العربية التي هي أحد أكبر مكتسباتنا الدّينية وأحد أهم العناصر المشكلّ لهويتنا.

((68)) نفس المرجع، ص37.

وللأسف لا تزال اللّغة العربية التي هي أحد أركان الحضارة العربية الإسلامية تتعرّض لحملات شرسة وبغيضة لاسيّما من أعداء الأمّة الإسلامية للتّقليل من شأنها وقدرها كلغة علم وبحث، والهدف من ذلك واضح هو إضعاف الوازع الديني من خلال إبعاد المسلمين عن فهم النّصوص الشّرعية بسبب أنّها كتبت باللّغة العربية الفصحى، وعندما لا يتقنون هذه الأخيرة فإنّه يشق عليهم فهم تلك النصوص فهما صحيحا ممّا قد يجعلهم يشعرون بالحرج عند قراءة الكتب الإسلامية والعلمية التي كتبت باللّغة العربية الفصحى هذا الّذي يريدونه من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ قصدهم من محاربة اللّغة العربية في العالم العربي والإسلامي هو إضعاف كذلك الوحدة العربية والإسلامية بحيث يصبح لكل بلد لهجة خاصة به يتخاطب بها وعند ذلك يصبح التواصل بين العالم العربي والإسلامي صعبا للغاية بسبب اختلاط الألسن واللّهجات التي حلّت محل اللغة العربية وصعوبة فهم تلك اللهجات المحليّة.

وحتّى في الأوساط الأكاديمية تعرّضت اللّغة العربية لتهميش كبير واستبدل التّعليم فيها بلغات أجنبية إلاّ في تخصّصات قليلة جدا رغم أنّ كل دول العالم تدرّس التّخصصات العلمية والأدبية بلغتها الأم على غرار ألمانيا وفرنسا والصين وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية...الخ، والتّقدم العلمي لا يكون أبدا على حساب اللّغة الأم، وليس العيب في اللّغة إنّما العيب في الذين ينطقون بها، ونحن نقول من هذا المنبر أنّ اللّغة العربية ستظل بإذن الله شامخة أبيّة وإن أهانها أهلها لأنّ الله أعزّها واختارها لكي تكون لغة أشرف كتاب في هذا الكون، وهو كتاب الله تعالى القرآن المجيد، وصحيح نحن نمر بحالات من الضّعف والتقهقر لكن هذا لا يعني أنّ اللّغة العربية فقدت وجودها وأنّها أصبحت أثرا بعد عين كما يقال بل ستبقى –ولله الحمد– من أفصح اللّغات وأقواها، هذا وقد اعتمدت هيئة الأمم المتّحدة سنة 1973 اللّغة العربية

كأحد اللّغات الرّسمية المعتمدة داخل هذه الهيئة لتضاف بذلك إلى اللّغة الإنجليزية واللّغة الفرنسية واللّغة الإسبانية واللّغة الصينية وكذا اللغة الروسية، وهذا عرفان صريح من هيئة الأمم المتّحدة بمكانة وأهمية اللّغة العربية كلغة خطاب وتواصل بين الأمم والدول والمجتمعات.

3- الجهاد:

ما من شك أنّ الجهاد بمختلف أنواعه له مكانة كبيرة جدا في بناء وتشييد الحضارة العربية الإسلامية، ومتّى تركت الأمة الإسلامية الجهاد بالله سلّط الله عليهم أعدائهم فأذاقوهم الويل والعذاب وأعملوا فيهم القتل والتشريد والنكاية، ومعنى الجهاد هنا هو جهاد أعداء الإسلام من الدّاخل والخارج الذين يتربصّون سوءً بالأمة الإسلامية، والجهاد قد يكون بالسنان (السيف) وقد يكون باللّسان كما قد يكون بالقلم والعلم، ولكل ظرف زمني نوع معيّن من الجهاد فإذا كان الجهل والبدع منتشرة بقوّة في الأمة الإسلامية فالجهاد هنا يكون باللّسان والقلم معا ويضطلع به العلماء والدعاة والمصلحين، وإذا كان العدو الخارجي يريد غزو البلاد الإسلامية ونهب خيراتها وثرواتها وإفساد دينها وعقيدتها فالجهاد هنا يكون بالسّيف والقوة العسكرية ويصبح فرض عين على كل مسلم بشروط وضوابط الجهاد في الإسلام، لأنّ الجهاد مسألة كبيرة لا يتكلّم فيها إلاّ أهل العلم والشورى، لأنّه يترتّب عليه حقوق وواجبات وسفك للدماء أو حقنها، وإذا تمّ تعطيل تلك الشّروط فإنّ الشر الذي يترتب عنه –أي الجهاد–أكثر من الخير المرجو منه.

ولا يخفى على كل مسلم أنّ الجهاد كما هو مقرّر شرعا أنّ الجهاد هو ذروة الإسلام كما جاء في الحديث الصّحيح الذي يرويه معاذ بن جبل رضي الله عنه عن نبيّنا محمد

صلّى الله عليه وسلم: **ألا أخبرُكَ بِرَأسِ الأَمرِ كلِّهِ وعمودِهِ، وذِروةِ سَنامِهِ ؟ قلتُ: بلى يا رسولَ اللَّهِ، قالَ: رأسُ الأمرِ الإسلامُ، وعمودُهُ الصَّلاةُ، وذروةُ سَنامِهِ الجِهادُ**....." [69]إلى آخر الحديث، وقد بيّن هذا الحديث أنّ الجهاد هو أحد الأسس والرّكائز التي يحفظ بها الدّين وتصان به أعراض المسلمين، وترفع به راية التوحيد ويأمن المسلمين من شرور أعدائهم، ولذلك فإنّ ترك الجهاد بالقلم واللّسان والسّنان من شأنه أن يفضي إلى شرور كثيرة ومفاسد عديدة تنخر جسد الأمة الإسلامية وتضعف كيانها وسلطانها فوق الأرض التي أصبح القوي فيها يأكل الضعيف والغاية تبرّر الوسيلة، إذ لا مكان فيها للأخلاق والمبادئ الإنسانية حسب البراغماتيين والعنصريين المتشدّدين وغيرهم من أصحاب الفطر المنكوسة، **ولكن للجهاد شروط وضوابط قد أصلّها العلماء أحسن تأصيل فلتراجع ففيها خير كثير لمن يحرص على الخير للأمة الإسلامية.**

وفي ذات السّياق جاء التّأكيد على أهمية الجهاد من خلال حديث آخر فيه وعيدا شديدا لمن ترك الجهاد وأسبابه، حيث جاء عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه قال: "إذا تبايعتُم بالعينةِ وأخذتم أذنابَ البقرِ، ورضيتُم بالزَّرعِ **وتركتمُ الجِهادَ** سلَّطَ اللَّهُ عليْكم ذلاًّ لاَ ينزعُهُ حتَّى ترجعوا إلى دينِكُم" [70]؛ فالشّاهد من قوله وتركتم الجهاد أي فرّطتم في إعداد العدّة لمجابهة العدو وردّ العدوان على المسلمين، فمثل هذا بلا شك سيضرُّ بالمسلمين وبالحضارة الإسلامية ضررا شديدا، فهذا الحديث يحذّر المسلمين عامة وولاة الأمور خاصة على ضرورة

((69)) أخرجه الطبراني (266/8) والألباني في صحيح الترمذي برقم 2616.

((70)) أخرجه أبو داود في سننه برقم 3462، والبزار في مسنده برقم 5887، والطبراني في مسند الشاميين برقم 2417، والألباني في صحيح سنن أبو داود برقم3462.

الاهتمام بأمور الجهاد والحرب، لأنّ الحرب بين أهل الحق وأهل الباطل ستظل قائمة إلى يوم الدين، لذلك ينبغي ألاّ نغفل أمور الجهاد وكل ما يتعلّق به من سلاح أو الخطط العسكرية أو اقتناء مستلزمات التّسلح، فالعدو لا يخشى إلاّ القوة العسكرية أو قوة الرّد عليه، وقديما قالو:

تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتتّقـــي صـــولة المستأســـد الضّـــاري

وهناك فائدة تجدر الإشارة إليها والتّنبيه عليها وهي أنّ أعداء الإسلام كثر ولا ينقطعون بل يتكرّرون في كل زمان ومكان، ومن ثمّ فإنّ الاستعداد لمواجهة أولئك الأعداء لا يكون إلاّ بالجهاد وبتحقيق التّفوق العسكري والاقتصادي والعلمي والصّناعي والتّقني والبدني، ولذا فقد أمرنا الله عز وجل في محكم تنزيله بإعداد العدّة وأخذ الأسباب لمواجهة أعداء الأمة الإسلامية، قال الله عزّ وجل: "وأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ "[71]، وهذه الآية تدل بشكل واضح وصريح على ضرورة الجهاد والاستعداد لمواجهة الأعداء لأنّهم كما هو معلوم للقاصي والدّاني يتّربصون بالأمة الإسلامية شرّا في كل لحظة تمرّ بها من أجل غزوها ونهب ممتلكاتها الفكرية والمادية.

وفي سياق آخر فقد تحدّث الباحث أحمد الظرافي في معرض حديثه عن دور الجهاد في ازدهار الحضارة العربية الإسلامية بالأندلس حيث قال بصريح العبارة: "عندما نعدّد عوامل عوامل قيام الحضارة الإسلامية بالأندلس فإنّنا نرجعها لعوامل مادية وعقلية وبيئية ونذهل عن العامل الأهم الّذي كان السّبب الأساسي في وجودها

((71)) سورة الأنفال، الآية 60.

—وهذا هو الشّاهد من قوله– فلو لا الجهاد في سبيل الله لما استطاع المسلمون أن يضعوا حجرا على حجر في شبه الجزيرة الإيبيرية (اسبانيا والبرتغال حاليا) ولما استطاعوا أن يبقوا فيها عقدا واحدا، فهذه الحضارة الأندلسية التي نتغنّى بها اليوم، والّتي لا تزال تدهش المؤرخّين والزوّار من مختلف أنحاء العالم، أقيمت على أشلاء وجماجم المجاهدين ن وبفضل تضحياتهم الجبارة، ودمائهم الزّكية التي ضرّجت ميادين الجهاد داخل شبه الجزيرة الإيبيرية وخارجها برّا وبحرا "[72].

ويضيف ذات الباحث قائلا: ومهما كان من أمر، فقد وطّن (عوّد)المسلمون الفاتحون أنفسهم منذ البداية، بأنّ وجودهم في هذا البلد (الأندلس)، ليس لأجل التّمتع بمغانمه، والتّلذذ بخيراته، وإنّما لأجل الجهاد والرّباط، وعندما ظلّ المسلمون في الأندلس واعين لهذه الحقيقة بقت راية التّوحيد مرفوعة وسوق الجهاد قائمة، عزّوا وسادوا، وأمّا عندما تجاهلوا هذه الحقيقة، أو تناسوها، وانقسموا على أنفسهم، وجعلوا بأسهم بينهم، فقد ذلّوا وهانوا، وكانوا فريسة سهلة لأعدائهم"، إلى أن قال: كان المسلمون في الأندلس ينتصرون على أولئك جميع الأعداء، ويظلّون في موقع القوّة والريادة والصّدارة والتّقدم حضاريا وفنيّا، واقتصاديا، وثقافيا، وهذا على الأقل خلال القرون الثلاثة الأولى من الوجود الإسلامي في الأندلس، أي طوال عهد الدّولة الأموية في الأندلس، وبسقوطها سنة 422 هـ تمزّق المسلمون في الأندلس، واشتدّت عليهم حروب الاسترداد الصّليبية، واستولى الإسبان على أكثر المعاقل، ومنذ ذلك التاريخ، أخذت الحضارة الإسلامية في الأندلس، تسير نحو الانحدار[73].

((72)) أحمد الظرافي، "**حضارة الإسلام في الأندلس ثمرة الجهاد**"، مجلة البيان الإلكترونية، 11جوان 2019.

((73)) أحمد الظرافي، المرجع السابق.

ويظهر مما قاله هذا الباحث أنّ الجهاد بمختلف صوره كان له دورا كبيرا في نشر الدين الإسلامي في مشارق الأرض ومغاربها، وفي بناء صرح الحضارة الإسلامية التي شهد بإنجازاتها المادية والمعنوية البعيد قبل القريب والعدو قبل الصديق، وفي هذا رسالة لهذا الجيل المسلم وهي أنّ الدين الإسلامي لم يصلنا بمجرّد الأماني والرّكون إلى الرّاحة، بل قد وصلنا بتضحيات المسلمين الأوائل الذين قدّموا أرواحهم وأموالهم خدمة لهذا الدّين الحنيف، ولرفع راية التوحيد وتعاليم الدّين الإسلامي في كل عصر ومصر، ولما كانت نيّاتهم خالصة لله وحده جازاهم الله برفع مكانتهم في الدّنيا والآخرة، وجعلهم قدوة لغيرهم بسبب ما قدّموه لنا من إنجازات تعجز عنها أمم بأكملها، إذ لم يتركوا مجالا من مجالات الحياة إلاّ وأبدعوا فيه وأخلصوا العمل فيه لله، فكانوا سادة الأمم في وقتهم،كما كانوا محط أنظار وإعجاب العالم بأسره، وبذلك شيّدوا أكبر حضارة شهدها التاريخ رغم قلّة الإمكانات المادية والبشرية آنذاك وهي الحضارة العربية الإسلامية، وكل هذا بسبب مجاهدة النّفس فيما يرضي الله، واتّباعهم لهدي نبيّنا محمد صلّى الله عليه وسلّم.

4-الأُخَّوة في الإسلام:

إنّ التآخي الذي حصل بين المسلمين عند مبعث رسول الله صلّى الله عليه وسلم لم يشهد له مثيل، وكان له دورا كبيرا في تعزيز أواصر هذا الدّين وتشييد أركان الاسلام الأساسية، وبهذه الأخوة زالت الأحقاد بين المسلمين وتساوت الحقوق بينهم، وصاروا كالجسد الواحد وكالبنيان المكتمل الأركان، ونظرا لأهمية الأخوة في توحيد صفوف المسلمين فإنّ أول ما قام به رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم عند مقدمه إلى المدينة المشرّفة بعد بناء المسجد النبوي الشّريف هو أنّه عليه الصّلاة والسلام آخى بين

المسلمين أي بين الأنصار والمهاجرين، حيث نزع البغضاء والنّعرات القبلية من قلوبهم وجعلهم كالجسد الواحد في السرّاء والضرّاء.

وقد ضرب المسلمون على مر العصور أنصع الأمثلة في المحبّة والإخاء بين بعضهم البعض، ونجد في الأنصار خير مثال يُحتذى به في هذا الباب فقد آثروا غيرهم على أنفسهم في المال والرّزق حتّى قال الله عز وجل عنهم في محكم تنزيله: "**ويُؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** "[74]، ومن شدّة كرمهم وجودهم أنّهم اقترحوا على رسول الله أن يقسم نخلهم بينهم وبين إخوانهم المهاجرين، لأنّ النّخيل مصدر معيشة الكثير منهم، لكنّ الرّسول عليه الصّلاة والسّلام طلب منهم أن يقوموا بإدارة بساتين النّخيل ويحتفظوا بها لأنفسهم على أن يشركوا المهاجرين في التّمر[75]، كما جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالتِ الأنْصارُ للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: اقْسِمْ بيْنَنا وبيْنَ إخْوانِنا النَّخِيلَ، قالَ: لا، فقالوا: تَكْفُونا المؤُونَةَ، ونَشْرَكْكُمْ في الثَّمَرَةِ؟ قالوا: سَمِعْنا وأَطَعْنا"[76]، ولم يزل المسلمين إلى يومنا هذا يضربون خير الأمثلة للبشرية

((74)) سورة الحشر الآية 09. و معنى **الخصاصة** في هذه الآية: شدّة الحاجة والفقر؛ أي أنّهم يؤثرون غيرهم على أنفسهم بالبذل والعطاء ولو كانوا بأمس الحاجة لتلك الصّدقة التي تصّدقوا بهما على إخوانهم المسلمين. وهذا الخلق الفاضل لا يكاد يوجد إلاّ في الأمة الإسلامية، وإن وجد في غيرهم فهو قليل جدّا، والحمد لله على نعمة الإسلام الذي هدى البشرية إلى خيري الدّنيا والآخرة.

((75)) إياد أحمد محمد سلامة، "**الوسائل والأساليب النبوية في تقوية الروابط الاجتماعية في المجتمع الإسلامي الأوّل**"، مجلة الدراسات الإسلامية والبحوث الأكاديمية، العدد69، 2016 ص265.

(76) أخرجه البخاري في صحيحه برقم 2325، والألباني في صحيح الأدب المفرد برقم 437.

جمعاء في التآخي والإيثار، وهذا الخُلُق هو أحد أسرار تقوية شوكة المسلمين وزيادة هيبتهم بين الأمم والحضارات.

وتظهر ثمرة الإخاء بين المسلمين في الحضارة العربية الإسلامية من خلال صور المحبّة والإخلاص التي سادت بين العلماء وطلبة العلم وبين الأمراء والرّعية، إذ لم تكن العلاقات الاجتماعية بين المسلمين آنذاك مبنية على النفاق والخداع أو الغش، بل قد حرّم الإسلام الغش بين المسلمين وجعله محرّما إلى يوم القيامة، قال عليه الصلاة والسلام: "**من غشنا فليس منّا** ' سبق تخريجه، وقال أيضا عليه الصّلاة والمسلم تأكيدا على حقوق المسلمين بين بعضهم البعض: "**المسلمُ أخو المسلمِ لا يظلِمُه ولا يُسلِمُه مَن كان في حاجةِ أخيه كان اللهُ في حاجتِه ومَن فرَّج عن مسلمٍ كُربةً فرَّج اللهُ بها عنه كربةً مِن كُرَبِ يومِ القيامةِ ومَن ستَر مسلمًا ستَره اللهُ يومَ القيام**" [(77)]. فهذا الحديث يؤكّد على حرمة إلحاق الضّرر بالمسلم من أخيه المسلم سواءً باليد أو اللّسان،كما يؤكّد مرّة أخرى على ضرورة التّضامن والتآزر بين بعضهم البعض لاسيّما في حالة الشدّة التي يمرُّ بها المسلم، ولهذا جعل عليه الصّلاة السلام تفريج كرب المسلمين سببا في تفريج كرب يوم القيامة، ولا شكّ أنّ هذا الحديث له دور كبير في توحيد صفوف المسلمين وتقوية شوكتهم في الدّاخل والخارج ويجعلهم يشعرون بالأمان والأمن في حياتهم الدنيا.

وعلى الرّغم ممّا مرّت به الحضارة الإسلامية من جراح وآلام فقد كان للأخوة الإسلامية دورا كبيرا في مداواة تلك الجراح والآلام بالمواساة تارة وبالإنفاق تارة أخرى،

[(77)] أخرجه البخاري في صحيحه برقم 2442 ومسلم في صحيحه برقم 2580ن وابن حبان في صحيحه برقم 533.

وهكذا لا تزال الأخوة الإسلامية رغم سيطرة الماديات على الحياة الاجتماعية بصفة عامة تحمل في طيّاتها الكثير من البشائر والصور النّاصعة لأنّنا أمّة خيرها لا ينقطع ما بقي اللّيل والنهار، لأنّها تستقي هذا الخصال النادرة من منبع نبوة محمد الأمين عليه أفضل صلاة وأزكى تسليم، ولذلك فإنّ الأخوة التي سادت المسلمين منذ مبعث الرسول الكريم كانت ولا تزال أحد الرّكائز المهمّة التي تأسّست عليها حضارتنا الإسلامية رغم محاولة زعزعتها من قبل أعداء الإسلام، حيث في ظل الأخوة الإسلامية ذابت مختلف الخلافات السياسية وتفرّغ المسلمين لبناء مجدهم التّليد وحضارتهم الفريدة في خصائصها ومبادئها، ولذلك ينبغي عدم التّقليل أو التّهوين من شأن الأخوة الإسلامية في تقوية الجبهة الدّاخلية للمجتمعات المسلمة، إذ لا عبرة بالتفوّق العسكري والاقتصادي ما دام المسلمون متفرّقين شذر مدر، وكما قال عليه الصّلاة والسلام في سياق تأكيده على أهمية الأخوة الإسلامية: – "**مثلُ المؤمنين في تَوادِّهم، وتَرَاحُمِهِم، وتعاطُفِهِمْ. مثلُ الجسَدِ إذا اشتكَى منْهُ عضوٌ تدَاعَى لَهُ سائِرُ الجسَدِ بالسَّهَرِ والْحُمَّى**" [78]، وهذا الحديث وحده يكفي للاستدلال على ضرورة الأخوة الإسلامية وأهميتها في ديننا الإسلامي، وفي تعزيز مكانة الحضارة الإسلامية قديما وحديثا.

5–المساجد:

قد يقول قائل وما دخل المساجد في تأسيس الحضارة العربية الإسلامية وتشييدها ؟ وهل كانت المساجد تشكّل اللّبنة الأساسية في تعزيز أركان الحضارة الإسلامية ؟ فنقول سائلين الله السّداد والتوفيق إنّ المساجد تعد مصدر الإشعاع الحضاري والإسلامي عبر

((78)) أخرجه البخاري في صحيحه برقم 6011، ومسلم في صحيحه برقم 2586، والألباني في صحيح الجامع برقم 5849.

تاريخ الأمة الإسلامية الطويل، ولذلك فإنّه باتفاق المؤرخّين والمهتمين بالتاريخ الإسلامي والسيرة النبوية أنّ أوّل ما قام به الرسول عليه الصلاة والسلام عند وصوله إلى المدينة هو بنائه للمسجد النبوي الذي شارك في بنائه مع الصّحابة الكرام، وهذا من فقهه وبعد نظره وحكمته عليه الصّلاة والسلام، فلا شكّ أنّ المسجد بُني لأداء الصّلوات فيه والتّعبد فيه نفلا وفرضا، لكنّه في المقابل كان كذلك مكانا لنشر العلم وتربية المسلمين على الأخلاق الفاضلة والسّمحة، فضلا توجيه الصّحابة وإجراء الصلح بين المتخاصمين، وتعليمهم أحكام الدّين الإسلامي، كما كانت توزّع فيه الصّدقات والزّكوات على فقراء الصّحابة وغيرهم ممّن يستحقون الزّكاة، أي أنّه كان مؤسّسة دينية وحضارية متعدّدة المهام والأدوار.

وإلى جانب ما ذكرنا فإنّ المسجد يعد كذلك المركز التّعليمي الأساسي وهو بمنزلة الجامعة العالمية التي تخرّج منها القادة والمصلحين، كما أنّه يعد مكانا للتّعارف والتّواصل بين كل فئات وشرائح المجتمع المسلم، هو دار للفتوى ومحكمة للقضاء ورباط أساسي يأوي إليه المحتاجون، وهي قطب الرّحى وحجر الزّاوية في الحضارة الإسلامية ومدرسة العلماء والمفكّرين عبر القرون[79]، وفضائل المسجد عديدة ومقاصده تشمل جوانب عديدة من حياة الفرد والمجتمع، فهو مؤسّسة متعدّدة المهـام والأدوار كالأدوار السياسية والأدوار الاجتماعية والأدوار الفكرية والعقدية والتعليمية والأدوار العسكرية والأمنية.

وما يدل على أهمية المسجد في ازدهار الحضارة العربية الإسلامية والحفاظ على الهوية الإسلامية هو أنّ أعداء الأمة الإسلامية في كل حروبهم ضد المسلمين كان يستهدفون المساجد إمّا بتحويلها إلى كنائس أو إسطبلات، أو من خلال هدمها من أساسها أو

((79)) انظر إلى المقال الموسوم ب: "**المساجد هي مهد الإسلام**" جريدة الوطن، قطر، 2023/04/06.

حرقها بالكليّة، كما كانوا يمنعون المسلمين من أداء الصّلوات فيهم والتّعبد بها لأنّهم يعلمون علم اليقين بأنّ المسجد هو أحد القلاع الحصينة التي يأوي إليها المسلمون وينهلون منها مختلف العلوم والآداب والتّوجيهات من قبل العلماء والدّعاة والمشايخ.

فضلا عن أنّها تعد مركزا علميا وحضاريا تشّع منها مختلف العلوم والآداب الإسلامية، وتجمع المسلمون على هدف واحد ومبتغى واحد، ولذلك قامت الدول الكافرة في حروبها الصّليبية خاصة في بلاد الأندلس وحتّى في بلاد المغرب العربي بمخطّطات دنيئة ضد مساجد المسلمين كالجزائر مثلا التي حوّلت أغلب مساجدها خلال مرحلة الاحتلال الفرنسي (1830-1962)إلى كنائس واصطبلات كمسجد كتشاوة مثلا الّذي بني في العهد العثماني، حيث حوّله الدوق "**دو رفيغو**" -عليه من الله ما يستحق- إلى كنيسة، وأكثر من ذلك فقد قام بإخراج جميع المصاحف الموجودة بداخله إلى ساحة الماعز المجاورة له وقام بإحراقها جميعا، ثمّ حُوّل المسجد فيما بعد إلى إسطبل بعد ما قام هذا الخبيث والحاقد على الإسلام والمسلمين بقتل أكثر أربعة آلاف من المصلين داخل هذا المسجد بعد احتجاجهم على تحويله إلى إسطبل، وهذا غيض من فيض؛ إذ لا تزال الحروب الصّليبية تهدم المساجد وتكرّر نفس المشهد كلّما احتلت بلد من بلاد المسلمين بحجّة أنّها-أي المساجد- مكانا يأوي الثوار ومنفذي أعمال التّخريب، وهذه حجّة أوهي من بيت العنكبوت وتنبئ عن حقد دفين نحو المسلمين وشعائر الدين الإسلامي.

وفي ختام حديثنا عن دور المسجد في الإشعاع الحضاري والإسلامي آثرت أن أنقل ما كتبه أحد الباحثين عن دور المسجد المتعدّد الجوانب وانعكاس ذلك على الحضارة الإسلامية وهو كلام نفيس جدّا، حيث قال: " **ودور المسجد هنا هو أن يشارك البيت في تربية وتوجيه أفراده وذلك، من خلال خطب الجمعة وخطب الأعياد**

والدروس والوعظ اليومي والموسمي، والاحتفالات الدّينية والنشاطات الاجتماعية والتّواصل الدائم، فيساهم بذلك في صقل شخصيتهم، وصياغة مكوّناتهم الفكرية والوجدانية صياغة إسلامية منفتحة معتدلة، وينشئهم على محبة الله ورسوله وعامة المسلمين، وقبولهم لمن عداهم على مبدأ التّعاون والتّكامل، ويربّيهم على الولاء للأوطان وطاعة ولاة الأمر، وعلى الالتزام بالسُّلوك الإيماني الحسن في السّر والعلن، ومع القريب أو البعيد على حد سواء" [80]، وهذه أحد أهم ثمار الحضارة الإسلامية وهي كما ذكر الباحث، وقد شملت العقيدة والسلوك والآداب العامة التي يجب على المسلمين الالتزام بها، ولذلك فإنّ ما يؤدّيه المسجد من أدوار حضارية لا تؤديه أي مؤسّسة أخرى مهما بلغت من النضج الفكري ما بلغت، وهذا ليس معناه التّقليل من شأن تلك المؤسّسات بل هي حقيقة يجب أن تقال.

هذه إذن حسب وجهة نظرنا بعض الأركان الأساسية التي قامت عليها الحضارة العربية الإسلامية منذ قيامها ونشأتها أي منذ بعثة النبي صلّى الله عليه وسلّم مع التسليم أنّنا لم نتطرّق إلى جميع تلك الأركان، وهذا حتّى لا يطول بنا المقام في عرض هذه الجزئية، ولأنّ مباحث الحضارة الإسلامية عديدة ومتداخلة لذلك آثرنا أن نقف على هذه الأركان دون غيرها، والبحث في هذه الجزئية مفتوح لكل باحث ومهتم بتاريخ الحضارة العربية الإسلامية، وبعد الانتهاء من هذا المبحث سننتقل مباشرة في المبحث الموالي إلى الحديث عن خصائص وسمات لحضارة العربية الإسلامية الّذي اعتبره من أهم المسائل في هذا الباب .

((80)) أنظر إلى المقال الموسوم ب: " **المسجد مركز إشعاع حضاري وحصن لقيم المجتمع وفضائله**"، صحيفة الاتحاد، الإمارات، 2011/08/17.

المبحث الثالث: خصائص الحضارة العربية الإسلامية

للحضارة العربية الإسلامية خصائص عديدة تختلف بها عن غيرها من الحضارات الإنسانية، ولا شكّ أنّ هذه الخصائص والمميّزات تستمدها الحضارة العربية الإسلامية من مصادر الشّريعة الإسلامية ومنهاج النبوة لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلّم، وما يجعل الحضارة العربية الإسلامية تنفرد عن بقية الحضارات الإنسانية بجملة من الخصائص هو أنّها قائمة في الأصل على أسس الفضيلة ومكارم الأخلاق وحسن المعاملة مع الصّديق والعدو، وذلك في كنف الصدق والمصداقية والإخلاص لله، وفيما يلي سنعرض بالتّفصيل أهم تلك الخصائص والمميزات على النحو الآتي:

1-الحضارة الإسلامية حضارة عالمية: حيث لا تشترك أي حضارة أخرى مع الحضارة الإسلامية في هاذه الخاصيّة التي هي أحد أهم سماتها ومميّزاتها، ذلك أنّ رسولنا محمد صلّى الله عليه الصلاة والسلام رحمة للعالمين أي للعالم كلّه قال تعالى: **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**"[81]، وقال الله عز وجل في آية أخرى: **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا**" [82]، وجاء كذلك النص على عالمية الرسالة المحمديّة في قوله تعالى: " **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**"[83]، وعالمية الحضارة الإسلامية تدل على أنّ الشّريعة الإسلامية قد نسخت جميع الدّيانات السّابقة، وأنّها هي الدّين الوحيد الّتي يجب على البشرية اعتناقه واتّباعه لما فيه سعادتهم في الدّنيا والآخرة. وما يجعل الحضارة الإسلامية تنتشر بقوّة في مختلف

((81)) سورة الأنبياء، الآية 107.

((82)) سورة الأعراف، الآية 158

((83)) سورة سبأ، الآية 28

دول العالم هو يسرها وسماحة الدّين الإسلامي القائم أساسا على حسن الخلق والمعاملة الحسنة التي كان عليها سلفنا الصالح والمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.

وتظهر عالمية الحضارة العربية الإسلامية كذلك من خلال أنّ الدين الإسلامي جاء لتحرير البشرية كلّها من الانحرافات والضّلالات والخرافات التي كانت سائدة قبل مجيئ الإسلام وبعده، ومن باب آخر لم يكن الإسلام يوما من الأيام خاص بقبيلة أو جنس أو طائفة، بل هو دين الله إلى النّاس كافة، كما أنّه دين مشتمل على كل مناحي الحياة أراده الله واختاره ليكون للبشرية جمعاء في كافة ديارها وشتّى أقطارها [84]، وهذا الذي يجعل الحضارة العربية الإسلامية أكثر الحضارات الإنسانية انتشارا على وجه المعمورة رغم الطعونات والانتقادات التي وجّهها أعداء الإسلام لهذا الدّين الحنيف ولهذه الحضارة السامية بأخلاقها وسماتها، ولا عجب في ذلك لأنّ الصراع بين الحق والباطل لن يزول إلى قيام السّاعة.

وعالمية الحضارة العربية الإسلامية لم تقم أبد الدّهر على الإكراه والحروب كما يرّوج لذلك بعض النوكى (الحمقى) ومن ثمّ فإنّها –حسبهم- لم تنتشر إلاّ بالسّيف والقوّة كما يزعمون بهتانا وزورا، بل حضارتنا الإسلامية انتشرت بسبب الأخلاق التي كان يتحلّى بها المسلمون أينما حلّوا وارتحلوا،وبسبب كذلك سماحة الشريعة الإسلامية ونبل مقاصدها، فهي جاءت لتحّرر الإنسان من قيود التقليد الأعمى لأهل الباطل والانحراف،ولتنقلهم من ظلمات الجهل والظلم إلى أنوار العلم والعدل، ولما اقتنع غير المسلمين بصحّة ما جاءت به الشّريعة الإسلامية دخلوا الإسلام أفواجا بلا نوال ولا مقابل مادي، وشعروا بسعادة لم يذوقوا حلاوتها من قبل، الأمر الّذي جعل الدين

((84)) سليمة لدغش، "**أثر الإسلام على الحضارة وفضائله على الإنسانية**"، مجلة الباحث للدراسات الأكاديمية، العدد04، ديسمبر 2014، ص189.

الإسلامي أو الحضارة العالمية تتزايد عالميتها وسرعة انتشارها يوما بعد اليوم، ليس في عقر دارها فحسب بل خارج أراضيها وديارها كذلك، والعالم يشهد على ذلك، ولا أحد يستطيع أن يخفي هذه الحقيقة مهما بذل ما في وسعه، فالإسلام منتشر في جميع القارات حتّى في الدول الملحدة كروسيا واليابان والصين وغيرها من الدول الملحدة، الأمر الذي يعني أنّ الإسلامي ماضٍ بإذن الله في التوسع والانتشار إلى أن تقوم السّاعة ولله الحمد والشّكر.

2- **الحضارة العربية الإسلامية قائمة على الوسطية:** ومعنى الوسطية هنا الاعتدال أي لا إفراط ولا تفريط، فهي وسط بين المتضادات فخلق الكرم والإنفاق مثلا وسط بين الإسراف والتّقتير، قال الله تعالى في محكم تنزيله: "**وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا**"[85] وقد جاء في تفسير ابن كثير رحمه الله أن المقصود بهذه الآية أنّهم ليسوا بمبذرين في إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة، ولا بخلاء على أهليهم فيقصرون في حقهم فلا يكفونهم، بل عدلا خيارا، وخير الأمور أوسطها، لا هذا ولا هذا [86]انتهى كلامه رحمه الله، والوسطية هي خلق الأنبياء والصّالحين وأهل الفطر السليمة، كما أنّها ليست من اختراعنا؛ بل الله هو الّذي أمرنا بها لأنّها أكمل الأخلاق والآداب الإنسانية.

ومنهج الوسطية والاعتدال منهج أصيل في العقيدة الإسلامية وقيمة جوهرية للثّقافة والحضارة العربية الإسلامية، لذلك فقد جاءت نصوص كثيرة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ترسم منهج الوسطية والاعتدال وتدل عليه وتدعو المسلمين

((85)) سورة الفرقان، الآية 67.

((86)) أبو الفداء اسماعيل بن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، الطبعة الأولى، بيروت –لبنان، دار ابن حزم، 2000، ص1364.

إلى التّمسك به إلى جانب مكافحة الأفكار المنحرفة والمتطرّفة التي تناقضه، ونبذ المفاهيم الضيّقة التي تهمشه ليكونوا مثالا يُحتذى به في حب السّلام والأمان ونشر الرحمة ولزوم الاستقامة وخلق الانسجام، قال الله عزّ وجل في محكم تنزيله: " **وَكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً**"[87]، وقد ميّز الله الأمّة الإسلامية بالوسطية بين الأمم مما يدّل صراحة على جعل الوسطية قيمة إسلامية مقّررة في حياة المسلم، وفي المقابل فقد نهانا نبيّنا محمد عليه أفضل الصّلاة وأزكى التّسليم عن الغلو وهو المفهوم المقابل للوسطية، حيث صحّ عنه عليه الصّلاة والسلام قوله: "**إيّاكم والغلو في الدّين فإنّما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين**"[88]، لذلك فإنّ الوسطية التي تتّسم بها الحضارة العربية الإسلامية هي طريق السّلام والعدالة [89]، وهي المنهج القويم الذي يصون المسلم ممّا يهلكه ويوبقه في دنياه وآخرته.

ووسطية الحضارة العربية الإسلامية شملت كل جوانب الحياة بدون استثناء، ولذا فمن تمسّك بالوسطية والاعتدال أدرك حقيقة السّعادة في الدنيا والآخرة، وركب سفينة النّجاة، لأنّه لو تُرك الأمر إلى اجتهاد الإنسان وتفكيره فقد يهلك نفسه وغيره لأنّ عقله قاصر على إدراك كل ما ينفعه ويضرّه، كما أنّ فتح الباب لحظوظ النّفس قد يجعل منه كائن بهيمي وتهوي به نفسه عندئذٍ إلى أسفل السّافلين، وفي شريعتنا

((87)) سورة البقرة الآية 143.

((88)) اخرجه بهذا اللفظ النسائي في سننه برقم 3057، وابن ماجة في سننه برقم 3029، وأحمد في مسنده برقم 1851، وأخرجه الألباني في صحيح الجامع بلفظ إياكم والغُلُوَّ في الدينِ، فإنَّما هلَكَ مَنْ كانَ قبلَكُم بالغُلُوِّ في الدينِ برقم 2680.

((89)) دينغ جون، "**منهج الوسطية منهج النجاح للحضارة العربية الإسلامية**، مجلة التفاهم، دون ذكر عدد المجلة وتاريخ نشرها، ص ص، 331-332.

الإسلامية قاعدة أصولية شهيرة وهي أنّ: "**دفع المضرّة أولى من جلب المنفعة** "، وهذا لا يتحقق إلا بإدراك كلّيات الدين الخمس وفي حفظ الدّين والعقل والعرض والنفس والمال، ومدار الوسطية والاعتدال على هذه الكليّات الخمس المذكورة.

ولو لا وسطية الإسلام لصار المسلمين يعيشون في عالم مملوء بالتّناقضات لأنّ النفس في حدّ ذاتها تتميّز بالتّغير في الأذواق والمواقف والشّعور من حين لآخر، وكذا تفكيره يتباين من موقف إلى آخر، والإسلام هو الّذي يضبط هذه المواقف والسّلوكيات حسب ما ينفعهم ويوصلهم إلى بر الأمان، وانظر مثلا إلى الأمم التي توصف عقائدها وشرائعها بالتّشدّد أو التّفريط كيف عاشوا في ظلمات الجهل والطّيش، ولم يبلغوا السّعادة المنشودة رغم تقدّمهم في الصّناعات والتّكنولوجيا، لأنّهم بكل بساطة لم يوفّقوا بين المادة والرّوح وبين حظوظ النفس والروح، وبسبب ذلك سيطرت عليهم الشّهوات الفانية والرّائلة وأصبحوا بذلك عبيدا لنزواتهم وشهواتهم فهاموا في دروب الشّك والحيرة إلى أجل غير مسمّى.

3-الحضارة العربية الإسلامية خالدة: رغم أنّ كثير من الحضارات السّابقة والبائدة مّرة بفترات قوية بسبب قوّتها الاقتصادية والعسكرية إلاّ أنّها لم تصمد طويلا وفنيت وأصبحت أثرا بعد عين أو أصبحت في خبر كان على غرار الحضارة الفرعونية والحضارة البيزنطية والحضارة الرومانية وغيرها من الحضارات، في حين نجد أنّ الحضارة العربية الإسلامية تمتاز عن بقيّة الحضارات بأنّها حضارة خالدة أي باقية إلى يوم القيامة، ولا يمنع خلود الحضارة العربية الإسلامية مرورها بحالات من الضّعف والتّدهور لكنّها سرعان ما تستعيد عافيتها ووجودها من جديد، وقد يقول قائل أنّ الحضارة العربية الإسلامية زالت منذ سقوطها في الأندلس بعد سقوط غرناطة آخر معقل من معاقل المسلمين في بلاد الأندلس وكان ذلك سنة 1492م، فنقول نعم تلك الفترة شهدت

تراجع محسوس للحضارة العربية الإسلامية في بلاد الأندلس لكن في بقية البلاد الإسلامية الأخرى حافظت الحضارة العربية الإسلامية على وجودها وتأثيرها كما كان الأمر عليه سابقا ولو بدرجة أقل، بدليل أنّ أركان الحضارة العربية الإسلامية لم تنمح بل بقيت قائمة رغم حالات الضّعف التي مرّت بها الأمة الإسلامية منذ سقوط الحضارة الإسلامية في بلاد الأندلس.

وتستمد الحضارة الإسلامية هذه الخاصية أي خاصية الخلود والأبدية من الشّريعة الإسلامية أو الدين الإسلامي لأنّ الله عز وجل هو الّذي اختار للبشرية جمعاء هذا الدّين الحنيف الّذي فيه سعادتهم في الدّارين –دار الدنيا ودار الآخرة– وأدلة بقاء الحضارة الإسلامية كثيرة منها القرآن في حد ذاته، فرغم محاولات تحريفه من أعداء الأمة الإسلامية في الدّاخل والخارج فقد تكّفل الله بحفظه ولم يستطع أحدا من الإنس أو الجنس إدخال حرف واحد عليه، وهذه أحد معجزات نبيّنا محمد الّذي أرسله الله عزو وجل للعالمين مؤيّدا بالوحي المبين وهو القرآن الكريم، إذ لا يزال القرآن الكريم إلى يوم الناس هذا باقيا دون تغيير أو تحريف كما أنزل أوّل مرّة على نبينا محمّد صلى الله عليه وسلم في حين تعرّضت الكتب السّماوية الأخرى للتّحريف والتزوير على غرار الإنجيل والتوراة، وما دام الله عزو وجل تولّى حفظ القرآن والسُّنة النبوية فإنّ بشائر بقاء الحضارة العربية الإسلامية لا تحتاج إلى برهان أو استدلال قال الله عز وجل: " **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**"[90]، ومن يتأمّل في معنى هذه الآية يدرك أنّ الدّين الإسلامي هو الدّين الوحيد الذي سيبقى إلى يوم القيامة لأنّ البشر لا حيلة لهم ولا قدرة لهم على إزالة هذا الدّين القويم المؤيّد من عند الله عزو وجل، ومهما حاول أعداء الأمة الإسلامية زعزعة هذا الدّين فإنّهم لا يمكنهم البتّة فعل ذلك، حتّى أنّ بعض

((90)) سورة الحجر الآية 09.

قادة الحروب الصّليبية وقفوا عاجزين أمام عظمة القرآن، ولم يقدروا على إزالة حرفا واحدا منه ولله الحمد.

4-أنّها حضارة إنسانية: فالحضارة العربية الإسلامية هي حضارة إنسانية لأنّها جاءت لتكرّم الإنسان وترفع من شأنه وقدره، قال الله عز وجل "**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا**" [(91)]، وهذا بعكس الحضارات الأخرى الّتي قدّمت المادة على جنس الإنسان فالمال مثلا مقدّم على حياة الإنسان وروحه في الحضارات الغربية، ومهمّة الإنسان عندهم تنتهي بانتهاء مهمّة تحصيل الأموال والأرباح، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ الحضارة العربية الإسلامية تتعامل مع الإنسان بوصفة كائنا عاقلا له حقوق وواجبات دون تمييز ولا تفرقة، فالنّاس متساوون أمام أحكام الشّريعة الإسلامية، وما أرسل الله الرسل والأنبياء إلاّ لرفعة الإنسان وسعادته، فهي من باب أولى تحافظ على حقوق النّاس وتمنع الظلم بينهم، وقيمة الإنسان بقدر التزامه بحدود الشّرع وأبعاد الحضارة الإسلامية.

والإنسان في نظر الإسلام كائن حي خلقة الله عزّ وجل على نحو خاص يختلف عن بقية المخلوقات والكائنات الحيّة، وتبعا لهذه الخاصية والفضيلة التي أكرمه الله بها فقد اختاره الله من بين سائر المخلوقات جميعا ليكون خليفة في الأرض لما يمتّع به الإنسان من قدرة عقلية ونفسية وحسيّة تجعله قادرة على النفع والإفادة ومؤهلّا لتحمّل أمانة التّكليف الإلهي من أوامر ونواهي وحقوق وواجبات، كما كان من تمام نعمة الله على الإنسان أنّه لم يتركه في هذه الدُّنيا يسير على غير هدى، بل أرسل له الرسل ليبلّغونه

((91)) سورة الإسراء، الآية 70.

وحي الله وهديه وشرعه، وكل هذه لمصلحة الإنسان" [92]، وهذا يدل في حقيقة الأمر على حرص الشّارع على سعادة الإنسان وهديه بما يصالح به حاله ومآله.

إنّ الحرص على هداية الإنسان وصلاحه هو أهم جاءت به الحضارة العربية الإسلامية، ومن يتأمّل في تاريخ الفاتحين المسلمين يدرك مدى حرص أولئك الفاتحين على أن يخرجوهم من ظلمات الجهل والظلم والعدوان إلى أنوار العلم والعدل والهدى، ومن يقل إنّ الحضارة الإسلامية جاءت لتحرم الإنسان من حريّته وكامل حقوقه فقد افترى على الله كذبا وبهتانا، وصار أضلُّ من حمار أهله، وإلزام المسلم بالواجبات ليس معناه أن قد ظلم أو قهر بل معانه أنّ له أوامر ونواهي يجب التّوقف عندها وعدم مجاوزتها، وهذه الأوامر والنواهي هي في الأصل خير له وللمجتمع الذي يعيش معه، إذ لم يفرض الله على البشرية شيء لا يطيقونه،قال تعالى: "**لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**..." [93]وقال عليه الصّلاة والسّلام "**إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعم**" [94]، وعليه يتضّح أنّ الحضارة العربية الإسلامية راعت المقاصد الأساسية التي تجعل من الإنسان كائنا عاقلا وعضوا فاعلا في المجتمع الذي يعيش فيه، كما لم تتوانى في احترام خصوصياته وقدراته الإنسانية، وكفى بالإسلام نعمة على الإنسان، وبه يسمو الإنسان إلى أعلى المراتب في الدنيا والآخرة.

5-**أنّها حضارة أصيلة:** معنى أنّها حضارة أصيلة أي هي ليست امتداد لحضارات سابقة أو تابعة لها أو أنّها بنيت على أنقاض حضارات سابقة، بل هي حضارة فريدة

((92)) شهلاء عبد الله عبد القادر، "**الحضارة الإسلامية حضارة إنسانية**"، مجلة مداد الآداب، العراق، العدد 12، 2016، ص497.

((93)) سورة البقرة، الآية 286.

((94)) صحيح البخاري رقم الحديث7288، صحيح مسلم رقم الحديث 1337

ظهرت في أرض الحجاز وبلاد العرب، وهي ليست من اختراع البشر بل أوجدها الله ببعثة نبيّنا محمد صلّى الله عليه وسلم بعكس الحضارات الإنسانية الأخرى التي قد تكون خليط من الحضارات السّابقة أي أنّها حضارة هجينة وغير أصيلة، وما يدل على أنّ الحضارة العربية الإسلامية حضارة أصيلة هو أنّ مصدرها الكتاب والسُّنة النبوية، فهي ليست من صنع أحد ولم يدّعيها أحد، ولذا لا يمكن لأحد أن يفتري على الحضارة العربية الإسلامية بأنّه هو من أوجدها وتكفل بحفظها، ولو كان الأمر كذلك لصارت الحضارة العربية الإسلامية حكرا على شخص ما أو أمّة من الأمم، وهذا بلا شك مناقض لعالمية الحضارة العربية الإسلامية وشموليتها.

وقد كان لهذه الحضارة العربية العريقة في جانبيها السياسي والروحي شخصية فذة ونظم خاصة وتشريعات رائعة تميزها عن سائر الحضارات قديمها وحديثها، فهي تختلف في مبادئها ومذاهبها وعقائدها عن سائر المبادئ والمذاهب والعقائد في العالم، وليست مذاهبها السياسية مستمدة من مذاهب الديمقراطية الغربية —وإن قاله البعض فهذا كذب وزور على الإسلام– ولا أنظمتها الاقتصادية مأخوذة في الأساس من النّظم الرّأسمالية وهي تفوق وتفضل على جميع الأنظمة الوضعية،وهي أول حضارة أعلنت حقوق الإنسان، وحرّرت الناس من العبودية والرّق ومنحتهم مبادئ الحرّية والإخاء، ولا تعترف بالطّبقية الاجتماعية ولا تؤمن بالعنصرية المتطرّفة وإنما هي نسيج قائم بنفسه، ولا يمكن أن تنطبق عليها صفات العقائد والمذاهب الحديثة، ولا يمكن أن تسمّى بمذهب من المذاهب العالمية المعروفة[95] لأنّ كل ما هو حسن في هذه المذاهب سبقها الإسلام إليها، ومن هنا يتضّح لنا جليّا معنى أصالة الحضارة العربية الإسلامية.

((95)) ناجي معروف، **أصالة الحضارة العربية الإسلامية**، الطبعة الثانية، بغداد، مطبعة التضامن، 1969، ص04.

6- الشُّمولية: من خصائص الحضارة العربية الإسلامية كذلك أنّها حضارة شاملة لجميع مناحي الحياة وهي لا تختص فقط بأمور العبادة بل تشمل كذلك أمور الدّنيا والدّين كالمعاملات التجارية والبيع والشّراء وحقوق الإنسان كحق النّفس وحق الجار وحق الزّوجين وحق الوالدين وحقوق الرّاعي والرّعية وحق الحي والميّت وحق الورثة وغيرها من الحقوق، إذ لم تترك الشّريعة الإسلامية شيئا إلاّ وقد نصت عليه سواء في القرآن الكريم أو السُّنة النبوية، ولا شكّ أنّ هذه الخاصيّة لا توجد في مجموع الحضارات الإنسانية السّابقة التي كانت قائمة في الأساس على الجور والظلم والأهواء، لذلك لا تكاد تجد مسلم فهم حقيقة الشّرع والدّين الإسلامي فهما حقيقيا يطلب غيره أو يبتغي به بدلا، بل قد يضّحي بماله ونفسه من أجل إبلاغ الدّين الإسلامي لغيره من البشر لما يعلمه من كمال الشّريعة الإسلامية وصفائها وصلاحها في كل زمان ومكان.

وفي هذا المعنى يذكر الأستاذ الدكتور اسماعيل علي محمد كلاما نفيسا وماتعا بخصوص شمولية الحضارة العربية الإسلامية، ولذلك فقد أردت أن أنقله كما هو لتعميم الفائدة وللاستدلال به على حقيقة شمولية الشّريعة الإسلامية التي ينفيها بعض الطاعنين والمشكّكين في الشّريعة الإسلامية حيث يقول: "**إنّ الشّريعة الإسلامية جاءت مضامينها وتعاليمها شاملة لكل مناحي الحياة وجميع شؤون الخلق الدنيوية والأخروية، فهي ليست تشريعات منزوية في ركن ضيّق ومقصورة عليه، تتولّى علاجه دون غيره، كلاّ، بل إنّها تمتلك منظومة متكاملة لكل ما يتعلّق بالانسان والكون والحياة، وكما أنّها نظّمت علاقة الناس بربّهم، فقد نظّمت علاقتهم**

ببعضهم البعض من اقتصاد وسياسة واجتماع وقضاء وجنايات وتعليم وحرب وسلام، وعلاقتهم بالبيئة وما خلق الله فيها من كائنات...."[96].

ويضيف قائلا: **"لقد روّج العلمانيون أنّ الإسلام لا يملك سوى نظام روحي مقصور على تنظيم العلاقة بين الفرد وربّه فقط بل هو محصور إطار القفص الصّدري للإنسان وغن تجاوز حسبهم فلا يزيد عن جدران المسجد وبيوت العبادة، والحق أنّ من شمّ رائحة العلم ليبرأ بنفسه عن التّرويج لمثل هذا الباطل والزُّور، إنّ هذا الترويج يمكن ان ينطبق على غير الإسلام كالنصرانية الموجودة الآن –المحرّفة– التي تقول أناجيلها أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله...، وغير خاف أن القرآن الكريم وسنّة النبيّ الأمين قد تضمنا الحديث عن سائر الأمور المعاشية وجوانب المعاملات المختلفة بين النّاس ووضع قواعدها وأصولها كالزواج والطلاق والميراث والجوار والأطعمة والأشربة والقضاء والحكم والشُّورى والحدود والمعاهدات والحروب والديات والقصاص والربا والبيع والشّراء**[97].....إلى آخر كلامه".

ويظهر من هذا الكلام أنّ الباحث بيّنّ بأسلوب علمي رصين على شمولية الإسلام لكل مناحي الحياة، وقد عدّد تلك المناحي بشكل عام، ثمّ ردّ على شبهة أنّ الشّريعة الإسلامية تأثيرها ووجودها لا يجاوز المساجد وبيوت الله بأدلة من الشّرع والسّنة وأخرس بذلك ألسنة المشكّكين، ونظرا لطول كلامه فقد اكتفينا بهذا النّزر القليل من كلامه لأنّ غرضنا هو التّأكيد على شمولية الحضارة العربية الإسلامية لكل مناحي

((96)) اسماعيل علي محمد، "**شمولية الحضارة الإسلامية**"، منشورات شبكة الألوكة الثقافية، 2017/03/12.

((97)) اسماعيل علي محمد، المرجع السّابق.

ومجالات حياة الإنسان والموضّحة أساسا في مصادر الشّرع الإسلامي كتاب الله وسنة نبيّنا محمد عليه الصّلاة والسّلام.

7-**أنّها حضارة أخلاقية**: فهي حضارة أخلاقية في مبادئها ومقاصدها وتوجّهاتها، ومن ثمّ فالأخلاق الحسنة تحتل منزلة عالية في هذه الحضارة، وتتجلّى المبادئ الأخلاقية في جميع مناحي الحضارة العربية الإسلامية في العلم والعمل والتّشريع والحرب والاقتصاد وغير ذلك، والشّارع يربط الأخلاق بالعقيدة، وفي هذا الصّدد صحّ عن نبينا محمد صلّى الله عليه وسلم قوله: "**إنّما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**" [(98)].

وهذا الحديث يدل على شدّة اعتناء الإسلام بمكارم الأخلاق، وجاء في حديث آخر قوله عليه الصّلاة والسلام: "**إنَّ أحبَّكم إليَّ وأقربَكم منِّي في الآخرةِ محاسنُكم أخلاقًا وإنَّ أبغضَكم إليَّ وأبعدَكم منِّي في الآخرةِ أساوِئُكم أخلاقًا الثَّرثارونَ المُتَفَيهِقونَ المُتشدِّقونَ**" [(99)]وهذه النّصوص الشّرعية لا تدع مجالا للشّك بأنّ الحضارة العربية الإسلامية قائمة على أسس خلقية متينة، وهي الّتي كانت سببا في إسلام كثير من النّصارى وغير المسلمين أي الأخلاق الحسنة وحسن العاملة، ويمكن القول إنّ حضارة بلا أخلاق كجسد بلا روح وكشجرة بلا أوراق؛ فما فائدة شجرة بلا أوراق ولا ظل وراف، وكذلك الشّأن بالنسبة للحضارة العربية الإسلامية فما فائدتها إذا لم تكن تتّسم بالأخلاق وحسن المعاملة، ولهذا فأعداء الإسلام يريدون أن يصوّرا بأنّ الحضارة العربية الإسلامية هي حضارة وحشية ليصرفوا أوجه النّاس عنها ولكنّهم خابوا

((98)) أحمد المخزنجي، **الحضارة الإسلامية وسطيتها وموقفها من الآخر**، الإدارة العامة للنشر والثقافة، سلسة دعوة الحق، 2007، ص ص 83-84.

((99)) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد 8، والألباني بتمام الحديث في صحيح الترمذي برقم 2018ن وفي صحيح الترمذي زيادة قالوا: يا رسولَ اللَّهِ، قد علِمنا الثَّرثارينَ والمتشدِّقينَ فما المتفَيهقونَ ؟ قالَ: المتكَبِّرونَ.

وخسروا في هذا المسعى الدنيء، فمن دخل الإسلام من الكفّار شهد بحقيقة يسر الإسلام وحسن خلق المسلمين الذي لم يجده في دينه ومجتمعه.

وإليك أيها القارئ الكريم شهادات حيّة من مستشرقين غربيين تثبت لك أنّ الحضارة العربية الإسلامية هي حضارة أخلاقية بالأساس وأنّها لم تكن يوما من الأيام حضارة وحشية أو إرهابية كما يزعم من به مرض نفسي نحو هذه الحضارة الخالدة:

-يقول المؤرّخ الفرنسي الشهير غوستاف لوبون عن الحضارة العربية الإعلامية وهو يعدّد فضائلها: فهم الّذين-أي العرب المسلمين الفاتحين- هذّبوا بتأثيرهم الأخلاقي المميّز البرابرة، وفتحوا لأوروبا عوالم المعرفة العلمية والأدبية والفلسفية التي كانوا جاهلين بها آنذاك، فكانوا محضّرين للغرب وسادة وأئمة لهم على مدار ستة قرون[100].

- وفي موضع آخر يضيف غوستاف لوبون قائلا عن الحضارة العربية الإسلامية وتأثيرها العلمي والأخلاقي: "كلّما أمعنا في دراسة حضارة العرب والمسلمين وكتبهم العلمية واختراعاتهم وفنونهم ظهرت لنا حقائق جديدة وأفاق واسعة، ولسرعان ما رأيتَهم أصحاب الفضل في معرفة القرون الوسطى لعلوم الأقدمين، وإنّ جامعات الغرب لم تعرف لها مّدة خمسة قرون موردًا علميًّا سوى مؤلّفاتهم، وإنّهم هم الّذين مدّنُوا أوروبا مادة وعقلاً **وأخلاقا**، وإنّ التاريخ لم يعرف أمّة أنتجت ما أنتجوه في وقت قصير، وأنّه لم يَفُقْهم قوم في الإبداع الفني"[101].

((100)) نرجس قادرو، "**المدرسة الفرنسية في الاستشراق وموقفها من حضارة المسلمين بين موضوعية غوستاف لوبون وتحزب آرنست رينان**"، مجلة اللغات والدراسات الأدبية، العدد38، فبراير 2024، ص1073.

((101)) عماد عجوة "، **شهادات استشراقية أنصفت الحضارة الإسلامية**"، منشورات شبكة ألوكة، 13ماي2010.

-ويقول برنارد لويس: "أنّ أوروبا شربت من مناهل العلوم العربية التي كانت تتدّفق في الأندلس، إذ أسّس العرب في إسبانيا وصقلية **مدنية زاهرة أرقى بكثير من أيّة مدنية معاصرة لها** في ذلك الوقت في البلاد المسيحية، وهي المدنية التي خلّفت آثارا في المدنيات المسيحية المعاصرة لها " [102]، وفي هذا التّصريح اعتراف صريح بأهمية الدور الأخلاقي والعلمي الّذي تركته الحضارة العربية الإسلامية في نفوس وعقول الأوروبيين.

أمّا عن زيغريد هونكه فهي من أشهر المستشرقين إنصافا للمسلمين والحضارة العربية الإسلامية، حيث صرّحت في معرض حديثها عن الأخلاق السّامية والمميّزة للمسلمين بهذا القول: "**اتّسمت معاملة العرب للأسرى المسيحيين بالحُسنى والنبل والشّهامة، وقد كان ذلك محطّ تقدير واحترام ألمانيين، فهذا أوليفيروس الواعظ والمعلّم الكنسي، والمكلّف بالدّعاية للحملات الصّليبية يكتب رسالة إلى السّلطان الكّامل العام، يقول فيها: «منذ أقدم العصور لم نسمع بمثيل لذلك، جموع من الأعداء تتحلّى بمثل تلك الأخلاق الكريمة تجاه أسراهم.. لا أحد يجرؤ على الشّك بأنّ تلك الأخلاق النبيلة واللّطف والرّحمة والشّفقة هي هبة الله لك، أولئك الرّجال الّذين قتلنا آباءهم وأمهاتهم وأبناءهم وبناتهم وإخوتهم شرّ قتلة، كانوا هم الذين أقرّوا عيوننا وأنعشونا وأحيونا بطعامهم وشرابهم بعد أن شارفنا على الموت جوعا**"[103].

((102)) ميادة ثروت محمد الصغير، "**الدور الاستشراقي في إنصاف الحضارة العربية** "، مجلة العمارة والفنون، العدد10، 2018، ص620.

((103)) أحمد مراد، "**هونكه: الإسلام أعظم ديانة سماحةً وإنصافاً**"، صحيفة الاتّحاد، الإمارات العربية المتّحدة، 15ماي2019.

والحق أنّ أخلاق المسلمين في السّلم والحرب لا تحتاج إلى برهان إنّما فقط تحتاج إلى تقليب صفحات التاريخ التي تنطق بسمو أخلاقهم ورفعتها، وما أكثر الكتب التي تحدّثت عن عدل المسلمين وحسن أخلاقهم، وحتّى أعداء المسلمين كمّا مرّ معنا أقرّوا بسماحة المسلمين وعلو كعبهم في الأخلاق، في حين أنّ الحضارات الإنسانية الأخرى كالحضارة الفرعونية نجد أنّها حضارة قامت على الظُّلم وسفك الدّماء وأخذ حقوق الضُّعفاء وقهرهم، ولذلك لا تكاد تجد شخصا واحدا يثني على الحضارة الفرعونية بل تجده يستاء ممّا فعله الفراعنة بالمصريين في ذلك الوقت من تقتيل وتشريد وسلب لممتلكاتهم وثرواتهم، وهكذا الحضارة الرومانية كذلك فقد كانت هي الأخرى تنام على الظلم وتستيقظ على الظلم ولا همّ لها إلاّ التّوسع في الملك والسُّلطان، وما يقال عن هذين الحضارتين يقال عن بقية الحضارات الأخرى ما خلا الحضارة العربية الإسلامية التي فاقتهم في الأخلاق والتّسامح والتواضع وكفى بهذه الخصال نبلا وفضلا.

8-**أنّها حضارة تمجّد العلم وتدعو إليه وترّغب فيه:** ربّما لا أبالغ إن قلت إنّه لا توجد حضارة على وجه الأرض عنيت بالعلم والدّعوة إليه مثلما عنيت به الحضارة العربية الإسلامية، وإذا كانت الكنيسة في العصور المظلمة تقتل كل عالم يقدّم اكتشافات علمية تدحض أباطيل بعض المفكّرين أو تبيّن أخطائهم وزللهم فإنّ الحضارة العربية الإسلامية كانت تدعو إلى الاستزادة من مختلف العلوم وتعدّ ذلك واجبا عينيا، وأكثر من ذلك كان علماء المسلمين يحظون بتكريم خاص من قبل الأمراء والخلفاء نظير ما يقدّمونه من علوم في شتّى المجالات والتخصّصات، وقد ذكرت كتب التاريخ أنّ العلوم ازدهرت بشكل لافت أثناء الخلافة العباسية، وما ذلك إلاّ بسبب تشجيع الأمراء لحلقات العلم في بغداد والحواضر القريبة منها، حتّى قيل أنّ العالم حينما كان يؤلّف كتابا في فن من الفنون (المقصود بالفن هنا التّخصّص العلمي) يكافئ بوزنه

ذهبا، وهذا ما جعل مدينتي البصرة والكوفة في ذلك الزّمان تزدحم بكثرة العلماء والحلقات العلمية في شتّى مجالات العلم الدّينية والدنيوية.

ولا غرابة في ذلك فقد ورث أهل بغداد حبّهم للعلم والعلماء من الخلفاء الرّاشدين والصّحابة الكرام الذين كانوا يقطعون المسافات الطوال ويبيتون في العراء ويصبرون على الجوع أياما متتابعة طلبا للعلم، وقد كانت هذه البذرة التي غرسها الصّحابة في قلوب المسلمين الأثر البالغ في تعلّق المسلمين بطلب العلم مهما كلّفهم ذلك من صعاب وعرّضهم للخطر. ونتيجة لذلك فقد بنى المسلمون صرح الحضارة العربية الإسلامية على قواعد وأسس العلم، ولم تكن الخرافات والشُّكوك أبد الدّهر سبيلا أو أسلوبا في حلحلة مشكلاتهم التي تطرأ عليهم، بل قد كان المسلمين على مر العصور ينبذون الجهل ويفرّون منه فرارهم من الأسد، لانّهم كانوا يعلمون أنّه لا خلاص لهم من هموم الدُّنيا والآخرة إلاّ بالعلم، وأنّ تفوقهم على باقي الحضارات لا يتحقق إلاّ ببذل النّفس والنفيس والغالي والرّخيص لأجل تحصيل العلوم والمعارف التي ترفع شأنهم وقدرهم بين الأمم، كيف لا وهم المخاطبون بضرورة التّعلم ورفع الجهل عن أنفسهم، بل إنّ أول ما نزل من القرآن باتّفاق العلماء والمفسّرين والمحدّثين قوله تعالى: " **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**"[104]، وفي هذا دليل قاطع على أنّ الحضارة العربية الإسلامية هي حضارة علم قبل كل شيء وليست حضارة خرافات ولا حضارة أوهام وأباطيل.

ومن الشُّبه التي يلقيها بعض الحاقدين والحاسدين على الحضارة العربية الإسلامية أنّها حضارة اقتصرت على الفقه والشّعر والعبادات، وهذا غير صحيح فمن تأمّل واستقرأ تاريخ الحضارة العربية الإسلامية يدرك جيّدا مدى عناية الحضارة العربية الإسلامية بمختلف العلوم إلى جانب العلوم الإسلامية من فقه وعقيدة وحديث، حيث

((104)) سورة العلق، الآية 01.

تفوّق العلماء المسلمين في كثير من العلوم الدنيوية كعلوم الطّب والجراحة وعلوم الهندسة والحساب والفلك إلى جانب علم البصريات وعلم البيولوجيا وغيرها من العلوم الدّقيقة، وقد سبق معنا القول بأنّ الحضارة العربية الإسلامية شملت كل مجالات الحياة سواء تعلّق الأمر بشؤون الدنيا أو ما تعلّق بأمور العبادة والأحكام الشّرعية من حلال وحرام ومكروه ومستحب ومباح، ومثل هذه الشّبه المغرضة لا تجد لها مسلكا وسريعا ما ينكشف بطلانها وزيفها، ولا أحد يمكنه أن يحجب مثل هذه الحقائق على كل عاقل وحكيم سواءً كان مسلم أو غير مسلم مهما حاول ذلك مرارا وتكرارا لأنّ الحق أبلج والباطل لجلج.

9- **أنّها حضارة توازن بين الرّوح والمادة:** هذه من أخص خصائص الحضارة العربية الإسلامية ولايخفى أنّ الحضارة الوحيدة التي استطاعت أن توازن بين الرُّوح والمادة وبين الدُّنيا والآخرة هي الحضارة العربية الإسلامية، وهذا في الحقيقة يعدُّ إنجازا كبيرا من إنجازات الحضارة العربية الإسلامية، وكما يدلُّ كذلك على أنّ الحضارة العربية الإسلامية هي أكمل الحضارات لتوافقها مع الطّبيعة البشرية ولمراعاتها لحاجات الرُّوح والبدن معا، وهذا الّذي يحقّق للإنسان السّعادة النفسية والسّكينة المستدامة، لأنّ الإنسان مركّب من عقل وروح وأعضاء فإذا تمّ إهمال أحدهما حدث خللا وظيفيا بين تلك المكوّنات، والحضارة العربية الإسلامية حرصت على إحداث التّوازن بين تلك المكوّنات وفق قاعدة أعط لكل ذي حقّه كما جاء ذلك على لسان سيدنا سلمان الفارسي في قصّته الشّهيرة مع الصحابي الجليل أبو الدرداء رضي الله عنهما، وهي قصة أولى بالاطّلاع لما لها من فوائد جمّة في هذا الباب.

ووفقا لشريعتنا الإسلامية الغرّاء فإنّ لكل من الرّوح والجسد متطلبّاته التي يجب إشباعها إشباعا يليق بها بلا إفراط ولا تفريط بحسب الحاجة، وفي السُّنة النبوية

أحاديث كثيرة تدل على هذه الوسطية والاعتدال بين حاجات الرُّوح والبدن بلا تكّلف، وقد صحّ عن سيدّ الخلق محمدّ عليه الصّلاة والسّلام قوله: "**إنّ لربّك عليك حقّا ولنفسك عليك حقّا ولأهلك عليك حقّا فأعط كل ذي حقّا حقّه**"[105]، وفي القرآن الكريم كذلك آيات كثيرة تدل وسطية الإسلام في الدّنيا والآخرة، منها قوله تعالى: "**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا**"[106]، حيث دعت هذه الآية إلى ضرورة الموازنة بين حقوق الدُّنيا وحقوق الآخرة وهذا أكمل الإيمان، فكما أنّه لا حياة كاملة بلا إعطاء للجسد حقّه من مأكل وملبس وراحة، فكذلك لا حياة للروح كاملة إلاّ بإعطائها حقّها من التّدبر والعبادة والتزكية والذّكر بصفة عامة وتطهيرها من الذنوب والآثام.

10-**ملاءمتها للفطرة الإنسانية:** لم تظلم الشّريعة الإسلامية -أو الحضارة العربية الإسلامية- الإنسان وكلّفته بما لا يطيق أو بما لا يملك، لأنّ ذلك ينافي كمال الشّريعة الإسلامية ومقاصدها الشّاملة لمختلف جوانب الحياة، بل راعت قدراته وتفكيره ورغباته وحاجاته النّفسية والعقلية والرّوحية، بما يحقّق له الانسجام التام بين مقاصد الدّين و والحاجات الدنيوية كما مرّ معنا ذلك سابقا، والشّريعة الإسلامية كذلك تنسجم مع الفطرة الإنسانية السّويّة والتي مُزجت بين حب الدنيا وحب الآخرة معا، وبين كذلك حب العمل وحب الرّاحة، والانسان يختلف عن سائر المخلوقات بكونه له شعور وإحساس وذوق خاص يجعله كائنا فاعلا ومؤثّرا مع مختلف الفواعل الاجتماعية.

((105)) أخرجه الألباني في صحيح الترمذي برقم 2413، والبخاري في صحيحه برقم 1968.

((106)) سورة القصص، الآية 77.

والذي خلق الإنسان هو الّذي أوحى إلى رسوله محمد عليه الصّلاة والسّلام بهذا الدّين الحنيف؛ بغية إصلاح شأن الإنسان وتنظيم علاقاته مع غيره، وبيان واجباته تجاه خالقه، لذا كانت منطلقات هذه الحضارة لإصلاح الإنسان من داخله، بتلبية حاجاته الفطرية التي أودعها الله سبحانه وتعالى فيه، وتهذيب غرائزه وتنظيمها، والإجابة على تساؤلاته العقلية، وتحريره من الخرافات والأوهام، وإشباع حاجاته الرّوحية، فأدخلت الطمأنينة إلى نفسه وحقّقت له السّعادة والرضا [107] ممّا جعله كائنا يتمتّع بحياة رغدة مكتملة الأركان رغم النقائص والمصائب التي تلحق به بين الحين والآخر.

11- **أنّ مصدرها القرآن والسُّنة:** إنّ ما يجعل الحضارة العربية الإسلامية حضارة مميّزة هي أنّها مستمدة من القرآن والسُّنة وكفى بالحضارة العربية الإسلامية شرفا وفضلا أنّ كلام الله وسنة نبيّنا محمد عليه الصّلاة والسّلام هما دستورها الحقيقي وليس القوانين الوضعية التي توصف بالقصور والضّعف وعدم الصّلاحية لكل زمان ومكان، فانظر مثلا إلى أغلب القوانين الوضعية للحضارات القديمة والحديثة كيف تعدّل كل مرّة وفي كل فترة زمنية محدّدة، وهذا بسبب عجزها لمواكبة التّطورات التي تطرأ على حياة المجتمعات والشّعوب، وهذه هي النقطة الفارقة بين الحضارة العربية الإسلامية وباقي الحضارات الإنسانية التي أغلبها تستمد مصادر تشريعها من القوانين والأعراف التي يتواطأ (يتفق) عليها عادة أعيان المدينة أو البلد.

ولما تمسّك المسلمون بهذين المصدرين المهمّين أعزهم الله على غيرهم ونصرهم على عدّوهم، بل قد علّق الله عز وجل أسباب نصر المسلمين على عدوهم بتحكيم كتاب

((107)) مصطفى مسلم، "**خصائص الثقافة الإسلامية**" انظر إلى الموقع الإلكتروني الآتي: https: //mustafamuslim.net

الله وسنة رسول الله ، قال الله عزّ وجل في محكم تنزيله: " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ** "[108]، ومن ثمّ كيف ينصر الله المسلمين إذا كانوا معطّلين لكتاب الله وسنة رسوله، هذا والله عجب ومن أعظم المحال، لأنّ النّصر الحقيقي للمسلمين ولحضارتهم لا يتحّقق إلاّ بالوقوف عند الأوامر والنواهي التي جاءت في القرآن الكريم والسُّنة والنبويّة، ولما بدأ المسلمون في التهّاون بأحكام الشّريعة الإسلامية ببلاد الأندلس دبّ الضّعف إلى حضارتهم شيئا فشيئا إلى أن تدهورت بشكل كلّي، وصارت بأيدي الإفرنج وحوّلوا كل ما بناه المسلمون في قرون من الزّمن إلى أطلال وإلى حواضر أوروبية لا تمت بصلة إلى الإسلام.

12-**إنّها حضارة معطاءة**: أي أنّها حضارة تمنح أكثر ممّا تأخذ، وأنّها حضارة قائمة على العمل وليس مجرّد الأمل، فالمسلمون لم يتكلّوا على غيرهم في تأمين مختلف حاجاتهم بل شمّروا سواعدهم وأعملوا عقولهم لبناء كل يلزم بناءه من حصون ومستشفيات وجيوش ومساجد ودور العبادة والقضاء والمنشآت العامة من طرقات ومباني ومساكن، وكانوا يأكلون مما يزرعونه، كما برعوا في إتقان العمل وكل لوازم الحياة من زراعة أو صناعة أو تجارة.

ولم يكن المسلمون في العصور الأولى عالة على غيرهم ويتكفّفون موائد الدول المجاورة لهم من مساعدات وصدقات، بل كانوا يتعفّفون حتى عن أخذ الصّدقات خاصة بالنّسبة للأشخاص الأصّحاء والمعافين من العاهات والأمراض المزمنة وهذا أخذا بالحديث النبوي الشّريف الذي يقول فيه عليه الصّلاة والسّلام: **"ما أكلَ أحدٌ طعامًا قطُّ، خيرًا من أنْ يأكلَ من عمَلِ يدِهِ وإنَّ نبيَّ اللهِ داودَ كان يأكلُ من عمَلِ يدِهِ"**

[108] سورة محمد، الآية 07.

[109]، ولهذا ليس من صفات المسلم التّواكل والكسل والبطالة، بل أنّ من صفاته الحقيقية الجد والبذل والعطاء والتّضحية من أجل إعفاء نفسه من ذل المسألة (سؤال غيره أن يعطيه مما رزقه الله)، وهكذا فإنّ من يتأمّل في منجزات الحضارة العربية الإسلامية العظيمة والعديدة يدرك لا محالة أنّها حضارة تعظّم العمل وتحثُّ عليه، وتمقت الكسل وتحذّر منه، بل تعدّه أحد أسباب فقدان الهيبة والعزّة في الدُّنيا والآخرة، ولهذا كان المسلمون الأوائل يحرصون على إعمار أوقاتهم بالعمل وتعلّم المهن والحرف التي تكفل لهم العيش الهنيء والحياة السّعيدة، وصيانة لأنفسهم من الآفات التي قد يدعو إليها الفراغ والبطالة، والحمد لله ديننا كما قلنا متكامل ليس به خلل وإنّما الخلل يكمن فينا نحن، ولذلك من أعظم الظلم أن يقاس الإسلام بالأشخاص ويحكم عليه بتصرّفاتهم الفردية والجماعية إنّما الأشخاص هم الذين يقاسون بالإسلام وبمدى التزامهم بأحكام الشّريعة الإسلامية وتعاليمها.

13-**أنّها حضارة إيمانية عقدية:** من أبرز خصائص الحضارة العربية الإسلامية أنّها حضارة ترتكز على الإيمان بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد عليه الصلاة والسلام نبيا، وهي ليست قائمة على الخرافات والبدع والشّرك بل قائمة على توحيد الله في صفاته وأسمائه وربوبيته، بعكس أغلب الحضارات الإنسانية الأخرى التي إمّا إنّها مشركة بالله أو ملحدة أصلا، وما يجعل الحضارة العربية الإسلامية تنال حظا واسعا من الاهتمام والتأثير هو تنزيهها لله من البدع التي نسبها إليه المبتدعة والمخالفون لمنهج النّبي محمد عليه الصّلاة والسّلام، وتوحيد الله بالدّليل من الكتاب والسُّنة وإجماع سلف الأمة، وهذا يعني أنّ الحضارة العربية الإسلامية هي حضارة صافية العقيدة نقيّة المذهب بعيدة عن التّرف الفكري والشّطط الذي سلكه بعض من ظلّ طريق الهُدى والحق.

((109)) أخرجه البخاري في صحيحه برقم 2072، والألباني في صحيح الجامع برقم 5546.

والأصل أنّ توحيد الله هو أمر فطري يولد الإنسان وهو موقن بداخله أنّ لهذا الكون إله هو الّذي يتصرّف في هذا الكون وليس الطبيعة كما يزعم الشّواذ فكريا من فلاسفة ومفكّرين، ولهذا فقد ثبت عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم قوله: "**كلُّ مولودٍ يولَدُ على الفطرةِ فأبواه يُهوِّدانِه أو يُنصِّرانِه أو يُمجِّسانِه**"[110] فحتّى اليهود والنصارى الأصل فيهم أنّهم يولدون على الإسلام إلاّ أن تأثير والديهم والبيئة التي تعيشون فيها هي الّتي تجعلهم يغيرون عقائدهم وديانتهم من الإسلام إلى دين النصارى أو اليهود أو إلى الإلحاد، كما يدل هذا الحديث أنّ التربية لها أثر بالغ في تمسّك الانسان بعقيدة معينة، ولذا ينصح كثير من العلماء أن يولي الوالدين عناية خاصة بأولادهم للحفاظ على دينهم وعقيدتهم من التّحريف والتّشويه والتبديل التي قد يتعرّضون لها خاصة في هذا الوقت التي كثرت فيه وسائل التكنولوجية الحديثة التي سهّلت عملية نقل الأفكار بين الناس بلا رقيب ولا حسيب.

وعلى العموم فإنّ الأخلاق التي تحلّى بها المسلمين والعقيدة التي التزموها لاسيّما خلال ازدهار الحضارة العربية الإسلامية كانت سببا كبيرا في تقوية شوكة المسلمين وتماسكهم، كما كانت سببا في إدخال الهيبة والخوف في قلوب أعدائهم، وهذا الذي أقّر به أعداء الأمة الإسلامية فقد أقروا أنّ ما يقوّي شوكة المسلمين هو تمسكّهم بدينهم وعقيدتهم المستندة على كتاب الله وسنة رسوله، ولذلك فقد ظلّ المسلمين لقرون طويلة أقوى الأمم، وهذا ليس بسبب تفوّقهم العسكري أو الاقتصادي، وإنّما بقوّة إيمانهم وصفاء عقيدتهم الخالية من الشّوائب والبدع، وبسبب كذلك حسن توكّلهم على الله وإخلاص العبادة لله وحده، وتوهجّ الحضارة العربية الإسلامية مرّده توقف

((110)) أخرجه البخاري في صحيحه برقم، 1358 ومسلم في صحيحه برقم 2658. وابن حبان في صحيحه برقم129.

المسلمين عند حدود الشّرع التي أمرهم بها الله عزّ وجلّ والعمل الدؤوب لإصلاح قلوبهم وسرائرهم والتّشمير على سواعد الجد والعمل حتّى لا يكونوا أمّة مستعبدة من الأمم والحضارات الأخرى.

هذه إذن باختصار أهم خصائص الحضارة العربية الإسلامية مع الإقرار بأنّ خصائصها لا يمكن عدّها ولا حصرها، وقصدنا في هذا الكتاب تبيان أهمها وأبرزها والله هو الموفق وعليه التّكلان.

المبحث الرابع: أبعاد الحضارة العربية الإسلامية

للحضارة العربية الإنسانية أبعادا ومقاصدا تختلف بشكل كبير عن باقي الحضارة الإنسانية، وبالنّظر إلى خصائص الحضارة العربية الإسلامية المتعدّدة فإنّه بالإمكان الإشارة إلى أهم تلك الأبعاد على النحو الآتي:

1-البعد الدّيني: المتمّعن في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية يدرك بلا أدنى شك أنّ الحضارة العربية الإسلامية جاءت في الأصل لتعلّم الناس أمور دينهم وعقيدتهم وتشرح لهم أصول الدّين وأركانه الأساسية كما أوضحها النّبي محمد عليه الصّلاة والسّلام وصحبه الكرام بلا نقصان ولا زيادة وبلا تحريف ولا تأويل، أي تبليغها للناس وفق ما أمر به الشّارع الحكيم ونبيّه الأمين محمد عليه صلوات ربي وسلامه عليه، بل إنّ الدّين الإسلامي هو الرّكن الركين للحضارة العربية الإسلامية، ولو لا الدّين الإسلامي لما وصلت الحضارة العربية الإسلامية إلى هذه المرتبة العالية والفريدة التي لم تبلغها أي حضارة إنسانية أخرى مهما بلغت أعلى درجات التّقدم والتّطور .

والدّين الإسلامي هو الذي رفع مقام المسلمين واللّغة العربية بين الأمم وجعل حضارتهم تحظى بالاهتمام والدراسة من قبل المفكرين والفلاسفة والباحثين غير المسلمين كالفلاسفة والمفكرين الغربيين، وهذا يدل على أهمية الدين الإسلامي في استقطاب جموع الناس وأفرادهم وتأثيره في قناعاتهم، بل أنّ كثير من الكفّار والملحدين تأثروا بشكل واضح بما كشفه علماء الحضارة العربية الإسلامية من حقائق علمية لم يستطيعوا هم الوصول إليها رغم كثرة بحوثهم المبنية على الملاحظة والتجربة، حيث سبقهم الدّين الإسلامي بقرون من الزّمن في الوصول إلى كثير من الحقائق العلمية التي عجزوا عن فهمها وإدراك حقائقها العلمية.

والحقيقة أنّ الدّين الإسلامي هو الّذي جعل حدود الحضارة العربية الإسلامية تمتد لتشمل القارات الخمس بدون استثناء، حيث لم يبق شبرا من الأرض إلاّ وصله الإسلام بفضل ما قدّمه المسلمون من إنجازات علمية في مختلف المجالات، وبفضل الأخلاق التي تحلّى بها المسلمون أينما حلّوا وارتحلوا،ولذلك عمل المسلمون على تصفية الدّين الإسلامي من مختلف الشّوائب التي ألصقها به أدعياء الإسلام، وبعد بحوث مطوّلة أجراها العديد من المفكّرين والباحثين المنتسبين إلى الحضارة الغربية توصلوا إلى القول بأنّ الحضارة العربية الإسلامية هي أرقى حضارة إنسانية على وجه الأرض، وما ذلك إلاّ بسبب الأخلاق النّادرة التي عرف بها المسلمون كالصّدق والأمانة وحسن الجوار وإتقان العمل والوفاء بالعهد التي كانت منتشرة بين المسلمين آنذاك، والدّين الإسلامي الحنيف هو الّذي أمر المسلمين بهذه الأخلاق الفاضلة في وقت السّلم والحرب وفي السّر والعلانية، ولما كانا القرآن والسّنة النبوية هما دستور الأمّة الإسلامية صارت الحضارة العربية الإسلامية هي مضرب المثل في القيم والأخلاق والسّلم والأمن، لأنّ الدّين الإسلامي في الأصل هو دين أمن وسلام ودين أخلاق وسلوك، كما أنّه دين يجعل من الإنسان محور اهتمامه لذلك أرسل الله الأنبياء والرسل ليبيّنوا لهم طرق الهدى وسبل الحق ليسعدوا في الدنيا والآخرة.

2- **البعد الأخلاقي**: لقد كان العرب في الجاهلية وقبل بعثة النبي يعيشون في بيئة يسودها الظلم وعبادة الأوثان والخمر وكل أعمال الجاهلية التي يكثر عدّها، ولم يكن العرب يوصفوا في ذلك الوقت بأنّهم مجتمع راقي ومجتمع متحضّر، بل كانوا يوصفون بالهمجية والرُّعونة وقلة العقل وكثرة الطيش، ولما بعث نبينا محمّد صلّى الله عليه وسلّم في مكّة المكرّمة أمرهم بالصّدق والأمانة وعبادة الواحد الواحد وصلة الأرحام والإحسان إلى الجار وغيرها من فضائل الأخلاق، كما نهاهم عن عبادة الأصنام والظلم

وشرب الخمر وسفك الدّماء وعقوق الوالدين وغيرها من الكبائر والأخلاق السّيئة، وهذا ما جعل كثير من العقلاء لا يتوانون في الدّخول إلى الإسلام بدون إكراه بل قد دخلوا الإسلام اقتناعا منهم بأنّه دين حق وليس من اختراع إنسان كما كان يزعم صناديد الكفر الذين حاربوا في ذلك الوقت دعوة سيّدنا محمد عليه الصّلاة والسّلام.

والحضارة العربية الإسلامية ما سادت ووصلت إلى ما وصلت إليها من رقي وازدهار وهيبة إلاّ بسبب الأخلاق الفاضلة التي تحلّى بها المسلمين، ونبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم كان يأمر الصّحابة رضوان الله عليهم بمكارم الأخلاق والأحاديث في هذا الباب كثيرة جدا لا يمكن تتبعها جميعا، وهذا يدل على حرص الإسلام والحضارة العربية الإسلامية على تعزيز الأخلاق بين المسلمين لأنّها هي أكثر سلاح يجعل الكفار يدخلون إلى الإسلام أفواجا، ويقتنعون بأنّه دين حق وليس دين باطل.

والتّاريخ الإسلام يؤكّد لنا إسلام بعض اليهود —مع العلم أنّ اليهود معروف عنهم حقدهم الشّديد للإسلام والمسلمين و قليل منهم من يدخل في الإسلام- بسبب موقف أخلاقي لبعض الصّحابة أو التابعين، وهذا في الحقيقة يدلُّ على أنّ تأثير الأخلاق الحسنة في غير المسلمين تكون في الغالب سببا في دخولهم إلى الإسلام، ولذلك فقد تعرّض كثير من العلماء والدُّعاة للعديد من المواقف المحرجة واستطاعوا بفضل أخلاقهم وصبرهم أن يبرهنوا للعالم بأسره على سماحة الإسلام ونبل أهدافه ومقاصده، وحتّى أعداء الحضارة العربية الإسلامية تراهم يقرّون بأنّ الحضارة العربية الإسلامية أنتجت جيلا فريدا من البشر لا تكاد تجد لهم نظيرا في الحضارات الأخرى لما تميّزوا به من أخلاق نادرة.

وبالمقارنة مع الحضارات الإنسانية الأخرى كالحضارة الغربية نجدها لا تقيما وزنا للأخلاق، وليس للإنسانية أدنى قيمة في تلك الحضارة، فالمقدّم في الحضارة الغربية هي المادية والملذّات وحظوظ النّفس وليس القيم الأخلاقية لذلك فحضارتهم جافّة ولا تشعر فيها بالراحة النفسية، فقد تجد راحة في الجانب المادي المتقدّم بسبب التّطور التكنولوجي التي وصلت إليه تلك الحضارة في وسائل النّقل والإطعام والاتّصال والتعليم والخدمات العامة ومختلف مناحي الحياة ولكن لا تجد الرّاحة النفسية، ولذلك تجد الدول الغربية الأشد تقدّما هي أكثر الدول التي يعاني شعبها من الاضطرابات النّفسية والأمراض العقلية بسبب طغيان الماديات وتغليب حاجات الجسد على حاجات الرُّوح.

وإذا أراد المسلمين عودة حضارتهم قوية كما كانت عليه في السّابق فلا بدّ من التّركيز على إصلاح نفوسهم وتهذيبها وفق ما أمر به الشّارع الحكيم ونبيه الأمين محمد عليه أفضل صلاة وأزكى تسليم، لأنّ سر قوة الحضارة العربية الإسلامية والمسلمين بصفة عامة تكمن في أخلاقهم لا في قوتهم البدنية أو الاقتصادية أو العسكرية، فالحضارة في الأساس هي أخلاق قبل كل شيء، وما وصلت إليه الحضارة العربية الإسلامية من توسع جغرافي كان بفضل جهاد المسلمين لأنفسهم وحسن توكّلهم على الله وإخلاص الدّعوة إلى الله وحده سبحانه وتعالى وامتثال أمر نبيهم دون مجاوزة ذلك قدر شبر، فهذه هي الحضارة الحقّة وليست الحضارة تقدّم مادي فحسب بل لابدّ أن يمزج التّقدم المادي بالمحافظة على القيم الخلقية والانسانية التي تنقل الانسان من عالم الشّر إلى عالم الخير، ومن التّنافس على الدنيا إلى التنافس كذلك على الآخرة وأعمال البر.

3-البعد الأمني: ممّا تهدف إليه الحضارة العربية الإسلامية هو جعل العالم كلّه يعيش في أمن وأمان وسلامة ووئام، وهذه الأبعاد هي من المقاصد الكبرى للشّريعة الإسلامية

بشكل عام، وقد أُثر عن نبيّنا محمّد عليه الصّلاة والسّلام أنّه كان يدعو كلّما رأى هلال شهر جديد من الأشهر الهجرية بالأمن والبركة على الأمّة الإسلامية قاطبة: فقد جاء عن طلحة بن عبيد الله أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ كانَ إذا رَأى الهلالَ قالَ: "**اللَّهمَّ أهلِلهُ علَينا باليُمنِ والإيمانِ والسَّلامَةِ والإسلامِ ربِّي وربُّكَ اللَّهُ**"[111]، وانظر كيف كان نبيّنا محمد عليه الصّلاة والسّلام يحرص على الدّعاء باليّمن والبركة والسّلامة لكل مسلم على وجه الأرض، وهذا يدل دلالة قطعية أنّ ديننا دين يسر ودين أمن، وليس دين حروب وإزهاق للأرواح كما يزعم الأفّاكين على هذا الدّين والمرجفون في كل زمان ومكان، و في المقابل انظر كيف أدخل الدول الغربية العالم في حروب طاحنة أبادت كل أخضر ويابس مثلما حدث في الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية التي راح ضحيتهما الملايين من البشر، ففي يوم واحد سقط الآلاف من القتلى في ناكازاكي وهيروشيما فقط بسبب القنبلتين التي ألقتهما الولايات المتّحدة الأمريكية على هاتين البلدتين التابعتين لدولة اليابان.

ولهذا فلا يوجد دين حرص على عدم سفك دماء النّاس كالدّين الإسلامي، كما لا توجد حضارة إنسانية حرصت على حفظ أرواح البشر كالحضارة العربية الإسلامية، ولذلك لما عرف بعض العقلاء من غير المسلمين حقيقة هذه الحضارة وما تدعو إليه دخلوا الإسلام أفواجا عن قناعة لا عن إكراه، لأنّهم أيقنوا بأنّ دين الإسلام يدعو إلى حفظ النّفس والروح، بل قد جعل حفظ الرّوح أو النّفس أحد الكليّات الخمس للدّين الإسلامي، ولم يتسامح الدّين الإسلامي أبدا في قتل أرواح المسلمين أو من دخلوا في الإسلام؛ بل حتّى أرواح أهل الذّمة وعد ذلك من كبائر الذنوب والمعاصي، وفي قصة أسامة بن زيد في قتل من نطق بالشّهادة خير دليل على حرمة دماء المسلمين، وإليك

((111)) أخرجه الألباني في صحيح الترمذي برقم3451.

القصة بتفاصيلها، فعن أُسامةَ بنِ زَيْدٍ رضي الله عنهما قَالَ: بعثَنَا رسولُ الله ﷺ إِلَى الحُرَقَةِ مِنْ جُهَيْنَةَ، فَصَبَّحْنا الْقَوْمَ عَلى مِياهِهِمْ، وَلَحِقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ رَجُلًا مِنهُمْ، فَلَمَّا غَشيناهُ قَالَ: لا إِلهَ إِلَّا الله، فَكَفَّ عَنْهُ الأَنْصارِيُّ، وَطَعَنْتُهُ بِرُمْحِي حَتَّى قَتَلْتُهُ، فَلَمَّا قَدِمْنَا المدينَةَ بلَغَ ذلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ لِي: يَا أُسامةُ! أَقَتَلْتَهُ بَعْدَمَا قَالَ: لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ؟! قلتُ: يَا رسولَ الله إِنَّمَا كَانَ مُتَعَوِّذًا، فَقَالَ: أَقَتَلْتَهُ بَعْدَمَا قَالَ: لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ؟! فَما زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذلِكَ الْيَوْمِ[112].

وهذا هذا الحديث يدل على حرمة دماء المسلمين من جهة، كما يدل من جهة أخرى على حرص الإسلام على حماية الأنفس من القتل بغير موجب شرعي يفضي إلى ذلك، ولو لم تضبط هذه الأمور بضابط شرعي لصار القتل بين المسلمين أسهل من شربة ماء أو شربة عسل، والحمد لله فالإسلام شرع متكامل ونظام شامل يحقّق الأمن والاستقرار للبشرية كافة، ولذلك فقد عاشت البشرية أسعد لحظاتها لما كانت الحضارة العربية الإسلامية مزدهرة وحينما كان يقودها خير البشرية في ذلك الوقت، وقد كان النّاس في تلك الحقبة الذّهبية يأمنون على أنفسهم وأموالهم من الظُّلم والسّرقة بسبب نظام العدل الّذي ساد في ذلك الوقت، وبسبب الأخلاق السّامية التي تحلّى بها المسلمون آنذاك.

4- البعد الثقافي: منذ نشأة الحضارة العربية الإسلامية وهي تسعى جاهدة لترسيخ ثقافة الاحترام والتّسامح بين الخلق، وليس المقصود بالتّسامح هنا التّميع وقبول كل الأديان، وإنّ المقصود بالتّسامح هنا عدم العنف في الدّعوة إلى الحق وإلى الطّريق المستقيم الذي دعا إليها نبيّنا محمد صلّى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء والرّسل عليهم

((112)) حديث متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه برقم 4269 ومسلم في صحيحه برقم 96.

السّلام، فديننا الإسلام يدعو إلى ترسيخ ثقافة الرّفق والصّبر على الأذى، وفي قصة عائشة مع النبي خير دليل على مدى اعتناء الإسلام بأسلوب الرّفق في الدّعوة والصّبر على أذى الكفّار،حيث جاء في الصَّحيحينِ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قدْ حثَّ عائشةَ رَضيَ اللهُ عنها على ذلكَ لَمَّا رَدَّتْ به على اليهودِ حينَ استأذَنوا على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَقالوا: «السَّامُ عليكَ» بدلًا من «السَّلامُ عليكَ»، والسَّامُ هو الموتُ، فقالتْ عائشةُ رَضيَ اللهُ عنها: بلْ عليْكم السَّامُ واللَّعْنةُ. فأمرَها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالرِّفقِ وعَدمِ الغَضبِ والقَسوةِ، وقال لها مخاطبا: يا عائِشَةُ إنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، ويُعْطِي علَى الرِّفْقِ ما لا يُعْطِي علَى العُنْفِ، وما لا يُعْطِي علَى ما سِواهُ[113].

وفي هذا الحديث يرشد الحبيب المصطفى خير البريّة محمد صلوات ربي وسلامه عليه أمّنا عائشة بخلق الرّفق والأناة في الدّعوة إلى الله، حيث أمرها عليه الصّلاة والسّلام بالتزام الرّفق في الرّد على الكفّار رغم أنّهم يختلفون معه ومعها في الدّين والعقيدة. والمسلم لا يجاري الكافر في الرّد عليه بالألفاظ غير اللائقة، كما أنّ المسلم مطالب بأن يكون مختلفا في السُّلوك والآداب عن الكافر، وما فائدة أن يكون المسلم مسلما وهو لا يلتزم بآداب الدّين الإسلامي، وهذا الإرشاد منه عليه الصّلاة والسّلام ليس موجّه لأمّنا عائشة فحسب بل هو موجّه للأمّة الإسلامية جمعاء بلا استثناء، ولذلك من غير المعقول أن يظهر المسلم الفحش في القول عند الخصومة او الاختلاف في الرّأي بل عليه أن يصبر ويتحمّل الأذى قدر الإمكان، ولهذا فقد عرّف حسن الخلق بأنّه كف الأذى وبدل النّدى.

وممّا تصبو إليه كذلك الحضارة العربية الإسلامي في بعدها الثّقافي هو إظهار شعائر الإسلام بلا خجل ولا حياء فليس من الدّين أن يستحي المسلم أن يلبس اللّباس

((113)) أخرجه البخاري في صحيحه برقم 6927، ومسلم في صحيحه برقم 2593.

الشّرعي أمام الكفّار أو أن يستحي أن يصلي أمامهم أو يخاف بأن يقول بأنّه مسلم وعقيدته هي عقيدة السّلف الصّالح من لدن نبيّنا محمد صلّى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا، وقد رأينا كيف يحرص الكفار على إظهار شعائرهم في أعيادهم بدون أي حساب للطرف الآخر الّذي يختلف معهم في ديانتهم، فلماذا نخشى نحن إذن إظهار شعائرنا الإسلامية، والمسلم الحق هو الّذي يظهر عقيدته بدون وجل ولا خجل؛ بل يعتز بقوله أنّي مسلم، وأنّني أنتمي إلى مجتمع مسلم يؤمن بالله ربّا وبالإسلام دينا وبمحمد عليه الصّلاة والسلام نبيّا، هذه هي الثقافة الإسلامية التي ينبغي أن تحيا بين المسلمين لاسيّما في هذا العصر الّذي يحاول فيه أعداء الإسلام أن يطمسوا الإسلام من قلوب المسلمين، وأن يلغوا العمل بأحكامه إلى الأبد.

5- البعد الاجتماعي: من الأبعاد المهمّة جدا للحضارة العربية الإسلامية هي توحيد المسلمين وجعلهم لحمة واحدة ومتعاونين فيما بينهم في أوقات الشدّة واللّين، ولذلك جاء النّهي الشّديد في ديننا على تفرّق المسلمين إلى جماعات متفرّقة تتجاذبها الأهواء و تعصف بها المصالح الضيّقة والمحدودة الأثر والنفع، فقوة المسلمين في تجمّعهم لا في تفرّقهم، ولذلك يحرص دائما أعداء الأمة الإسلامية من اليهود والنصارى ومن شايعهم ولف لفّهم على اتّباع سياسة فرّق تسد كلّما أرادوا نهب خيرات أحد الدول الإسلامية أو أحد حواضر الأمة الإسلامية، ولذلك فقد قسّموا البلاد الإسلامية إلى دويلات عديدة من أجل إحكام السّيطرة عليها، ومن أجل فصل الأمة الإسلامية عن بعضها البعض، حتّى إذا احتلّت أحد البلاد الإسلامية لا تستطيع البلاد الإسلامية الأخرى الدّفاع عن تلك المنطقة أو ذلك البلد، وهو ما يحصل اليوم في دولة فلسطين بشكل دقيق وواضح، ونفس الشّيء بالنّسبة إلى دولة السودان الشّقيقة التي قسّمت إلى دولتين بغية جعلها دولة غير آمنة ومستقرّة وضعيفة في كل المجالات الحيوية.

وللأسف حينما يحذّر البعض من الفرقة والاختلاف المنبوذ بين المسلمين تتعالى أصوات من هنا وهناك تصف من يقول بهذا القول بالتشدّد زعما منهم أنّ الاختلاف يفضي إلى تعدّد الآراء والديمقراطية، وما علموا أنّ الديمقراطية أكبر فرية عرفها هذا الزّمن، وأنّها أكبر عائق يمنع من وحدة المسلمين في هذا الزمن، لأنّها مبينة في حقيقة الأمر على المصالح الضيقة وازدواجية المعايير، ولم تُبن يوما على الأخلاق والدّين، لذلك فكثيرا ما تنشر العداوات والإحن بين الجماعات المتحزّبة بسبب تضارب مصالحهم ورؤاهم السياسية والاقتصادية، ولذلك اعتبر "**ونستون تشرشل**" رئيس وزراء بريطانيا الديمقراطية بأنّها أسوأ نظام عرفته البشرية. والأصل أنّ المسلمين يجمعهم كتاب الله وسنة رسولهم وليس الديمقراطية المزعومة، ومتى ترك المسلمون أسباب عزّهم وقوّتهم وانساقوا وراء المذاهب السياسية الغربية فلن يحصل لهم أيّ تفوّق أو تقدّم في شتّى المجالات وميادين الحياة.

ومن أبعاد الحضارة العربية الإسلامية كذلك هي التّكافل الاجتماعي بين المسلمين بحيث لا يترك الفقير يكابد هموم الدُّنيا لوحده؛ بل على المسلم أن يؤازر أخيه المسلم في السّراء والضّراء، وأن يظهر له المودة والإعانة كلّما دعت الحاجة إلى ذلك، وحضارتنا الإسلامية عرفت منذ نشأتها بهذا الخلق العظيم، حيث كان المسلمين لا يتخلّون عن بعضهم البعض في أوقات الشّدة والعسر، فقد كان الواحد منهم يقدّم حاجة أخيه المسلم على حاجته ولو أدّى به ذلك إلى هلاكه مثلما كانوا عليه في أوقات الحروب والغزوات حيث كانوا يؤثرون أن يشرب إخوانهم على أنفسهم وهم في أمس الحاجّة إلى الماء، وبهذا الخلق النادر استطاع المسلمون أن يدّكوا عروش صناديد الكفر في ذلك الزّمن من الفرس والرومان واليهود وغيرهم من الكفّار والملحدين والظالمين.

6- البعد الاقتصادي والعسكري: لا يقل البعد الاقتصادي للحضارة العربية الإسلامية أهمية من الأبعاد السّالفة الذكر، وحتّى يكون للمسلمين كلمتهم ويسمع لهم في المحافل الدّولية حرصت الحضارة العربية الإسلامية على تقوية اقتصادها من أجل تحقيق أمنها الغذائي وقوتها اليومي، وذلك من خلال الاهتمام بتطوير الزّراعة وعلومها، ومن خلال كذلك زيادة المنتوجات الزّراعية والصّناعية والغذائية، وتقوية الجانب الاقتصادي له دور كبير في تحقيق عزّة المسلمين وحماية سيادتهم من التّآكل والضّعف، والأمّة التي تبني اقتصادها بسواعد أبنائها تكون أمة مهابة ويحسب لها ألف حساب، ولا يخشى عليها من طلب الهوان والذل وطلب المساعدات الإنسانية من غيرها.

ونفس الشّيء بالنّسبة للجانب العسكري فقد حرص أمراء الدّولة الإسلامية على تقوية قدراتهم القتالية والعسكرية من أجل حماية جناب الدّولة الإسلامية من جميع المخطّطات العسكرية لأعداء الأمّة الإسلامية، وقد أبان المسلمين في الفتوحات الإسلامية على خبرة كبيرة في مقاتلة العدو، وفي التّخطيط العسكري لدحر العدو لاسيّما في فترة تولّي الصّحابي الجليل خالد بن الوليد رضي الله عنه زمام الحروب العسكرية، وهو ما ترك هلعا كبيرا في قلوب أعدائهم وجعل باقي الأمم تحسب لهم ألف حساب لمواجهة الجيوش الإسلامية، فالحاصل إذن أنّ القوة العسكرية والقوة الاقتصادية لهما دوران كبيران في تقوية شوكة المسلمين وحماية مكتسبات الأمة الإسلامية المادية والمعنوية والجغرافية ولذلك حرص الإسلام على تعزيزهما والاهتمام بهما بشكل كبير.

والحق أنّ الحضارة العربية الإسلامية ما عرفت الإنهيار إلاّ بسبب تهاون المسلمين في هذين الجانبين المهمّين اللّذين نعدّهما من أقوى أسباب التّمكين للأمة الإسلامية وللشّعوب الإسلامية في جميع الأقطار والأوطان، ومن ثمّ فنحن بحاجة إلى إعادة النّظر في المخطّطات الاقتصادية والعسكرية والأمنية ، وهذا حتّى نحقق استقرارا سياسيا وأمنيا

وأقتصاديا وعسكريا في أوطاننا، وخاصة في هذا الوقت التي كثرت فيه التّهديدات على البلاد الإسلامية من كل جانب.

الفصل الثالث:

تفاعل الحضارة الإسلامية مع باقي الحضارات وأبرز إنجازاتها الفريدة

الفصل الثالث: تفاعل الحضارة الإسلامية مع باقي الحضارات وأبرز إنجازاتها الفريدة

حرّيٌ بنا نحن المسلمون أن نرفع رؤسنا عالية في السّماء ونفتخر بديننا الإسلامي وحضارتنا الإسلامية الفريدة من نوعها، و المفعمة بلا شك بالإنجازات المتعدّدة، والّتي شملت مختلف مجالات الحياة، حيث امتدت تلك الإنجازات لتشمل وتعمّ كل أقطار الدنيا بما فيها الأقطار غير الإسلامية، وهذا في الحقيقة يشهد على صدق هذا الدّين وشموليته وعلى صموده القوّي أمام جميع التيّارات التي تريد تشويه سمعة الإسلام والمسلمين، وقد قيّض الله رجالا نصروا هذه الحضارة وهم ليسوا من أبناء جلدتنا[114] ولا ينتمون إلى وطننا الإسلامي ولا يتكلّمون باللّسان العربي المبين، وهذا في الحقيقة يُنبئ عن صدق الشّريعة الإسلامية وسمو مبادئها وشرائعها ومقاصدها، وإلاّ كيف يذوذ عنها من لم يعش مع العرب ولا ينطق بلسانهم ولا يعرف عن حالهم إلاّ القليل.

وربّما هذا الّذي جعل المؤّرخ والطّبيب والمستشرق الفرنسي "**غوستاف لوبون**"[115] يفصح عن أسبقية الحضارة العربية الإسلامية وقوة تأثيرها في بقية الأمم،

((114)) **ملاحظة:** لا يفهم من هذا القول عزل العرب أو أقصائهم من مجمل انجازات الحضارة العربية الإسلامية، وإنّما قصدنا هنا التّأكيد على حقيقة أنّ الله عزّ وجل أعزّ هذا الدين بالعرب وغيرهم من العجم الذين برعوا في مختلف علوم الدين والدنيا، والذين كرّسوا حياتهم لنصرة هذا الدين، والدّفاع عنه بألسنتهم وأقلامهم وسواعدهم.

((115)) **غوستاف لوبون** (7 مايو 1841 – 13 ديسمبر 1931):)(Gustave Le Bon طبيب ومؤرخ فرنسي. عمل في أوروبا وآسيا وشمال أفريقيا. كتب في علم الآثار وعلم الإنثروبولوجيا وعني بالحضارة الشرقية. من أشهر آثاره: حضارة العرب، وحضارات الهند، و«باريس 1884» و«الحضارة المصرية» و«حضارة العرب في الأندلس» و«سر تقدم الأمم» و«روح الاجتماع» الذي كان إنجازه الأول. هو أحد أشهر فلاسفة الغرب وأحد

وهو في الحقيقة من أنصف المستشرقين الغرب للحضارة العربية الإسلامية والتراث العربي الإسلامي بصفة عامة، حيث قال: "**إنّ حضارة العرب والمسلمين قد أدخلت الأمم الأوروبية المتوحشّة في عالم الإنسانية، فقد كان العرب والمسلمين أساتذتنا**"[116] فيا له من كلام يكتب بماء الذّهب ويحفظ في سجل التّاريخ الإسلامي المشرق والناصع بالإنجازات المادية والمعنوية، وفي هذا الفصل سنتعرّض بشيء من الدقّة والموضوعية إلى كل ما قدّمته الحضارة العربية الإسلامية لباقي الحضارات التي لا تقاسمها نفس الدّين ونفس العقيدة والفكر، والحق أنّ الحضارة العربية الإسلامية يقرّ بفضلها وأسبقيتها كل عاقل ومن له بصيرة ثاقبة، ومن باب أولى كل من يبغي الخير للبشرية لأنّها الحضارة الوحيدة التي سمت بالإنسان إلى مصاف العقلاء وجعلتهم يشعرون بالهدوء النّفسي والوجداني.

وهذا ما يبحث عنه كل إنسان اتّصف بالحكمة والعقل والرّزانة، وتجدر الإشارة هنا أنّنا حينما نتحدّث عن انجازات الحضارة العربية الإسلامية لا يعني هذا البتّة أنّ بقيّة الحضارات لم تقدّم شيئا للبشرية، أو لم تسهم في مختلف مجالات العلوم والمعارف والصنائع والمهن، لكنّنا أردنا أن نؤكّد للعام والخاص أنّ انجازات الحضارة العربية الإسلامية تختلف عن تلك الانجازات من عدّة نواحي وهو ما سنذكره لاحقا، و على العموم فحتّى الحضارة العربية الإسلامية هي الأخرى قد استفادت من الحضارات الأخرى لكن في جوانب محدودة تتعلّق فقط بأمور الدُّنيا وشؤونها، وهذا ما سنبيّنه بوضوح في ثنايا هذا الفصل وأجزائه.

الذين امتدحوا الأمة العربية والحضارة الإسلامية. لم يسر غوستاف لوبون على نهج معظم مؤرخي أوروبا، حيث اعتقد بوجود فضلٍ للحضارة الإسلامية على العالم الغربي.

((116)) بكري معتوق عساس، "**غوستاف لوبون...الحق ما نطقت به الأعداء**"، مجلة المدينة، المملكة العربية السعودية، 28أوت 2024.

المبحث الأوّل: إسهامات الحضارة العربية الإسلامية وأبرز مظاهرها

إنّ الحديث عن إسهامات الحضارة العربية الإسلامية خلال الأزمنة السّابقة والغابرة لا يعني البتّة أنّ إنجازات الحضارة العربية الإسلامية قد توقفت بسقوط الحضارة العربية الإسلامية، بل العكس لا تزال انجازاتها قائمة ولله الحمد،والعالم الغربي الّذي بلغ شأوا كبيرا في العلم التّجريبي والدّقيق لا يزال بحاجة إلى علوم المسلمين في تفسير كثير من الظواهر العلمية التي عجزوا عن فهمها وإدراكها، وما دام العلم الوضعي له حدودا معيّنة لا يستطيع تجاوزها مهما بلغ العقل الإنساني أعلى درجات التّطور، فإنّ الشّريعة الإسلامية من خلال أهم مصادرها تجيب عن كثير من الإشكالات العلمية التي عجز فيها العقل البشري عن إيجا تفسير علمي لها، ومن هذا المنطلق ندرك أهمية الحضارة العربية الإسلامية وإسهاماتها الكبيرة جدا في مجال العلوم والمعرفة والبحث العلمي.

والحقيقة أنّه من غير الممكن أن نتحدّث عن جميع إسهامات الحضارة العربية الإسلامية في هذا السّفر(الكتاب) المتواضع لأنّ ما قدّمه العلماء المسلمون على مرّ التاريخ يصعب حصره وعدّه وتتبّعه، ذلك أنّ علماء الحضارة الإسلامية كانوا يتميّزون بالجمع بين عدّة علوم وتخصّصات علمية، وهو ما لم يحصل في الحضارات المعاصرة أين تجد العلماء يقضون أعمارهم في تعلّم فنّا واحدا(تخصصّ علمي) ومع ذلك لا يستطيعون بلوغ ما وصل إليه علماؤنا المسلمون من علوم ومعارف دقيقة، وهذه ليست مزايدات؛ بل هي حقائق علمية لا يمكن حجبها علينا.

وعلى العموم سنحاول –بإذن الله وتوفيقه– تقديم المجالات العلمية التي أسهم في تطوّرها العلماء المسلمون، مركّزين فقط على أهم الأبحاث العلمية التي قدّمها العلماء المسلمون وبرزوا فيها وتفوّقوا فيها على علماء الدُّنيا في ذلك الزّمان.

أوّلا– في الطّب والتّطبب (العلاج الطبّي): قبل أن أسوق للقارئ الكريم إسهامات العلماء المسلمون في مجال علوم الطّب يحسن بنا أن نورد هذا الكلام النّفيس لأحد المهتمين بالتاريخ الإسلامي والحضارة العربية الإسلامية وهو يتحدّث عن إنجازات المسلمون في هذا المجال حيث صرّح بقوله: " **يعد علم الطّب من أوسع مجال العلوم الحيايتة (الدنيوية)التي كان لعلماء المسلمين فيها إسهامات بارزة على مدار عصور حضارتهم الزاّهرة، وكانت تلك الإسهامات على نحو غير مسبوق شمولا وتميّزا وتصحيحا للمسار، حتّى ليخيّل للمطلّع على هذه الإسهامات الخالدة كأن لم يكن طبا قبل حضارة المسلمين** "[117] وكلام هذا الباحث حق ولا شطط فيه، وهذا يدعو المسلمين لئن يفتخروا ويرفعوا رؤوسهم شامخين أمام أمهر أطباء العالم، فهم علّموا –أي علماء المسلمين– الدُّنيا مختلف العلوم بما في ذلك علم الطّب الّذي يعد من أهم العلوم الدنيوية على الإطلاق، وانظر مثلا واقع الأطباء في فرنسا تجد أغلبهم مسلمين، فهم أبانوا على مهارتهم واتقانهم في هذا التّخصص العلمي الفريد، وهم امتداد تاريخي وبشري لعلماء المسلمين السّابقين.

وفي ذات السّياق يضيف الباحث –السّابق– قائلا: " **ولم يقتصر الإبداع على علاج الأمراض فحسب، بل تعدّاه إلى تأسيس منهج تجريبي أصيل انعكست آثاره الرّاقية والرّائعة على كافة جوانب الممارسة الطبية وقاية وعلاجا،أو مرافق وأدوات أو أبعاد إنسانية وأخلاقية تحكم الأداء الطّبي، وإنّ روعة الإسهامات الإسلامية في الطّب لتتجلّى في تخريج هذا الحشد من العبقريات الطبيّة النّادرة التي كان لها بعد**

((117)) راغب السرجاني، "**اسهامات علماء المسلمين في الطب**"، منشورات شبكة الأولكة الإسلامية، 2013/01/01

الله الفضل الكبير في تحويل مسار الطب إلى اتجاه آخر، تابعت المسير على نهجه أجيال الأطباء إلى يوم الناس هذا" [118].

وهذه الشهادة التي أدلى بها هذا الباحث والمؤرخ الّذي يُدعى راغب السرجاني تضاف إلى شهادات المسلمين والمستشرقين المنصفين قديما وحديثا التي تدّل على تفوّق المسلمون في هذا المجال والتّخصص العلمي البالغ الأهمية، وفي هذا كذلك رد على الّذين يزعمون أنّ ديننا الإسلامي الحنيف لا يهتم بالأمور الدنيوية ويركّز فقط على أمور العبادة والآخرة، وهذا محض كذب وافتراء يراد من خلاله الإزراء بالدّين الإسلامي والاستنقاص منه والحطّ من قدره، وهيهات هيهات أن يحصل لهم ذلك، فالإسلام لا أحد يستطيع أن ينال منه أو يستنقص منه لأنّ الله عز وجل هو الذي تكفّل بحفظ هذا الدّين ونصرته إلى أن يرث الأرض ومن عليها ولله الحمد.

ولا يخفى أنّ النظرية العامة للعدوى وإجراءات الحجر الصّحي وكيفية التّعامل مع الأمراض المعدية هي من انجازات الأطّباء المسلمين التي عرفتها أوروبا عن طريق اتّصالها بالمراكز العلمية والثقافية للمسلمين من ثلاث سبل، فالسبيل الأول عن طريق الأندلس ومراكزها العلمية في كل من قرطبة وغرناطة واشبيلية وطليطلة ومرسية وغير ذلك، حيث استمرت تلك المراكز العلمية لمدّة ثمانية قرون من الزّمن، والسّبيل الثاني الذي استفاد من خلالها الأوروبيون العلوم والثقافة العربية بما فيها علوم الطّب كان عن طريق صقلية والمراكز العلمية الكبيرة التي أنشأها المسلمون فيها، وفي القرون الوسطى لم يكن للأوروبيين مستشفيات خاصة بالمرضى بل كانت مستشفياتهم عبارة عن ملاجئ تأوي كل من لا مأوى لها، ولم تعرف أوروبا المستشفيات إلاّ في نهاية القرن الثاني عشر بعد الحملات الصّليبية التي شنّوها ضد العرب المسلمين حيث تعرّف الأوروبيين خلالها على

((118)) نفس المرجع.

نظام المستشفيات، وأنشأؤوا بعد عودتهم من تلك الحروب مستشفيات خاصة بالمرضى فقط[119].

ومن الأطّباء المسلمين الذين حذقوا في الطّب نجد فريد زمانه الزهراوي حيث كان له السّبق في جراحات التّجميل، بل هو من أشهر جراحي العرب، كما درس علاج تشوّهات الفم والفك، وعلّم تلاميذه كيفية خياطة الجروح بشكل داخلي، وكيفية التّخيط بابرتين بخيط واحد، واستعمال الخيطان من أمعاء القطط، كما أمّد الجراحين وأطباء العيون والأسنان بالآلات اللازمة لعملياتها، كما كان يوصي الأطباء بعدم التسرّع في قراراتهم عند إجراء العلميات الجراحية، وإلى جانب ما ذكرناه فقد كان الزهراوي الواضع (المؤسّس)الأوّل لعلم المناظير الجراحية، وذلك من خلال اختراعه واستخدامه المحاقن الجراحية، فقد قام بتفتيت حصوة المثانة بما يشبه المنظار في الوقت الحاضر [120].

ومن الأطباء كذلك الّذين كان لهم فضل كبير في تطوّر العلوم الطبيّة نجد عبد الملك بن مروان بن زهر المتوفى سنة 595هـ الموافق ل 1198م صاحب كتاب "**التّيسير في المداواة والتّدبير**" الذي أثّر تأثيرا بليغا في الطّب الأوروبي، وظلّ هذا التأثير نهاية القرن 11 للهجرة وذلك بفضل ترجمة كتبه إلى العبرية واللاتينية [121]، ومن جانب آخر نجد أنّ الجراحون المسلمون بصفة عامة كانوا يجرون عمليات جراحية ناجحة على البطن

((119)) طاهر بن لخضر العيد، "**أثر الحضارة الإسلامية على الثقافة الصحية في أوروبا خلال القرون الوسطى**"، مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية، العدد05، 2021، ص ص، 212-213.

((120)) محمد صديقي، "**الطب الإسلامي وأثره على أوروبا** "، مجلة قبس للدراسات الانسانية والاجتماعية، المجلد04، العدد02، ديسمبر 2020،ص719.

((121)) نفس المرجع، ص719.

والمجاري البولية والولادة القيصرية وتجبير الكسور وعمليات الأنف والأذن والحنجرة، وكانوا يخيطون الجروح خياطة داخلية لا تترك أثرا ظاهر من الجانب الخارجي، واستخدموا الأوتار الجلدية في العلميات الجراحية، كما كان للأطباء المسلمين الفضل في استعمال عمليتي التّخذير والإنعاش على أسس تختلف كثيرا عما نقوله من الأمم الأخرى[122].

كما استخدم الجرّاحون المسلمون أدوات دقيقة لاستئصال الأورام والناسور أو لقطعها –أي الأورام– من ذلك البريد وهو أداة كالمسبار تصنع من النحاس الأصفر أو الأبيض أو الرّصاص ويختلف حجمه وشكله باختلاف موضع الورم أو الناسور أو الخراج وحجمه، كما استخدموا المدس وهو آلة كالمرود لجس واستقصاء الأورام، ووظيفة المدس أن يدخل أو يدس في أرطب مكان ويدار بلطف بين الأصابع ثمّ ينزع ويفحص ما خرج معه من أنواع الرطوبات، أما في جراحة العيون والأنف والأذن فقد استخدموا آلات عديدة على غرار البريد وهو آلة شديدة الصّلابة والمقدح والقصبة والمسعط والبيرم لجرحة العظام وغيرها من الأدوات الدّقيقة في عمليات الجراحة[123].

وقد عدّد الدكتور راغب السرجاني مآثر وفضائل الأطّباء المسلمين وعلى رأسهم ابن النفيس في مجال التشريح فيما يلي [124]:

((122)) راغب السرجاني، **قصة العلوم الطبية في الحضارة الإسلامية**، الطبعة الأولى، القاهرة، دار إقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، 2009، ص ص، 47–48.

((123)) راغب السرجاني، **قصة العلوم الطبية في الحضارة الإسلامية**، المرجع السابق، ص ص، 52–54.

((124)) نفس المرجع، ص ص، 58–60.

1- كان لهم الفضل في اكتشاف الدورة الدموية الصُّغرى التي تجري في الرّئة ويمر الدّم خلالها من الشريان الرئوي إلى القلب، وهذا الاكتشاف هو الّذي مهّد الطريق لوليام هارفي ليكتشف الدورة الدموية الكبرى.

2-الوقوف على تركيبة الرّئة والأوعية الشّعرية، ووصف الشّريان الإكليلي ووصف الدّورة الدموية فيه، وإثبات أنّ للقلب بطينين فقط.

3-إثبات عدم وجود أي هواء أو رواسب مع الدّم في شرايين الرئتين مخالفين بذلك رأي جالينوس.

4-انتقدوا وصف جالينوس للهيكل العظمي، حيث بيّن عبد اللّطيف البغدادي أنّ الفكّ الأسفل قطعة واحدة وليس قطعتين بعد أن فحص أكثر من ألفين جمجمة بشرية.

5-اكتشف ابن القف عدد الأغشية القلبية ووظيفتها واتجاه فتحاتها لمرور الدّم.

6-معرفتهم أنّ الدم يجري إلى الرّئتين حيث يتجدّد ويتشبّع بالهواء وليس لمدّهما بالغذاء، وهذا ما أكّده وليام هارفي فيما بعد.

7-تأكيدهم على وجود اتّصال بين الشّرايين الموجودة في الرّئتين وأوردتهما حتّى تتّم الدّورة الدّموية داخل الرّئة.

8- اكتشاف أنّ جدران أوردة الرّئتين أغلظ كثيرا من جدران شرايينها، وأنّها تتألف من طبقتين.

9-البراعة في تشريح العيون وإجراء العمليات فيها، وقال ابن النفيس أنّ العين آلة للبصر وليست باصرة، ومنفعة هذه الآلة تتّم بروح مدرك يأتي من المخ، وهذا ما أثبته

العلم حاليا، حيث ينقلب العصب البصري الصّورة إلى الدّماغ الّذي يقود بدوره بتفسير المرئيات.

10- مخالفتهم لرأي جالينوس الّذي يقول بوجود فتحة في جدار القلب الفاصل بين البطينين، وتوضيح أنّ الدّم يجري في القلب ويدور فيه دورة كاملة، ويتدفّق في أوردة الرّئتين لينتشر فيهما ويتحد مع الهواء فيتخلّص مما فيه من شوائب، ثمّ يجري في شريان الرّئتين ليصل إلى البطين الأيسر بعد امتزاجه بالهواء.

وفي الأخير نسوق للقارئ الكريم بعض الكتب التي ألّفها الأطّباء المسلمون والّتي تعد مرجعا مهمّا في علوم الطّب، وهذا لنبيّن أنّ الأطّباء العرب كانوا سباقين في اكتشاف العلوم الطّبية والجراحية،ولم يكونوا كما يزعم بعض النوكى أنّهم كانوا عالة على غيرهم في مختلف العلوم، لكن الباطل سريعا ما يضمحل ويزول بمجرّد بروز الحق وقوة حجته وبيانه. وإليك أيّها القارئ بشكل سريع قائمة ببعض الكتب الطّبية المهمة التي ألّفها زمرة من العلماء المسلمين[125]:

1-**كتاب التّصريف للزهراوي**: والاسم الكامل للكتاب هو: "**التّصريف لمن عجز عن التأليف**"، ويعدُّ هذا الكتاب حسب أهل الاختصاص أوّل كتاب علمي جراحي مصوّر في تاريخ الطب، حيث سبق أبو القاسم الزّهراوي كافّة المؤلّفين قبله في اتّخاذ أسلوب رسم الآلات الجراحية، وكذلك اتّخاذ رسوم توضيحية لكيفية إجراء بعض العمليات الجراحية، ويوجد في هذا الكتاب 196 رسما الغالبية العظمى منها من

((125)) محمود الحاج قاسم محمد، **التعليم الطب في الحضارة العربية الإسلامية**، الطبعة الأولى، العراق، دار ماشكي للطباعة للنشر والتوزيع،2021، ص62.

اختراعه يشرح طريقة عملها ويوضح استخدامها، ويذكر أحيانا المادة التي صنعت منها.

2-كتاب الكافي في الكحل لخليفة ابن أبي المحاسن الحلبي: والكتاب يحوي جملة من الآلات الجراحية التي رسمها واستعملها في في إجراء عمليات العين.

3-كتاب نور العيون وجامع الفنون لصلاح الدّين بن يوسف الكحّال: ويتضمّن هذا الكتاب المهم رسوما لأدوات الجراحة المستعملة في حراحة العيون بشكل عام.

4- كتاب الموجز في الطّب لابن النفيس: يعرف هذا الكتاب كذلك باسم موجز القانون، وهو كتاب طبّي شامل، وهذا الكتاب في الأصل هو اختصار وشرح لكتاب القانون لابن سينا، وقد أُعيد نشر كتاب الموجز في الطّب العديد من المرّات بالاعتماد على مخطوطات محفوظة في مكتبات مصر ودمشق، كما قد تضمن هذا الكتاب عدّة مباحث مهمة في الطّب منها أسباب المرض والعلل، علامات المرض والعلل، وتحدث فيها كذلك عن الأغذية والأدوية المركّبة والأدوية المفردة وعلاج الأمراض، فضلا عن الكسور والرضوض وكيفية الاحتراز من السُّموم[126].

5-كتاب الغذاء والماء للأصحاء للسمرقندي: صاحب هذا الكتاب هو نجيب الدين أبو حامد بن علي بن عمر السمرقندي، وهو طبيب فارسي مارس الطّب في سمرقند، وفي هذا الكتاب على وجه الخصوص قام المؤّلف بتعريف الغذاء السّليم

((126)) لمزيد من العلومات عن هذا الكتاب ارجع إلى الكتاب الأصلي **موجز في الطب لابن النفيس** بتحقيق الاستاذ عبد الكريم العزباوي، الطبعة الخامسة الصادر عن المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 2008.

والمناسب بالغذاء القادر على استبدال ما يتحلّل من العناصر المكوّنة لأجزاء الجسم[127].

6-**كتاب الحاوي في الطّب للرازي:** ومؤلّفه هو أبو بكر محمد بن زكريا الرّازي، وكتابه هذا الحاوي يعد موسوعة طبيّة، ضمّ فيه المؤلّف العديد من المواضيع المتعلقة بالطّب على غرار السُّمنة وكيفية التّخلص منها، كما تعرّض فيه للنّظام الغذائي والتّمارين الرياضية والتّدليك والعلاج المائي وغيرها من المواضيع المهمة في علم الطب[128].

ثانيا– في الصيدلة والأدوية:

لقد كان للأطّباء المسلمين الفضل في اكتشاف العديد من الأدوية والعقاقير التي تستخدم في علاج مختلف الأمراض التي تصيب الإنسان، كما قد أبدع الأطّباء المسلمين والصّيادلة في تحضير العقاقير المختلفة وتركيبها، واستخدموا في ذلك طرقا مبتدعة وكثيرة منها طريقة التّقطير لفضل السّوائل وطريقة التّنقية لإزالة الشّوائب،وطريقة التّصعيد لتكثيف المواد المتصاعدة،وطريقة التّرشيح لعزل الشّوائب والحصول على محلول نقي، ومن الابتكارات المعروفة للصّيادلة المسلمين مزجهم للأدوية بالعسل أو بالسّكر أو بعصير الفاكهة وإضافة مواد محبّبة كالقرنفل لصبح طعام الدواء مستساغ وطيب، كما وضع الصّيادلة المسلمون كثير من الأدوية في صورة أقراضص مغلّفة وتحضير أقراص

((127)) سمية طه، "**الكتب الطبية الخمسة الأشهر لعلماء المسلمين فيما يتعلق بالحياة الصحية**، صحيفة ن بوست،2016/11/22.

((128)) نفس المرجع.

الدواء عبر كبسها في قوالب خاصة وإخضاء الدواء الجديد للتّجربة على الحيوان قبل وصفه للمريض، وهذا بغية التأكد من سلامته على المريض[129].

وإلى جانب ما ذكرناه فقد اهتم صيادلة المسلمين بزراعة النباتات الطّبيّة والأعشاب العلاجية في مزارع وضعت بجوار ما بنوه من المستشفيات، كما اهتموا بجلب بذور تلك النباتات من أصقاع العالم، وخصصت لكل بيمارستان (مستشفى) منها صيدلية تقدّم ما يصفه الطّبيب للمريض من أشربة وأدوية، وفي هذا الصّدد يقول الدكتور عبد الله الدفّاع في كتابه الموسوم ب" **أعلام العرب والمسلمين في الطب**" أنّ العلماء المسلمين وضعوا في كل مستشفى صيدلية منذ القرن الثاني عشر ميلادي، وهكذا فإنّ فكرة إنشاء صيدلية داخل المستشفى هي فكرة نقلها واستنسخها العالم عن الحضارة العربية الإسلامية التي كانت السّباقة في تطبيقها قبل أكثر من ثمانية قرون[130].

وهذا ما جاء على لسان المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه: "**أين هذه الدولة التي عرفت مثل هذا الجمع الكبير من الإخصائيين بشتّى حقول الصحّة وتركيب الأدوية والعقاقير كما كان الحال عند العرب ؟ وهل كانت للمستشفيات الحديثة في الأصقاع العربية آنذاك مثيل في أي طرف من أطراف الأرض ؟إنّ وسائل العلاج عند العرب تتحدث ببلاغة عن عظمة أبحاثهم، كما أنّ علم الصّحة عندهم لأروع مثل يضرب ولم العجب والدهشة والوضع كان كما نعلم**"[131] انتهى كلامها، وليست زيغرد هونكه المستشرقة الوحيدة التي أقرّت بهذه الحقائق بل أمثالها

((129)) حذيفة أحمد الخراط، "**علم الصيدلة في الحضارة الإسلامية**"، مجلة حراء الإلكترونية، العدد 21،2021/01/53

((130)) حذيفة أحمد الخراط، نفس المرجع السّابق.

((131)) نفس المرجع.

كثير، وهذا ولله الحمد يشهد على عظمة الدّين الإسلامي وأصالة الحضارة العربية الإسلامية بما يجعل هذه الأخيرة جديرة بالاهتمام والتّقدير الدّائم والمستمر.

ومن إنجازات المسلمين في علم الصّيدلة نجد كذلك المؤلّفات الرّائدة والنفيسة التي كان لها الأثر البالغ في بلاد الغرب، ولعل أبرز هذه المؤلّفات كتاب البيروني الموسوم ب: "**الصيدلة في الطب**" والّذي حاول من خلاله استقصاء ماهيات الأدوية ومعرفة أسمائها واختلاف آراء المتقدّمين، وهذا الكتاب يعد ثمرة تجارب البيروني في سنواته الأخيرة، ضمّ فيه كم هائل من المعلومات المهمة التي تمحورت حول 850 عقارا مقرونا بأمساء العقاقير باللّغات العربية والسريانية واليونانية والسنسكريتية والفارسية، وقد كان كتاب البيروني مرجعا أساسيا لكل من كتب بعده في مجال الصيدلة[132].

ومن إنجازات المسلمين كذلك في الصّيدلة ماذكره المؤرخ والطبيب الفرنسي لوبون أنّ الطب مدين للعرب بعقاقير كثيرة كالسليخة والرواند والتمر الهندي وجوز الطيب والقرمز والكافور والغول (الكحول) وما إلى ذلك، كما أنّ الطّب مدين للعرب بفن الصيلدة وبكثير من المستحضرات التي لا تزال تستعمل كالأشربة واللعوق واللّزقات والمراهم والدّهان والمياه المقطرة...إلخ[133]، وهذه الشّهادات الحيّة تنطق بأسبقية العرب في علوم الطّب والصيدلة والأدوية لكثير من الأمراض المستعصية، وحتّى في الطّب البديل فقد برع الأطباء والصيادلة المسلمون في اكتشاف الكثير من الأدوية الطبيعية غير الكيميائية التي أثبتت نجاعتها في الطّب على غرار علاج مرض عرق النسا وأمراض الحساسية وأمراض القولون والضّغط الدموي وغيرها من الأمراض المعقدة، حيث تمكّن

((132)) عبد الله حجازي، "**إنجازات علماء المسلمين في الصيدلة** "، منشورات شبكة الألوكة الثقافية 2013/02/23.

((133)) نفس المرجع.

الأطباء والصيادلة من تقديم وصفات ناجعة لكثير من المرضى الذين لم يجدوا الحل في الأدوية الكيميائية، مع العلم أنّ الأدوية الكيميائية لها آثار جانبية على صحّة الإنسان خاصة بالنسبة للذين يعانون من أمراض الحساسية أو الضّغط الدموي أو بعض الأمراض الأخرى.

وعلى كل حال فإنّ الصّيادلة المسلمون لا زالوا يبدعون ويتفوقون في اكتشاف كثير من الأدوية لعلاج الأمراض المستعصية،وحتّى بالنّسبة للطّب البديل فقد أثبت نجاعة كبيرة في هذا المجال، وقد حدثني أحد المقرّبين لي وهو مغترب بفرنسا أنّ له بنت كانت تعاني من مرض جلدي وقد زار كثير من الأطباء المختصين بفرنسا ومع ذلك بقي المرض كما هو ولم تتحسّن حالة البنت إلاّ بعد زيارة امرأة في الجزائر تعالج هذا المرض بعلاج طبيعي غير كيميائي، وقد تحسّنت حالة هذه البنت من أول جلسة علاجية، وهذا غيض من فيض والقصص في ذلك كثيرة ولله الحمد، ونحن لا نقلّل من شأن التّخصص العلمي في الطّب لكن في ذات الوقت نقر بإنجازات الأطّباء والصيادلة في البلاد الإسلامية قديما وحديثا.

ثالثا– في الهندسة والعمران

إنّه من دواعي الفخر أنّ نقول بأنّ المسلون العرب لم يتركوا مجالا من مجالات العلم والصنائع والحرف آلا وأتقنوه وأبدعوا فيه بما يحيّر العقول على الرّغم من قلّة الإمكانات عكس ما يتمتع به الغرب من إمكانات كبيرة في شتّى المجالات، فحين تنظر مثلا إلى الطريقة التي شيّد بها قصر الحمراء في بلاد الأندلس تدرك جيدا أنّ المهندسون العرب كان لهم إلمام وإتقان عجيب في البناء والعمران؛ إذ لم يسبقهم في ذلك أحد، وهو ما أثار إعجاب ودهشة المهندسين الغرب إلى حد أنّهم عجزوا فيه عن

فهمه فضلا عن تقليده. وإلى جانب ذلك فإنّ هذا القصر يحتوي على نقوش وفسيفساء وزخارف يدوية من إبداع المسلمون وابتكاراتهم.

وحسب بعض المفكّرين الغرب فإنّ قصر الحمراء هو أعظم تذكار حي قدّمه المسلمون إلى أوروبا، ويضيف قائلا حينما يتحدّث عن جمال القصر وروعته: "**يجب الاعتراف بأنّ روعة الطّراز المعماري في الزّخرفة تفوق تصميم مخطط أرضية القصر، فقد بنيت كل الزّخرفة العربية على مخطط هندسي صارم، وكل تصميم قد حدّد بترتيب متناسق للخطوط والانحناءات في أبعاد متساوية، ونقطة تقاطع الخطوط عند الزوايا هي سر النظام، تتدفق كل الخطوط من رسم محدد ولا يقدّم أي شكل أو زخرفة بشكل عشوائي**، ثمّ أردف الحديث قائلا: "**إنّ الزخرفة الإسلامية تمقت عدم الانتظام أو العشوائية وترفض الرمزية**[134].

وعموما فإنّ المسلمين أو المهندسين المسلمين كان لهم فضلا كبيرا في إدخال أمور جديدة على هندسة من سبقهم، ومن ذلك تقسيم الزّاوية إلى ثلاثة أقسام متساوية وكذلك الدّائرة، وقد ألّف الكندي الرّسائل المختلفة في تقسيم المثلث والمربع واستخراج سمت (علامة) القبلة وكان يرجع إلى مؤلّفاته المعماريون عند القيام بحفر الأقنية والجداول بين دجلة والفرات، وأدخل المسلمون كذلك القواطع والمماس على الأبنية،

((134)) ألبرت كالقرت، **غرناطة وقصر الحمراء وصف لمدينة غرناطة القديمة وقصرها الإسلامي**، الطبعة الأولى، ترجمة أحمد إيبش، أبو ظبي: الإمارات العربية الحديثة، دار الكتب الوطنية،2013، ص ص،29-33.

واستخدموا فن الزّخرفة الذي يعتمد على قواعد هندسية في رسم المغلّفات وترتيب الخطوط وأوراق النبات [135].

وفيما يلي نسوق بعض أسماء المهندسين المسلمين الذين برعوا في الهندسة ونالوا حظوا واسعا فيها وبزّوا على أقرانهم [136]:

1-الجزري: وهو العالم المسلم بديع الزّمان أبو العز بن اسماعيل بن الرزاز الجزري، ولد عام 1136 م وتوفي سنة 1206م في تركيا، وكانت له عناية مبكّرة بالآلات والمعّدات منذ صغره، وأصبح فيما بعد رئيس المهندسين في قصر أرتوكلو، وقد اخترع الجزري ما يناهز مائتى أداة ميكانيكية، ومعظمها كانت تعمل تلقائيا دون الحاجة إلى تدّخل الانسان أو العامل، كما أنّه قام بكتابة كتاب لفهم طريقة صناعة وبناء الآلات وكيفية تشغيلها، وقد شملت اختراعات الجزري آلات للتّحكّم في تدّفق الماء والسّاعات وغيرها من الاختراعات.

2- الكندي: وهو العالم المسلم الشهير أبو يوسف يعقوب بن اسحاق الكندي، ولد عام 801 م بالكوفة (العراق)وتوفي عام873م في بغداد، وكانت نشأة الكندي العلمية في أحد حواضر العلم آنذاك وهي الكوفة، وأكمل تعليمه ببغداد، وكان من جملة أعماله العلمية أنّ قام بترجمة المخطوطات العلمية اليونانية،كما ألّف عدّة كتب في علوم الرّياضيات والحساب والهندسة، وألّف كذلك كتابين في علم البصريات.

((135)) راغب السرجاني،"**الهندسة في الحضارة الإسلامية**"، انظر إلى الموقع الالكتروني الآتي: https: //www.islamweb.net/ar/article/17

((136)) انظر إلى المقال الموسوم ب "**أشهر علماء المسلمين في الهندسة**" بتاريخ 11يوليو 2023.

3–ابن المجدي: وهو أحد علماء المسلمين واسمه الكامل ثابن بن قرة بن مروان، ولد عام 836م وتوفي عام 901م، وقد أتقن ثلاث لغات وهي اللّغة العربية واليونانية والسّريانية، حيث كتب جل أعماله العلمية باللّغة العربية وبعض منها باللّغة السريانية، كما قام بترجمة بعض الوثائق المكتوبة من اللّغة اليونانية إلى اللّغة العربية، وشملت أعماله العديد من العلوم المختلفة على غرار الهندسة والإحصاء والفلك والفلسفة والطب.

4–أبو الوفاء البوزجاني: محمد أبو الوفاء البوزجاني هو أحد أعلام المسلمين، وقد كرّس البوزجاني حياته العلمية في دراسة عدّة علوم على غرار علوم الهندسة، والرياضيات والفلك، وقام بمحاولة حساب فرق التوقيت بين خطوط الطول، وقدّم دالة الظل، كما قدّم حسابات أكثر دقّة ممن سبقوه لدالة الجيبن وأكثر من ذلك فقد ألّف كتاب شهير في الهندسة أسماه " **ما يحتاج إليه الصانع في علم الهندسة**"، ويعد هذا الكتاب من المراجع المهمة جدّا ومن أبرز كتب الهندسة الإسلامية.

5–ابن الهيثم: وهو العالم النحرير أبو علي الحسن بن هيثم وقد بلغت شهرته الآفاق، ولد عام 965م في البصرة (مدينة العلم والعلماء) وتوفي عام1040م في القاهرة، وقد نزل بالقرب من الأزهر في مصر وأقام بجانبه، حيث ألّف العديد من الكتب العلمية في العديد من المجالات كالهندسة والطّب والبصريات والفلك، كما قام ابن الهيثم بربط الهندسة بالجبر وتطوير الهندسة التحليلة، ولا يخفى أنّ كتب ابن الهثيم العلمية لا تزال تشكّل مرجعا أساسيا في كثير من العلوم، ولا يزال العلم اليوم يستفيد من تجاربه وأبحاثه العلمية رغم تطور العلوم وازهدهارها، وهذا يدل في الحقيقة على مكانته العلمية ورسوخه في العديد من التّخصصات العلمية رحمة الله عليه وعلى من سبقه من علمائنا الأفذاذ.

وفي الحقيقة ما ذكرناه ما المهندسين المسلمين الذين برعوا في الهندسة قليل جدا وإلاّ فهم أكثر من ذلك بكثير، ولا يمكننا أن نذكرهم جميعا لكثرتهم، وقصدنا هو الاستشهاد ببعض منهم لنستدل على أنّ الحضارة العربية الإسلامية بلغت منزلة كبيرة في مختلف العلوم الدنيوية إلى جانب العلوم الشّرعية والإسلامية، ولايزال المسلمين يقدّمون للعالم الغربي مجموعة كبيرة من العلماء في مجالات وتخصّصات عديدة فرضوا فيها أنفسهم وأجبروا الدول الغربية على تقديم وظائف ورواتب مغرية للاستفادة من علومهم وخبراتهم في مجال تخصّصهم.

رابعا – في علم الفلك:

لم يترك علماء المسلمين كما سبق وأن ذكرنا مجالا أو تخصّصا علميا إلاّ وتركوا بصمتهم فيه، وأحرزوا قصب السّبق فيه بأسلوب بديع، وتفوّقوا فيه على غيرهم من علماء عصرهم، ومن تلك العلوم "**علم الفلك**" كما يسمّى كذلك علم الهيئة أو علم التّنجيم فكلّها تسميات تطلق على علم الفلك ولكن الاسم الأكثر شهرة هو علم الفلك، وحينما نتحدّث عن هذا العلم نجد أنفسنا ملزمين بالتّحدث عن أشهر العلماء المسلمين في هذا المجال الحيوي كالبيروني والكندي وابن الشّاطر وغيرهم من العلماء المسلمين الذين كان لهم إلمام بهذا التّخصص العلمي المهم جدا، والناس يحتاجون إلى هذا العلم لمعرفة مثلا تغيّرات الجو وحالة الملاحة الجوية والبحرية، وهذا من أجل ممارسة مختلف أنشطتهم التجارية أو من أجل السّفر الآمن.

وقبل كل شيء تجدر الإشارة إلى حقيقة مهمّة بخصوص اهتمام المسلمين بهذا العلم، فعلم الفلك في الأصل من العلوم الطبيعية التي حظيت باهتمام العرب قبل وبعد مجيء الإسلام، إلاّ أنّ معرفة العرب بالفلك قبل الإسلام كانت مقتصرة على ملاحظة حركة الكواكب والنجوم ومعرفة أحوال الرياح وحوادث الجو على مدار فصول السّنة، إلى جانب تحديد مواعيد الرّحلات التّجارية والمناسبات الدّينية والاجتماعية، حيث كانوا يربطون ملاحظاتهم الفلكية بمحاولة إستطلاع أحوال الكون ومعرفة الغيب والتّنبؤ بالحظ وأمور المستقبل، وهو ما يعرف بالتنجيم[137]، وقد ساد التنجيم بلاد الشرق والغرب مدّة طويلة من الزّمن ولا يزال أثره حتّى اليوم.

((137)) **التنجيم:** يقدح في عقيدة المسلم وهو محرّم شرعا لأنّه لا أحد غير الله سبحانه وتعالى يعلم ما في الغيب وهذا العلم اختص به الله عزو وجل وحده فلا ملك مقّرب ولا نبي مرسل يعلم ما في الغيب إلا بوحي أو إخبار من الله عزو وجل، وقد يُطلع الله أحد مخلوقاته

وقد عني المسلمون بشكل كبير بعلوم الفلك، وكانت بداية ذلك منذ عهد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، حيث أبدى رحمه الله شغفا كبيرا بعلم الفلك، وشجّع على ترجمة الكتب التي تُعنى بهذا العلم إلى اللّغة العربية، وشحذ همم العلماء والباحثين، وأغدق عليهم العطايا، وأحاطهم بالعناية والرعاية، واقتدى بالمنصور في هذا المجال، ولم يقتصر العماء المسلمين في هذا العلم بترجمة كتب الفلك بل قد قاموا بتصحيح كثير من الأغلاط الموجودة في الكتب التي ترجموها وأضافوا إلى الصّحيح منها ما توصّلوا إليه ببحوثهم الخاصة [138].

ومن العلماء المسلمين الذين أظهروا اهتماما بعلوم الفلك وبرعوا فيها نجد كل من[139]:

1- محمد بن جابر بن سنان البتّاني(ولد في 240هـ-858م): أجرى البتّاني العديد من التّصحيحات والتّعديلات على كتاب المجسطي لبطليموس، كما استخدم البتاني علم المثلثات الكروية في الحسابات الفلكية، وأعطى قياسا بالغ الدقّة للسّنة

ببعض أمور الغيب وهذا لايعني البتّة أنّه يعلم الغيب، وللأسف كثر الدجّالون الذين يدعون علم الغيب ولكنّهم يعلمون أنّه دجل يأخذون به أموال الناس ويضحكون على عقولهم، والمسلم موقفه صارم تجاه قضية الغيب فهو لا يدري أي شيء من أمور الغيب، ولا ينقص ذلك من قيمة المسلم شيء بل إيمانه بأنّ الله وحده هو الذي يعلم الغيب هو الّذي يقوّي إيمانه بالله ويجعله يرضى بكا ما قسمه الله له،، كما يجعله يتقرّب إلى الله بالدّعاء ليصرف عنه مات يضرّ في دينه أو دنياه.

((138)) محمد هلال، محمد اسماعيل أوقلو، "**اسهامات علماء العرب والسلمين في علم الفلك**"، مجلة العلوم الاجتماعية، جامعة كيركالي تركيا، المجلد09، عدد خاص، ديسمبر2019، ص224.

((139)) مصطفى أولداش، "**علم الفلك عند علماء المسلمين**"، مجلة بشائر العلوم، المدرسة العليا للأستاذة، القبة، العدد03، جوان 2022، ص03.

الشمسية، كما درس الاختلافات في ذروة الشّمس، وحسب بدقّة جيّدة ميل مسار الشمس ودورة الاعتدال، وعلاوة على ذلك فقد كتب رسالة في الأدوات الفلكية وأعطى وصفا دقيقا لها كما شرح كيفية استخدامها وتوظيفها، وقد ترجمت أعمال وأبحاث البتّاني إلى اللّغة اللاتينية، حيث كانت مؤلفاته وأبحاثه مرجعا مهما حتّى عصر النهضة.

كما اشتهر البتّاني رحمه الله برصد الكواكب والأجرام السّماوية، وكان أوّل من كشف السمت والنظير وحدّد نقطتيهما من السّماء، كما نجح في تحديد ميل الدائرة الكسوفية وطول السّنة المدارية والفصول والمدار الحقيقي والمتوسط للشمس.ويعد كتابه "**الزيج الصّابئ**" مرجعًا مهمًا للغاية في حركة الأفلاك، حيث يضم هذا الكتاب سبعة وخمسين فصلًا، وترجم إلى اللاتينية أكثر من مرّة في القرن الثاني عشر، كما نقل إلى الإسبانية وطبع في أكثر من عاصمة أوروبية، والمواضيع المهمة التي نجدها في هذا الكتاب هي: تقسيم دائرة الفلك، معرفة أقدار أوتار أجزاء الدائرة، مقدار ميل فلك البروج عن فلك معدل النهار وتجزئة هذا الميل، معرفة حركات سائر الكواكب بالرصد إلى جانب رسم مواضع ما يحتاج إليه منها في الجداول في الطول والعرض [140].

2-**ابن يونس:** حيث قام هذا الأخير بأوّل ملاحظة دقيقة لكسوف الشّمس وخسوف القمر في القاهرة، ودرس اقتران الكواكب، كما أظهر حركة التباين في حركة القمر، وكان له الفضل في اختراع النّواس[141] قبل جاليليو بقرون واستخدمه في قياس

((140)) رندة عطية، "**جابر البتاني: ابن الفرات وأحد أعظم علماء الفلك على مر العصور**"، صحيفة نون بوست،2022/09/06.

((141)) **النُّوَاس** أو الرّقّاص أو البَنْدُول بالإنجليزية: Pendulum جسم مرتبط بنقطة محورية ثابتة بخيط أو حبل بحيث يستطيع أن يتحرك بحرية في مستوى واحد، من اليمين إلى اليسار.

الوقت خلال ملاحظاته الفلكية[142]، وقد وضع عالم الفلك ابن يونس جداول فلكية في أربعة أجزاء صحّح فيها أغلاط من سبقوه، وصدّرها بمقدّمة عن علم الفلك وأهم فوائده ضمن كتابه المعروف باسم "**الزيج الكبير الحاكمي**" الذي أهداه إلى الحاكم الفاطمي، وقد ترجمت فصول من هذا الكتاب إلى العديد من لغات العالم، توجد أجزاء منه في مكتبتي أكسفورد وباريس، وقد وصف المؤرّخ البلجيكي جورج سارتون ابن يونس بأنّه أعظم فلكي عصره [143]، وهذه شهادة تنطق وتفصح عن علو كعب علماء المسلمين في هذا التّخصص العلمي الفريد، وتؤكّد على تفوّقهم مرّة أخرى في العديد من المجالات والتّخصّصات العلمية.

3-أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني: ولد البيروني سنة 973م بخوارزم في غرب آسيا الوسطى، كان البيروني عالم فلك وفيلسوفا ومتبحّر كذلك في علم الرياضيات إلى جانب علوم الفيزياء والعلوم الطّبيعية، وهو أوّل من تمكّن من الحصول على صيغة بسيطة لقياس نصف قطر الأرض، وكان يعتقد انّه من الممكن أن تدور الأرض حول الشمس، وطوّر فكرة إمكانية تعاقب العصور الجيولوجية، وكان البيروني متقدّما كثيرا عن الفكر العلمي الذي كان موجود آنذاك في أوروبا[144].

ومن أبحاثه في علم الفلك تأكيده في وقت مبكر على أنّ هناك نوعين من الجاذبية هما: جاذبية السماء للأرض وجاذبية الأرض لما فوقها وحولها، فالشيء ينجذب إلى النظاق الذي يقع في مجاله وإن كان هو ونطاقه منجذبين بدورهما إلى جرم السماء،

((142)) مصطفى أولداش، **المرجع السّابق**، ص03.

((143)) رمضان السيد، "**ابن يونس المصري أعظم فلكي عصره** "، صحيفة البيان، الإمارات العربية المتحدة، 2017/11806.

((144)) Amelia Carolina Sparavigna, «**The Science of al-Biruni**» , International Journal of Sciences 2(12), December 2013,p52.

ولذلك قال –أي البيروني–وليس يخفى عنّا الجبل لبعده في الصّدود ولكن لسفوله عن الأفق بسبب كروية الأرض وانجذاب الأثقال نحو وسطها[145].

وفي الحقيقة أنّ علماء المسلمين الذين اشتهروا في علم الفلك كُثُر لا يمكن الحديث عنهم جميعا، والّذي أردنا التّأكيد عليه بأنّ المسلمين لم يكونوا أبدا عالة على غيرهم في مختلف العلوم ومنها علم الفلك؛بل قد نقدوا كثيرا من كتب علم الفلك لعلماء يونانيين وغيرهم، وهذا يدل على أنّهم قد تركوا بصمتهم فعلا في هذا العلم الذي أصبح من أهم العلوم في وقتنا المعاصر، بل لا تزال أبحاث ودراسات علماء المسلمين في مجال الفلك مصدرا مهما ومرجعا أساسيا في كثير من الدراسات المعمّقة في علم الفلك لكونها قامت على الحجّة والدّليل والبرهان ممّا جعلها تحظى بأهمية كبيرة لدى دارسي علم الفلك في وقتنا المعاصر لاسيّما في الجامعات الغربية.

خامسا– في الفيزياء:

نظرا لأهمية علوم الفيزياء في تفسير كثير من الظواهر الطّبيعية والمسائل المتعلّقة بحركة الأجسام وسكونها وغيرها من الموضوعات المهمة التي تندرج ضمن تخصّص الفيزياء فقد أولى علماء المسلمين أهمية كبيرة لهذا التخصّص العلمي، حيث أجابوا من خلاله على كثير من الإشكالات العلمية التي واجهت البشرية آنذاك، كما استطاعوا أن يقدّموا تفسيرات علمية لكثير من الظواهر العلمية الغامضة التي لم يسبقهم إليها أحد، ولا غرو في ذلك فعلماء المسلمين القدامى قد جمعوا بين العديد من التّخصصات العلمية وهو ما مكنّهم من التّبحر في هذا التّخصّص العلمي والغوص في أعماقه

((145)) غادة عبد الرحمان جلوي المسعود، " **البيروني وإسهاماته المبكرة في معرفة قانون الجاذبية العام**"، مجلة المؤرّخ العربي، العدد32، المجلد 02، 2024، ص180.

واكتشاف غوامضه و جعلهم يحظون باهتمام كبير من قبل علماء الغرب المتخصّصين في هذا العلم.

ولا يخفى كذلك أنّ علماء المسلمين قد خاضوا غمار الفيزياء ببراعة وذكاء منقطعي النظير، وذلك حينما جعلوا علم الفيزياء يستند إلى التّجربة والاستقراء بدلا من الاعتماد على الفلسفة أو التّأملات والأفكار المتجرّدة التي كانت سائدة قبل ذلك، وقد نتج عن الاهتمام استنتاج نظريات جديدة وبحوثا مبتكرة مثل قوانين الحركة والقوانين المائية وقانون الجاذبية الأرضية، كما بحثوا في الوزن النّوعي للمعادن والسّوائل، واستطاعوا قياس الوزن النّوعي للسّوائل والذي يعد في وقتنا المعاصر على الرغم من التّفوّق العلمي أمرا عسيرا للغاية، وإلى جانب ذلك فقد طوّر علماء المسلمين نظريات وأفكار الفيزيائيين السّابقين، واستطاعوا أن يخرجوها من طور النظرية المجرّدة إلى طور التجربة العلمية والتي هي عماد هذا العلم وأساسه المتين[146].

ومن المواضيع الفيزيائية التي بحث فيها علمائنا المسلمين نجد "**علم الصوت** "من حيث منشأه وكيفية انتقاله، فكانوا أوّل من عرف أنّ الأصوات تنشأ عن حركة الأجسام المحدثة لها وانتقالها في الهواء على هيئة موجات تنتشر على شكل كروي، وهم -أي المسلمين- كذلك أوّل من قسّم الأصوات إلى أنواع وعلّلوا سبب اختلافها عن الحيوانات باختلاف طول أعناقها وسعة (اتساع)حلاقيمها وتركيب حناجرها، و حائط كما كانوا أوّل من علّل الصدى وقالوا: إنّه يحدث عن انعكاس الهواء المتموج من مصادفة عال كجبل أو حائط، أمّا في علم السّوائل فقد ألّف العلماء المسلمون فصولا متخصّصة في كيفية حساب الوزن النوعي لها، اذ ابتدعوا طرقا متعدّدة لاستخراجه،

((146)) راغب السرجاني، "**إسهامات علماء المسلمين في الفيزياء** "، انظر إلى الموقع الالكتروني الآتي: ww.blogonlyscience.com/2024/05/blog-post_95.html

وتوصّلوا إلى معرفة كثافة بعض العناصر، وكان حسابهم دقيقا ومطابقا أحيانا لما هو عليه الآن أو مختلفا عنه بفارق يسير[147].

وعلاوة على ما سبق فقد درس المسلمون الحركة في الهواء وفي الماء وكذا في الخلاء، كما استنبطوا كما ورد في كتاب "**المعتبر في الحكمة**" لهبة الله البغدادي أنّ الوسط يبطئ حركة الجسم السّاقط أكثر والأرق أقل كما تجده في حركة المتحرّك في الماء والهواء فإنّ حركته في الماء الذي هو أكثف من الهواء تحتاج إلى قوة أقوى وتكون في زمن أطول من زمان حركته في الهواء.كما عرف المسلمون خاصية حجر المغناطيس وجذبه للحديد واستفادوا منها في استخدام الإبرة المغناطيسية في رحلاتهم البحرية، ويعد كتاب "**الحيل**" لأبناء موسى بن شاكر الذي قال عنه ابن خلكان في وفيات الأعيان أنّه كتاب عجيب نادر يشتمل على كل غريبة، ولقد وقفت عليه فوجدته من أحسن الكتب وأمتعها، وهو أول كتاب ألف في الميكانيك –الذي هو فرع من فروع علوم الفيزياء– يتضمّن مائة عملية ميكانيكية عشرون منها ذات قيمة علمية كما ذكر ذلك ميرهوف، منها ما يعالج أمور الأوعية ذات المياه الحّارة والباردة والآبار ذات المستوى المائي المعين الثابت، ومنها كما يذكر فيدمان مصابيح متطوّرة عجيبة تدل على حذق عظيم عند التقنيين المسلمين بعضها صمم بحيث تعرّض إلى ريح عاصفة لا ينطفئ[148].

سادسا– في الرياضيات:

((147)) راغب السرجاني، **نفس المرجع السابق**.

((148)) عبد الله حجازي، "**تاريخ علم الفيزياء عند المسلمين**"، شبكة الألوكة، 2013/01/12.

لقد تضمّن تراث علماء المسلمين في مجال علم الريّاضيات قدرا كبيرا من التّطور ينم في الأصل عن مدى ما وصل إليه المسلمين من تقدّم في ذلك الوقت، فقد شغل مثلا حساب المثلثات قدرا كبيرا من اهتمام علماء المسلمين، حيث كانوا يعتبرون أنّ من أحسن التّعليم الابتداء بالحساب من طريق أعمال المسائل، ويقولون إنّ من أخذ نفسه بتعلّم الحساب أوّل أمره يغلب عليه الصّدق لما في الحساب من صحّة المباني ومنافسة النفس فيصير له ذلك خلقا ويتعوّد الصدق ويلازمه مذهبا زادت حاجة المسلمين إلى علم جديد من علوم الحساب يساعدهم في معاملات البيع والشراء بين الشّعوب مع اختلاف العملات والموازين ونظام العقود[149].

كما قد تجلّى اهتمام المسلمين وعنايتهم بعلوم الرياضيات من خلال على سبيل المثال تكليف الخليفة العباسي المأمون العالم المسلم محمد بن موسى الخورازمي عالم الرياضيات وهو أوّل عالم مسلم يكتب في الحساب الهندي، وقد طلب منه الخليفة المأمون التفرّغ لوضع وسيلة جديدة لحل المعادلات الصّعبة التي تواجه المشتغلين بالحساب فوضع كتابه "**الجبر والمقابلة**"، حيث تطرّق في هذا الكتاب إلى الحسابات وطرقها ابتداء من حساب محيط في الكرة الأرضية وقطرها وخطوط الطول والعرض في البلدان والمدن والمسافات بينها ثمّ مساحات الشّوارع والأنهار إلى مساحات الضياع والبيوت وحساب الوصايا والمواريث وتقسيم التركات المعّقدة والحسابات الفلكية، وحساب المعمار وكلّها كانت تواجه مشاكل وصعوبات في حسابها بطرق الأوليّن[150].

((149)) محمد اسماعيل بدوي، "**إسهامات علوم المسلمين في تقدّم العلوم الانسانية**"، المجلة الدّولية في البحوث الانسانية واللغوية، المجلد 04، العدد02،2021،ص52.

((150)) نفس المرجع، ص53.

وإلى جانب ما ذكرناه آنفا فالمسلمون والعرب يعدون اول من استخدم انماط الحساب التّقليدية التي نقلتها أوروبا عنهم بعد ذلك وأبرزها النظام الأصبعي (العد على الأصبع) والنظام الستيني (التعبير على الأرقام بالحروف الأبجدية) والنظام العشري حيث كان ذلك في القرن العاشر الميلادي ، بل برعوا في كتابة مؤلّفات في هذا الشّأن استعانت بها كل الحضارات في الشّرق والغرب، وتولّى تلك الأنماط الحسابية لأوروبا عدد من العلماء الغربيين الذين تلقوا على أيدي المسلمين منهم البابا الفرنسي سيلفستر الثاني المعروف باسم جيربرت الذي درس تلك العلوم في قرطبة أواخر القرن العاشر ثمّ انتقل بها إلى روما [151].

ولا يخفى كذلك أن العلماء المسلمين قد أبدعوا في الجبر فهم الذين أرسوا هذا العلم وعلى رأسهم العالم المسلم محمد بن موسى الخوارزمي صاحب الكتاب الشهير "الجبر والمقابلة " الذي يعد الموسوعة العالمية التي وضعت قواعد وأسس علم الجبر الذي أتاح للإنسان التّعامل بالأرقام والأحجام الهندسية بصفة عامة، وربما أهم شيء قدّمه العلماء المسلمين للعالم في مجال الرياضيات ابتكارهم للصفر (0) وهو التّحول الّذي نقل علوم الرياضيات عموما إلى منطقة أخرى من التّطور والإبداع[152]، واستطاعوا من خلال هذا الرّقم أن يحلوا كثيرا من المسائل الحسابية والرياضية المعقدة التي كانت قبل ذلك غاية في الصعوبة والتّعقيد.

كما استطاع علماء المسلمين أن ينقدوا ويفنّدوا كثيرا من الآراء والاجتهادات الرّياضية، حيث نجد ثابت بن قرة مثلا قد فنّد الآراء التي كانت مقبولة على نطاق

((151)) رندة عطية، " **المسلمون والرياضيات ريادة مبكرة وبصمة حاضرة حتّى اليوم**"، صحيفة نون بوست، 05أفريل 2022.

((152)) رندة عطية، **نفس المرجع**.

واسع والمنقولة عن أرسطو والتي مفادها أنّ مجموعة غير منتهية لا يمكن أن تكون جزء من مجموعة غير منتهية وكلاهما جزء من مجموعة غير منتهية أخرى، ومثّل على ذلك بأنّ كل مجموعة الأعداد الزوجية ومجموعة الأعداد الفردية تعتبر مجموعة غير منتهية وكلاهما جزء من مجموعة غير منتهية وهي مجموعة الأعداد الطبيعية، ومن جانب آخر يعد الكرخي أوّل من حرّر الجبر من العمليات الهندسية وعوضها بالعمليات الحسابية التي تعد اليوم جوهر الجبر، ونفس الشّيء بالنسبة لابن الهيثم الذي نبغ نبوغا عجيبا في علوم الرياضيات، حيث استخدم الرّياضيات في تطوير علوم البصريات ويقول عنه أحد المؤرخين الغربيين أنّ ابن الهيثم من علماء البصريات القلائل في العالم كلّه خلّف نحوا من سبعين مؤلّف في فنون شتّى معظمها في مجال الهندسة منها تربيع الدائرة، الأشكال الهلالية، مساحة الكرة.....الخ[153].

وفيما يخص الرّموز الرياضية فقد لعلماء المسلمين السبق في اكتشافها، حيث تشير الدراسات والتحقيقات العلمية أنّ ابى الحسن القلصادي كان أول من استنبط علامة وضع الجذر التربيعي في القرن الخامس عشر ميلادي، وذلك بعد جدل علماء الحساب في أمرها زمنا طويلا، كما له الفضل في وضع رموز جبرية أخرى بدلا من الإشارات مثل رمز (ج) للجذر و(ش) للشيء و(م) للمال و(ك) للمكعب و(ل) لعلامة يساوي وثلاث نقاط للنسبة، وكان أول من رسم الكسور بشكلها المتعارف عليه الآن، فقدّم بذلك القلصادي أكبر إنجاز في مجال الجبر، وقد سجل هذه الرموز في كتب كثيرة وأشهرها كتاب "كشف الأسرار". كما كان لابن قنفد القسنطيني عدّة منجزات رياضية ظهرت في كتابه الشهير "حط النقاب عن وجوه أعمال الحساب " حيث

((153)) حمدون الشيخ، "**الدور التاريخي للعرب في تطوير الرياضيات**"، مجلة رفوف، العدد 10، ديسمبر 2016، ص ص، 79-80.

تضمن هذا الكتاب عدّة إرشادات تعين الدارس على قراءة مؤلف ما ثم عمد فيه بعد ذلك إلى شرح كتاب التلخيص لابن البنا بتقديم الفقرة أو الجملة ثمّ شرحها رياضيا وأحيانا لغويا بالإضافة إلى البراهين والأمثلة، وممّا يميز هذا الكتاب هو استعمال ابن قنفد للرموز الرياضية لاسيّما في باب الجذور وتمثيل المعادلات الجبرية[154].

وفي الحقيقة لو استقصينا إنجازات العلماء المسلمين في مجال الرّياضيات لطال بنا المقام ولم نقدر عن إحصائها جميعا، لذلك فقد اكتفينا بإيراد بعض من تلك الإنجازات، وهو ما يهمنا في ذكر تلك الإنجازات والإسهامات هو تفنيد شبه ألصقت بديننا الإسلامي، ومن تلك الشُّبه الدّنيئة والسّخيفة أنّ الإسلام دين لا يهتم إلاّ بأمور الآخرة ولا يعتد بلعوم الدنيا أي أنّه دين رهبانية وزهد وصلاة وفقه وحسب بل أنّ هذا محض كتاب وافتراء على الإسلام بغية الحط من قدر الإسلام والمسلمين، وقد رأينا كيف ينسب الغرب اكتشاف كثير من العلوم لعلماء الغرب والأصل أنّ من اكتشفها وطوّرها هم المسلمون، لكنّهم يغيضهم تفوّق المسلمون عنهم، لأنّ ذلك يشعرهم بالنقص وحقارهم أنفسهم، لذلك فهم يخفون كثيرا من الحقائق العلمية حتّى لا ينكشف أمرهم بأنّهم لم يحرزوا السّبق في كثير من العلوم والمعارف كما يزعمون ذلك.

سابعا– في الجغرافيا:

في البداية يمكن القول إنّ اهتمام المسلمين بعلم الجغرافيا نابع في الأساس من دعوة ديننا الإسلامي إلى التّأمل في الكون والأجرام السّماوية وملكوت السّماوات والأرض

((154)) محمود جلودي، علاوة عمارة، "**خصوصية الانتاج المعرفي في الرياضيات لدى علماء المغرب الأوسط: الترميز الرياضي عند القلصادي وابن قنفد أنموذجا**"، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية "، المجلد الثامن، العدد04، أكتوبر 2023، ص ص، 127–131.

ومختلف الظواهر الطّبيعية التي تخضع جميعها لإرادة الله ومشيئته، والقصد من ذلك هو زيادة تعلّق العبد بربّه واكتشاف عظمة الخالق وقدرته على تصريف الأحوال كيف يشاء ومتى شاء، وهذا من شأنه كذلك أن يرد كثيرا من الخرافات والأباطيل مثل خرافة الطّبيعة هي التي تتصرّف في الكون وأنّه لا إرادة في هذا الكون إلاّ للمادة والطبيعة، يريدون بذلك تعطيل إرادة الله وقدرته على التّصرف في الكون، ولذلك فقد فنّد علماء المسلمين هذه التُّرهات من خلال علوم الشّرع ومن خلال علوم الكون كعلم الفلك وعلم الجغرافيا وغيرها من العلوم الدنيوية.

وفيما يلي نسوق إليكم أهم انجازات المسلمين في علم الجغرافيا على النحو الآتي[155]:

1-**خطوط الطول والعرض**: حيث يعد المسلمون أوّل من وضع خطوط الطول وخطوط العرض على خريطة الكرّة الأرضية ، وقد وضعها العالم أبو علي المراكشي (رحمه الله)(660هـ-1262م) وذلك لكي يستدل المسلمون على السّاعات المتساوية في البقاع المختلفة للصلاة، كما وضع البيروني قاعدة حسابية لتسطيح الكرة أي نقل الخطوط والخرائط من الكرّة إلى سطح مسطح وبالعكس، وبهذا سهلت عملية رسم الخرائط الجغرافية.

2-دوران الأرض حول نفسها: في الوقت الذي كان العالم لا يتخيّل أنّ الأرض عبارة عن كرة لم يكن هناك من يناقش مسألة دوران الأرض حول نفسها، ولكن ثلاثة من علماء المسلمين كان لهم السّبق في مناقشة فكرة دوران الأرض في القرن الثالث عشر

((155)) انظر إلى المقال المعنون ب: " **من إنجازات المسلمين في علم الجغرافيا**"، راجع الموقع الالكتروني الآتي: https: //ar.islamway.net/article/17367.

ميلادي (السابع الهجري) وهم: علي بن عمر الكاتبي، وقطب الدين الشيرازي من بلاد الأندلس وأبو الفرج علي من الشام (بالتحديد من سوريا) فقد هؤلاء الثلاثة أوّل من أشار في التاريخ الانساني إلى احتمالية دوران الأرض حول نفسها مرّة كل يوم وليلة، وفي هذا الصّدد يقول سارتون في كتابه الموسوم ب "مقمة في تاريخ العلم": إنّ أبحاث هؤلاء الثلاثة في القرن الثالث عشر لم تذهب سدى بل كانت أحد العوامل التي أثرت على أبحاث كوبرنيكوس في نظريته التي أعلنها سنة 1543م.

3-علم الخرائط: لقد تفوّق مرّة أخرى علماء المسلمين في مجال الخرائط والبيانات الجغرافية وا160هموا إسهاما كبيرا في تطوير هذا العلم، حيث يعد مؤلف الإدريسي مرجعا مهما لكل من أتى بعده لمعرفة الخرائط الجغرافية ونعني بذلك كتابه الشهير ب "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق "، وقد ترجم علماء الغرب وطبعوه عدّة طبعات، حتّى ظل هذا الكتاب مصدرا أساسيا لدارسي الجغرافيا الأوروبيين على مدار أكثر من أربعة قرون كاملة. وقد صمّم الإدريسي خريطته على الطريقة العربية في ذلك الوقت، حيث بدأ في تلك الخريطة بالجنوب في أعلاها، ثمّ انتقل إلى الشمال في أسفلها، كما تتكوّن الخريطة من سبعين (70) ورقة تصل إلى نحو خمسة أمتار مربعة، وقد قام العالم الألماني المدعو كونراد ميلر بنشر نسخة ملوّنة سنة 1928م بعد أن بذل جهدا مضنيا من أجل تجميع مختلف أجزائها، كما ترجم الأسماء العربية إلى الألمانية، وقد اهتم المجمع العراقي بهذا الكتاب فعمل الباحثون المنستبون إلى هذا المجمع على مراجعة وتدقيق كل النسخ الموجودة في العالم، وأخرجوا خريطة الإدريسي وطبعوها سنة 1951م وهي بطول مترين وعرض متر واحد.

وفي علم الخرائط دائما يشهد أحد أعمدة علماء الغرب عن تمكن العرب من هذا العلم وهو غوستاف لوبان الفرنسي، حيث صرّح قائلا: "**يكفي أن نشير إلى ما حقّقه**

العرب في علم الجغرافيا لإثبات قيمتهم العالية فالعرب هم الذين عيّنوا بمعارفهم الفلكية مواقع الأماكن تعيينا مضبوطا في الخرائط، فصحّحوا بذلك أغاليط علماء اليونان، والعرب هم كذلك الّذين نشروا رحلاتهم الممتعة عن بقاع العالم التي كان يشك الأوروبيون في وجودها، والعرب هم الذين وضعوا الكتب الجغرافية لتي جاءت ناسخة لما تقدّمها من كتب، فاقتصرت أمم الغرب عليها وحدها قرونا كثيرة ". فانظروا إذن إلى هذه الشهادة التي أدلى بها أحد أساطين علماء الغرب المنصفين، وليس ذلك بعجيب أو غريب فعلماء الإسلام علّموا الدّنيا كل ما يحتاجون إليه، وهم الذين بذروا مناهج العلم الدّقيقة وأساليب الاستباط والاستدلال الصّحيحة المبنية على الحجج والبراهين السّاطعة، فكانوا بحق قدوة لغيرهم ونبراسا لغيرهم من الأمم والحضارات لقرون من الزمن بل إلى يومنا هذا.

ويضاف إلى هذه الانجازات التي حقّقها العلماء المسلمون –على مدار تاريخ الحضارة العربية الإسلامية – انجاز آخر متعلق بتأليف المعاجم الجغرافية وأهم هذه المعاجم ما وضعه البكري أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز المولود في قربطة سنة 432هـ صاحب المعجم الجغرافي الشهير "**معجم ما استعجم**" وقد اعتمد البكري على مجموعة كتب مثل كتب الجغرافي الأندلسي محمد التاريخي، وهناك معجم جغرافي آخر مهم لاسحاق بن حنين الاندلسي بعنوان" **آكام المرجان في في ذكر المدائن المشهورة بكل مكان**"[156]، ولا شكّ أنّ هذين المعجمين وغيرهم كان لهم فضل كبير في تسهيل واكتشاف الأقاليم الجغرافيا ومن ثم سهولة التنقل إليها، وقد أدّى هذا إلى

((156)) خليف مصطفى غرايبة، "**الرحلات الجغرافية في التراث العربية الاسلامي في القرنين الرابع والخامس الهجريين** "، مجلة حوليات التراث، العدد11، 2011، ص120.

تطوّر حركة التّجارة والتبادلات الاقتصادية بين الأمم، فضلا عن اكتشاف ثقافات وعادات العديد من الأمم والشعوب.

ومن جهود علماء المسلمين كذلك في الجغرافيا هي تقسيمهم الأرض إلى سبعة أقسام سموها أقاليم ابتداء من خط الاستواء واختلفوا في مدى الحّد الذي تنهي عنده أقصى الشمال، وكل هذا مستمد من كتاب بطليموس، وقد أضاف الإدريسي أقليم ثامن يمتد جنوب خط الاستواء، وهو الّذي ينبع منه النيل، كما قسّم الإدريسي كل إقليم إلى عشرة أقسام متساوية من الغرب إلى الشرق ووضع لكل من الأقسام السبعين خريطة [157].

ثامنا– في البصريات:

في الحقيقة هناك العديد من العلماء المسلمين الذين برعوا وتخصّصوا في هذا العلم الفريد والبالغ الأهمية كالحسن ابن هيثم إلى جانب كل من قسطا بن لوقا مؤلف كتاب "في علل ما يعرض من في المرايا المحرقة من اختلاف المناظر" وأبو اسحاق الكندي الذي ارتبط اسمه بأرع مؤلّفات في علم المناظر والانعكاسات وثلاثة مؤلفات تعالج المرايا المحرقة وطرق انشائها وثلاثة أخرى في علم المناظر الفيزيائين، وتعد هذه الأعمال العلمية بمنزلة الخطوات الأولى للبحث في علم البصريات وانعكاس الضوء عند العرب، حيث توالت الكشوفات وتتابعت البحوث في هذا المجال مما مهّد الطريق أمام الحسن

((157)) ابراهيم محمد أحمد البلولة، "**اسهامات علماء السلمين في تطور علم الجغرافيا** "، انظر إلى الموقع الالكتروني الآتي: https: //arabprf.com/?p=3142

بن هيثم لتطوير علم المناظر (البصريات) الذي أخذ معه منحى جديدا خاصة على مستوى الموضوع والمنهج[158].

وإضافة إلى ما سبق ذكره بأنّ الحسن بن الهيثم هو أحد أعمدة علم البصريات فإنّه رحمه الله ألّف كتباه الشّهير المناظر الذي تطرّق فيه إلى جملة من المواضيع المتعلّقة بعلم البصريات، كما حاول من خلاله أن يضع أساس علمي لعلم الضوء يبطل فيه الأسس التي قام عليها علم الضّوء القديم، وهذا ما عبرّ عنه بقوله: "**والواجب على النّاظر في كتب العلوم إذا كان غرضه معرفة الحقائق أن يجعل نفسه خصما لكل من ينظر إليه، ويجيل فكره في متنه وفي جميع حواشيه، ويخصمه من جميع جهاته ونواحيه ويتهم أيضا نفسه عند خصامه فلا يتحامل عليه ولا يتسامح فيه، فإنّه إذا سلك هذه الطريقة انكشفت له الحقائق، وظهر ما عساه وقع في كلام من تقدّمه من التقصير والشبه**" انتهى كلامه ويظهر من هذا الكلام أن الحسن بن هيثم أنّ كانه يتحرّى الدقّة العلمية المتناهية، وأنّه كذلك كان يلزم نفسه بالدّليل الصّحيح ولم يكن مجرّد ناقل أو مقلّد في هذا العلم، وهذا ما أوصله إلى الدرجة العلمية الكبيرة التي وصل إليها وجعلته بحق أحد أساطين تخصص علم الضوء والبصريات، لذلك كانت أبحاثه مرجعا أساسيا مهما في البحوث والدراسات المتعلّقة بعلم البصريات، وما ذلك إلاّ بسبب دقّة ملاحظاته وصحّة استنتاجاته واستنباطاته العلمية [159].

((158)) عبد العزيز خيرة، "**الابداع العلمي في البصريات عند ابن هيثم بين النظر والعمل** "، المجلة العربية للأبحاث والدراسات في العلوم الانسانية والاجتماعية "، المجلد 15، العدد 01، جانفي 2023، ص 552.

((159)) عبد العزيز خيرة، **المرجع السّابق**، ص 554.

وفيمل يلي نسرد لكم أهم انجازاته في علم البصريات على النحو الآتي[160]:

-برهن أن الرؤية تحدث جرّاء الأشعة الضوئية التي تنبعث من الجسم المرئي إلى عين المبصر.

-برهن انّ الشعاع الضوئي ينتشر في خط مستقيم وفي وسط متجانس.

-اكتشف ظاهرة انعكاس النور، كما اكتشف ظاهرة انعطاف الأشعة الضوئية.

-وضع بحوث ذات قيمة كبيرة في مسألة تكبير العدسات (وقد كان لهذا الانجاز دور كبير جدا في علوم البكتيريا والميكروبات والفيروسات التي لا ترى بالعين المجردة وأسهم بذلك في تشخيص كثير من الأمراض المعقدة بواسطة هذه التقنية).

-شرّح العين تشريحا وافيا وبين وظيفة كل قسم منها.

ومن انجازاته العلمية كذلك نذكر ما يلي[161]:

- شرح ابن هيثم طبيعة الضوء والرؤية من خلال استخدام غرفة مظلمة أسماها "**البيت المظلم**" وقد شكل ذلك الأساس للتصوير الفوتوغرافي.

-أدرك أنّ لون الشّيء يعتمد عللى لون المنطقة المحيطه به وان تباين مستوى السطوع يوضح لماذا لا نستطيع رؤية النجوم في أثناء النهار.

((160)) مروان القدومي، "**دور ابن الهيثم في البحث العلمي** "،**مجلة جامعة النجاح للأبحاث**"، المجلد 16، العدد2002،01، ص07.

((161)) حسان ماحي، "**ماذا تعرف عن رائد علم البصريات الحسن بن الهيثم**"، صحيفة نون بوست، 2016/11/26.

– درس ابن الهيثم العدسات والمرايا المختلفة المطسحة والكروية والمكافئة والأسطوانة المقعرة والمحدبة.

–أكّد انّ الأشياء تبدو اكبر من حجمها الحقيقي إذا ما نظرنا إليها من خلال انكسار الضوء أي عبر الماء والزواج.

–أكّد أن الوهم البصري هو السّبب في ظهور القمر كبير جدا عندما يكون منخفض في السّماء بالقرب من الأفق بالمقارنة بحجمه عندما يكون في أعلى السّماء.

–نقض نظرية العالمان اليونانيان بطليموس وإقليدس القائلة بأن رؤية الجسم تنشأ بسبب خروج شعاع ضوئي من العين يصل إلى الجسم المرئي تصل إلى العين ومنها تنتقل بواسطة الجسم الشفّاف أي العدسة، وهكذا يرى الانسان ما يحيط به من أشياء[162].

– أكّد أنّ الضّوء شيء مادي ولذلك فهو يرتد إذا وقع على الأجسام الصّقيلة، فالضّوء إذا لقي جسما صقيلا فهو ينعكس عنه من أجل أنّه متحرّك، ومن أجل أنّ الجسم الصقيل يمانعه ويكون رجوعه في غاية القوة لأنّ حركته في غاية القوّة ولأنّ الجسم الصقيل يمانعه ممانعة فعالة [163].

– أنّه حسب الانعكاس الذي يحدث في قطاع المرآة الكروية أو المخروطية أي الاشعاعات المتوازنة التي تلتقي في نقطة الاحتراق، وفحص أثر الحرق وتكبير المرئيات

((162)) عمر هلسة،"**أعلام الحضارة ابن الهيثم رائد البصريات**"، صحيفة الرأي،2008/09/14.

((163)) محمد بدوي اسماعيل، " **العلوم عند العرب في القرنين الثالث والرابع الهجريين /التاسع والعاشر الميلاديين** "، المجلة الدولية للعلوم الانسانية وأبحاث اللغات، المجلد 05، العدد02، 2022،ص36

ليس بواسطة المرآة المقعرة بل بواسطة الزّجاج الحارق والعدسة بذلك كان من ثمرة جهوده تلك صنع أوّل نظارة للقراءة [164].

هذه باختصار بعض انجازات العالم النحرير الحسن بن هيثم الذي ذاع صيته في الآفاق وسمع به أهل المشرق والمغرب وأقر بأحقيته وجدارته في البحث العلمي الأصيل القاصي قبل الداني، وقد رفع راية الإسلام عالية وصار مرجعا أساسيا في كثير من الدراسات العلمية وبخاصة علوم الضّوء والبصريات، وكم نتمنى أن نسترجع هذا المجد التليد الذي تراجع في القرون الأخيرة بسبب انكبابنا إلى شهوات الدنيا الفانية وتقصيرنا في إصلاح أنفسنا ومناهجنا العلمية التي باتت أكثر من ضرورة في وقتنا المعاصر، ونحن لا نشك البتة أن يسترد المسلمون في يوم من الأيام مشعل الحضارة العربية الإسلامية من جديد وليس ذلك بعزيز عليهم لأنّ دينهم الإسلامي هو مصدر عزهم وتفوقهم على اعدائهم بشرط أن يستمسكوا بتعاليمه الغرّاء في الظاهر والباطن وفي العقيدة والسلوك والمعاملات، وهو ما نأمله إن شاء الله، ولن نعدم من الأمة الإسلامية خيرا مهما كان تأخرهم، لأنّ سنة الله أن ينصر عباده المؤمنين على أعدائهم إن هم اتبعوا تعاليم الدين الإسلامي ووقفوا عند حدود الشرع الإسلامي.

تاسعا- في الطيران:

قد يقول قائل أنّ علوم الطيران لا علاقة لها البتة بالمسلمين الأوائل لكونه علم حديث ظهر مع التفوق الصناعي الذي شهدته أوروبا في القرون الأخيرة، والذي تزامن مع التطور التكنولوجي الذي شهده العالم بشكل تدريجي، ولكن الحقيقة غير ذلك فقد كانت المحاولات الأولى لصناعة الطائرات والمرّكبات الفضائية للعالم المسلم عباس بن

((164)) نفس المرجع،ص37.

فرناس[165] الذي كان له الفضل في وضع قواعد وأسس علم الطيران رغم قلّة الإمكانات في زمانه رحمه الله.

وقد قام عباس بن فرناس بتجارب كبيرة درس خلالها ثقل الأجسام ومقاومة الهواء لها وتأثير ضغط الهواء فيها إذا ما صعدت في الفضاء وحلّقت فيه، وكان رحمه الله خير معين في هذه التّجارب العلمية هو تبحرّه في العلوم الطبيعية والرياضيات والكيمياء ممّا مكنه ذلك من الاطّلاع على خواص الأجسام، وجمع من المعلومات الأمر الّذي شجّعه على أن يجرّب الطيران الحقيقي بنفسه، حيث كسا نفسه بالريش الذي اتّخذه من الحرير الأبيض لمتانته وقوته، وهو يتناسب مع ثقل جسمه وصنع له جناحين من الحرير أيضا يحملان جسمه إذا ما حرّكمها في الفضاء، وبعد أن تمّ له ما يحتاج إليه في هذا العمل الخطير وتأكّده من استطاعته إذا ما حرّك هذين الجناحين

((165)) **عباس بن فرناس** هو شخصية إسلامية برعت في العديد من العلوم، وقد ولد عبّاس بن فرناس بن ورداس العالم الأندلسيّ المسلم في مدينة روندا (بالإسبانية: Ronda) التي تقع في مقاطعة ملقا جنوب الأندلس –إسبانيا اليوم– عام ثمانمائةٍ وعشرة ميلادية لعائلة من أصول أمازيغية، اشتُهر بمحاولته للطيران، وعُرِف عنه أنّه قضى معظم عُمره في طلب العلم مُتنقِّلاً من بلد إلى بلد، والتحق بدار الحكمةِ في بغداد، ودرس فيها العديد من العلوم، كعلم الفلك والنجوم، وعلوم الهندسة، والموسيقى، إلى جانب ما درسَه في علم الفيزياء،شأً عبّاس بن فرناس في الأندلس التي كانت تُحكَم من قِبل المسلمين آنذاك، وكانت مركزاً للعلم والعلماء، وقد تنوّعت اهتمامات ابن فرناس خلال حياته، فقد اهتمّ بالشعر العربي والفلسفة، والفيزياء، والهندسة، إلّا أنّه كان أكثراهتماماً بالهندسة، والاختراعات، ويُشار إلى أنّ اهتمامه بالاختراعات بدأ منذ طفولته؛ حيث تميّز بالموهبة، والفضول؛ فكان يحبّ تفكيك الآلات، وإعادة تركيبها مرة أخرى، أمّا عن اهتمامه بالطيران فقد بدأ عندما وجد أنّ المهندس آرمن فيرمان كان قد حاول الطيران بالمظلّة إلّا أنّه فشل، الأمر الذي استغرق منه ثلاثة وعشرين عاماً قبل أن يصمّم أوّل آلة طيران تُمكّنه من الطيران.

فإنّهما سيحملانه لطير في الجو كما تطير الطيور ويسهل عليه التنقل بهما كيف يشاء[166].

وبعد أخذه كل الاحتياطات وتحضيره لكل المستلزمات أعلن أمام العلن رغبته في الطّيران في الفضاء وأن منطلقه سيكون في منطقة الرّصافة في ظاهر مدينة قرطبة فاجتمع الناس هناك لمشاهدة هذا العمل الفريد الّذي لم يسبقه أحد قبله، فصعد عباس بن فرناس بآلته الحريرية فوق مرتفع وحرّك جناحيه ثمّ قفز في الجو وطار في الفضاء مسافة بعيدة عن المكان الّذي انطلقق منها والناس ينظرون إليه بدهشة وإعجاب، وعندما همّ بالنزول إلى الأرض تأذّى ظهره من السقوط، وعلى كل حال فقد كانت محاولات عباس بن فرناس في الطيران والتّحليق في الفضاء بداية الطريق لولوج عالم الفضاء.

وخلاصة نظرية عباس بن فرناس للطيران أنّ الجسم وما يحمله لابد أن يكون خفيفا بغية التّغلب على الجاذبية الأرضية، فعندما يلقي بنفسه مندفعا للأمام من شاهق أو مكان مرتفع فسيحمله الهواء على متنه، وهذه النّظرية يقوم بتطبيقها اليوم كثير من هواة الطيران، وهو ما يعرف بالطيران الشّراعي الخفيف المجنّح، ويمارس هذا النوع من الطيران على نطاق واسع من فوق أماكن مرتفعة وفق نظرية ابن فرناس نفسها مع إجراء بعض التعديلات الطفيفة عليها كتركيب الذيل للآلة الحديثة.

((166)) صلاح عبد الستار الشهاوي، "**عباس بن فرناس، أول رائد فضاء في التاريخ**"، مجلة حواء، العدد27، 2018/09/05.

عاشرا– في علم الزّراعة:

لقد اهتمّ علماء المسلمين بعلم الفلاحة منذ فجر الحضارة العربية الاسلامية، وقاموا بترجمة العديد من المؤلّفات في هذا التّخصّص إلى اللّغة العربية، كما نقلوا مؤلّفات الكلدانيين واليونايين والرومان للعربية وأصبحت هي الأساس الأوّل لعلوم الفلاحة والزراعة، وقد استخدم علماء المسلمين المنهج العلمي الدّقيق القائم على التّجربة لتطوير هذا العلم، حيث أجروا التّجارب العملية بالزّرع والحصد والمراقبة والتسجيل، ومن ثمّ فقد ظلّت مؤلّفات الفلاحة العربية تنسخ وتتداول مخطوطة حتّى منتصف القرن التاسع عشر، كما ترجمت العديد من مؤلّفات المسلمين في هذا المجال ونشرت في سان بطرسبرغ في منتصف القرن التاسع عشر، أي أنها كانت اللّبنة الأولى والأساس لعلم الفلاحة عند الغربيين، وقد برز علماء الفلاحة المسلمين في جميع حواضر العالم الإسلامي من الهند حتّى الأندلس وبقيت معتمدة ومتداولة إلى غاية منتصف القرن التاسع عشر حين بدأت تحقّق[167] وتطبع بالوسائل التّكنولوجية الحديثة.

وقد درس العلماء المسلمون أنواع الأراضي الزّراعية (من حيث الجودة والخصوبة والانتاجية) والمحاصيل المناسبة لكل نوع من الأراضي، والتّوقيت المناسب لكل محصول وكيفية علاج أمراضه ومواعيد الغرس والحصاد وأنواع المياه والاستدلال عليها وتربية الحيوان وكيفية علاجه وغيرها من الأمور المتعلّقة بالفلاحة والرّي وسقي المحاصيل الزراعية [168]، ورغم تقدّم العلوم التقنية اليوم في مجال الزّراعة أو الفلاحة فلا يزال

((167)) يحي محمد محمود أحمد، "**علم الفلاحة عند المسلمين**"، مجلة الدراسات الانسانية والأدبية،العدد 27، يونيو 2022،ص423.

((168)) نفس المرجع، ص423.

علماء المسلمين يبدعون ويكتشفون العديد من العلاجات لأمراض النباتات التي عجز علماء الغرب عن اكتشافها، وقد اطّلعتُ على تقرير إعلامي لصحافي جزائري مقيم بالغرب يتحدّث من خلاله عن عالم جزائري مختص في الزّراعة كيف كان له الفضل والسّبق في اكتشاف أمراض مستعصية تصيب أوراق النباتات، حيث تمكّن من تشخيص تلك الأمراض بدقّة متناهية،ووضع لها علاجات أثبتت نجاعتها، ما جعله يحظى باعتراف واحترام كبير جدا من قبل الدول الغربية، الأمر الذي جعلهم يسابقون الزّمن للاستفادة من خبرته في هذا المجال، مع العلم أنّه درس في جامعة الجزائر في البداية ثمّ واصل دراساته العليا بالجامعات الغربية، وهذا عيّنة صغيرة فقط وإلاّ فالعالم العربي والإسلامي يزخر بأمثال هذا العالم بلا عدد ولا حصر.

حادي عشر– في علم الجيولوجيا:

لقد أبدع علماء المسلمين في تفاصيل هذا العلم ودرسوه بدقّة واتقان وتفنّن، حيث اختصّ كل واحد منهم بجزئية معيّنة وقاموا بتقسيمه إلى عدّة فروع وهي علم الصّخور والأحجار الكريمة والزلازل والبراكين والمياه الجوفية والأزمنة الجغرافية (153) وغيرها من المواضيع المرتبطة بهذا العلم، وتكمن انجازات المسلمين في هذا العلم في كونهم هم من وضعوا مصنّفات حوت شروح وافية ودقيقة لكل فرع من فروع هذا العلم، حيث نجد مثلا العالم أبو عبد الله زكرياء القزويني قدّم في كتابه البديع "**عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات**" معلومات جيولوجية مهمّة مثل كيفية تكوين الصّخور، ومن جملة ما أكّد عليه في هذا الشأن قوله: الأحجار هي أجسام تتولد من مياه الأمطار

والأنواء التي احتبست تحت الأرض وإن كانت شفافة أو من امتزاج الماء بالأرض إن كان الطين فيه لزوجة وأثّرت حرارة الشمس فيه تأثيرا شديدا[169].

كما وردت في هذا الكتاب نظريات جيولوجية صحيحة استفاد منها علماء أوروبا وعلى رأسهم العالم الجيولوجي تشارلز لايل صاحب كتاب أصول علم الجيولوجيا 1830م حيث صرّح بأنّ أفكار القزويني الجيولوجية صارت متداولة بين علماء الغرب بواسطة هذا الكتاب الآنف ذكره، وفي ذات السّياق أشاد المستشرق الفرنسي غوستاف لوبون بإنجازات القزويني في علم الجيولوجيا بقوله: " **وشاعت نظرية تطوّرات وجه الأرض بتنقل البحار وتحوّل شكل الأرض بين العرب شيوعا تدخل به في أذهان الشعب كما نعلم ذلك من كتاب القزويني**"، ومن جانب آخر فقد وضع علماء المسلمين تصنيفات دقيقة وعلمية لخواص الأحجار وعرفوا أماكن وجودها وانواعها ودرسوا كذلك علاقة البحر بالأرض والأرض بالبحر وما ينشأ عن هذه العلاقة من تكوين للصّخور ومدى تأثرها بعوامل التعرية[170].

كما كانت لهم اهتمامات ومتابعة لدراسة الأحجار الكريمة فجاءت الدراسة التي قدّمها عطارد بن محمد البابلي البغدادي المتوفى سنة 206 هـ والتي اعتبرت أوّل دراسة عربية في مجال الأحجار الكريمة وخصائصها وهو كتاب "**منافع الأحجار**" أو كتاب "**الجواهر والأحجار**" حيث أبدى فيه اهتمام خاص بالماس، كما ذكر فيه ما يربو عن أربعين حجرا، وهذا العدد يزيد على ما ذكره علماء اليونان بنحو الضعف كما كان

((169)) هدى حسن محمد، فرج عبد الرحيم فرج، "**إسهامات علماء المسلمين في علم الجيولوجيا**"،مجلة جامعة السلام الدولية للعلوم الانسانية والتطبيقية، العدد07، يوليو 2021، ص ص، 153-154.

((170)) هدى حسن محمد، فرج عبد الرحيم فرج، **نفس المرجع**، ص155.

أول عالم عربي سجل خاصيتين أساسيتين من من خواص الأحجار هما خاصية الصلادة حين وصف بعض الأحجار بالرّخاوة مميّزا لها عن سواها من الأحجار غير الرخوة أي الصلدة، والخاصية الثانية وهي الدهنية وهي التي يعبر عنها بالدّسامة، كما كان لهذا الكتاب أهمية فنية غير عادية لأنّه احتوى على عدد من الصور التخطيطية غير الملوّنة للأحجار الكريمة التي يبلغ عددها 35 صورة[171].

وبخصوص الزّلالزل فقد أسهم فيه علماء المسلمين اسهاما علميا لا ينكر ففي الوقت الذي كان يرجع علماء اليونان الزلازل إلى رياح تحتية خفية أو إلى نيران في أعماق الأرض داء أول وصف ودراسة علمية دقيقة حول هذه الظاهرة من خلال كتب علماء المسلمين في القرن الرابع الهجري حيث قدّم إخوان الصّفا مثلا في كتابهم "**رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء**" أسباب حدوث الزلالزل إلى الضّغط الحراري الذي يحدث في باطن الأرض نتيجة تبخر المياه الجوفية وهو ما يؤدي بدوره إلى انهيار طبقات الأرض وينتج عنها في النهاية هزة أرضية وهذا ما أكدته الدراسات الحديثة في هذا التخصص[172].

وعلاوة على ما سبق فقد حوت كذلك مؤلّفات البيروني العلمية أبحاث عميقة حول موضوع تكون القشرة الأرضية، وما طرأ على اليابسة والماء من تطورات خلال الأزمنة والأحقاب الجيولوجية المتطاولة، كما كانت له نظريات مستقلة في قدم الأرض وما اعتراها من براكين وزلازل وعوامل تعرية غيرّت من وجهها الطبيعي على مر العصور، وهذه الآراء لم تكن معلومة في عصره او سائدة في زمانه، وهي ممّا يعد اليوم من دعائم علم الجيولوجيا، وقد أحصى أحد الباحثين المتخصّصين في الجيولوجيا

((171)) **نفس المرجع**، ص 155-156.

((172)) **نفس المرجع**، ص156.

أبحاث البيروني الجيولوجية فشملت علم التّضاريس وعلم الطبقات وكيمياء الأرض والمعادن والبلورات والجيولوجيا التاريخية، وتقترب نظرياته في هذه العلوم من النظريات الحديثة، حيث له آراء صائبة وسديدة في تكوين القشرة الأرضية، وما طرأ على اليابسة والماء من تطورات وتغيرات خلال الأزمنة والأحقاب الجيولوجية المختلفة، ولم تكن هذه النظريات معروفة عند اليونان ولا منتشرة بين معاصريه، وهو يعد من روّاد العلوم الجيولوجية وبخاصة أنّ هذه الأفكار العليمة الصائبة لم تنتشر في أوروبا وتأخذ طريقها إلى أبحاث علماء النهضة كليونارد دافنشي وأمثاله إلاّ بعد وفاة البيروني بعدّة قرون[173].

وفي الحقيقة لو استرسلنا في الحديث عن انجازات الحضارة العربية الإسلامية أو اسهامات علماء المسلمين في مختلف العلوم لطال بنا المقام وما أمكننا الإشارة إليها جميعا لكثرتها ولخوض علماء المسلمين في كل مجالات العلوم والحياة، وقد ضمّت العديد من كتب الحضارة العربية الإسلامية جوانب مهمة من تلك الإنجازات، وهذا في الحقيقة يدل على أنّ الحضارة العربية الإسلامية قد جمعت بين الدين والدنيا ووفقت بين الجانب الروحي والجانب المادي للحضارة، وهذا الّذي جعلها تحظى بأهمية كبيرة في دراسات وأبحاث المستشرقين والمؤرّخين والمهتمين بصفة عامة بالتراث العربي الإسلامي خلال القرون الذهبية للحضارة العربية الاسلامية.

ويحسن بنا في ختام حديثنا عن إنجازات الحضارة العربية الإسلامية أن نقول بأنّ حديثنا السّابق عن تلك الانجازات شمل الجانب المادي فحسب، ولذلك فإنّ للحضارة العربية الإسلامية إنجازات كذلك معنوية وثقافية وأخلاقية، فالأخلاق مثلا انتشرت بين

((173)) أحمد جدوع رضا الهيتي، "**عالم الجيولوجيا: أبو الريحان محمد البيروني (362هـ-440 هـ/7972م-1048م)**"، منشورات شبكة الألوكة الثقافية، 2015/05/20.

المسلمين في تلك الأزمنة لا تقل أهمية عن المنجزات المادية بل هي أعظم منها على وحدة المسلمين واستقرارهم، فقد أسّس نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم من بعد نظاما اجتماعيا فريدا لم ترّ البشرية مثله من قبل، حيث أرست الشّريعة الإسلامية أحكاما وتعاليما راقية جدا شهد بها العدو قبل الصديق ، كما دعت إلى أخلاق فاضلة ونادرة كأخلاق الوفاء والتّسامح ووالتواضع والإيثار والإنفاق في سبل الخير ونصرة المظلوم وإعانة المعوزين والفقراء والمحاويج، كما حاربت الشريعة الإسلامية جميع مظاهر الشرك والافتخار بالأنساب والظلم ونعرات الجاهلية وسفك الدماء وسلب أموال الغير وغيرها من الأخلاق الذميمة، وهذه التّشريعات والأحكام والأخلاق نعدّها بلا مغالاة أساس الحضارة العربية الإسلامية وجوهرها الحقيقي.

وإذا تأمّلنا حقيقة حضارة العربية الإسلامية نجدها كذلك قد رفعت من مقام العبيد الذين أسلموا واخلصوا العبادة لله كبلال الحبشي وصهيب الرومي وغيرهم ووضعت (حطت) من مقام سادات قريش الذين نصبوا العداء لديننا الإسلامي ولسيّدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأرادوا أن يهدموا الإسلام من أساسه وقاعدته كأبو جهل وأبو لهب وعتبة بن ربيعة والوليد بن مغيرة والحارث بن عامر وغيرهم كثير، فالعبرة إذن ليست بشرف القبيلة أو بلون البشرة أو بكثرة المال أو الجاه والمكانة الاجتماعية إنّما بمكارم الأخلاق وحسن الطوية و الامتثال لأوامر ونواهي الله عزو وجل، واتباع منهج سيّد البرية محمّد عليه أفضل الصّلاة والسّلام، فهذه هي الحضارة الانسانية الحقّة وهذه هي أسس العدل الحقيقية وما سوى ذلك باطل وبهتان وظل زائل.

المبحث الثاني: الحضارة الإسلامية تتفاعل أم تتصادم مع الحضارات الأخرى

الأصل في الحضارة الإسلامية أنّها تنتفع بعلوم وانجازات الحضارات الأخرى ما لم يكن في ذلك محظورا شرعيا أو مخالفة لتعاليم الدّين الإسلامي، وهذا من الفطنة والكياسة وحسن التّدبير والسياسة، فالانفتاح على علوم وحرف المجتمعات الأخرى إن كانت فيه مصالح دنيوية أو دينية فهذا مرحّب به بل قد يصبح ذلك ضرورة إذا انعدمت بعض الحرف أو العلوم في البلاد الإسلامية والنّاس بحاجة إليها، فإنّ دراستها وتعلّمها عند ذلك يخدم الحضارة الإسلامية والمجتمعات الإسلامية، والمقصود أنّ الحضارة العربية الإسلامية تتفاعل مع الحضارات الأخرى في جوانب دون غيرها، فإذا كان الأمر يتعلّق بالدّين والعقيدة وتغيير تعاليم الدين الإسلامي وتحريفها فإنّ الحضارة الإسلامية توصد الباب أمام أي جهة تروم تحقيق ذلك، لأنّ ذلك يفضي إلى مفاسد كبيرة ومخاطر جسيمة على المسلمين بشكل عام.

وكما يقول أحد الباحثين: "**لقد استفادت الحضارة الحضارة العربية الإسلامية من ثمرات الحضارات الأخرى دون أن ينال ذلك من تميّزها أو يؤثّر عليها أو يصطدم مع الشّرع في مجال العقيدة أو السلوك،لأنّ الإسلام لم يمنع من التّعامل أو الانفتاح مع الحضارات الأخرى (إذا لم يكن هناك تعارض جلي بين ما يدعو إليه الدين الإسلامي وما تدعو إليه تلك الحضارات) ونجاح الحضارة الإسلامية في التواصل والتّفاعل مع غيرها يرجع إلى كونها حضارة انسانية مرتبطة بعقيدة لا تفرّق بين الناس في الأصل أو اللون أو القطر (البلد)، بل ميزان حكمها عليهم بالتّقوى والعمل الصالح مصداقا لقوله تعالى: "إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم**..."[(174)]، كما أنّ

((174)) سورة الحجرات، الآية 13.

الاسلام لم يأمر أتباعه بالانعزال عن الآخرين مطلقا، بل قد حثّهم من الاستفادة (في أمور الدُّنيا ومصالح الناس ومعايشهم) من الحضارات الأخرى، وقد أمر نبيّنا محمد صلى الله عليه أصحابه بتعلم الفارسية والرُّومية اللغتين اللّتين كانتا مسيطرتين على العالم وقتها، كما قام الصّحابة والتابعين وتابعي التابعين بتعلّم القبطية والسريانية والعبرانية والهندية وغيرها من اللّغات المنتشرة آنذاك وكان ذلك سببا في نقل التقدّم العلمي والصّناعي والثقافي والإداري [175]، ولم يخدش ذلك في الإسلام ولم يؤثّر فيه ولم ينقص منه شيئا، فالتّفاعل هنا متعلق بالصّنائع والحرف والمهن لا العقائد والتشريعات والأحكام.

والشّاهد أنّ الحضارة الإسلامية عبر عصورها المتتالية وخلال دوراتها المتعاقبة قد أثبتت أنّها حضارة متجدّدة تساير المتغيّرات وتتكيف مع التّطورات، كما تنفتح على الحضارت الانسانية جميعها [176]، ويفهم من هذا أنّ الحضارة الإسلامية تتميز بالمرونة مع الحضارات الأخرى لاسيّما فيما يتعلّق بالجوانب المادية والمهنية وعلوم الدنيا، وكل ما يسهم في تقدّم الانسان من الجوانب المادية والاقتصادية والصّناعية والتّقنية، فالمسلم ليس ضد التقدّم المادي أو الصّناعي ولا يدعو أبدا إلى وضع قطيعة مع كل ما هو آت من الحضارات الانسانية غير المسلمة، بل المسلم يوازن بين مصالح الدنيا والآخرة أي لا يهمل أحدهما على حساب الأخرى، وهكذا الحضارة العربية الإسلامية فهي تعطي قيمة لأمور الدنيا كما تعطي قيمة كذلك لأمور الآخرة سواء بسواء دون إفراط أو تفريط، فكل ما يقوي شوكة الإسلام والمسلمين ولو تطلّب ذلك التّعامل مع غير

((175)) شوقي عبد الكريم علام، "**التواصل الحضاري مع الآخر**"، صحيفة اليوم السابع، مصر، 03ماي 2015.

((176)) أمين إميل، "**العالم الاسلامي والحضارات الأخرى: تفاعل لا تصارع**"، صحيفة عمان، 2019/05/31.

المسلمين أمر واجب، والمقصود هنا التّعاون معهم في قضايا مثل الأمن والتجارة والصّناعة والزّراعة والصّحة، فهذا التّعاون شيئ مهم للغاية، وهنا يظهر أثر تفاعل الحضارة الإسلامية مع الحضارات الأخرى وأهمية تعزيز أواصر التّعاون المتبادل معها.

وفي سياق التأكيد على التّعاون المشترك بين الحضارة الاسلامية وباقي الحضارات نجد بأنّ المسلمين قد استفادوا من العديد من الحضارات على غرار الحضارة الصينية التي اسفتاد منها المسلمون في العديد من المجالات كمجال الطّب والصّيدلة والملاحة البحرية وصناعة الخزف وغيرها من الحرف والصنائع التي تفوّقت فيها الصين لاسيّما أنّ هاته الأخيرة كانت من أكثر الحضارات تقدّما عندما ظهر الإسلام، وبالمقابل استفاد الصينيون كذلك من المسلمين عدّة أمور كفن العمارة وعلوم الفلك والإدارة الإسلامية لاسيّما عندما حكم المسلمون العرب في بعض مناطق الصين [177]، ولم يقتصر الأمر على الحضارة الصينية فقد استفاد المسلمون كذلك من الحضارة الهندية العديد من العلوم كعلوم الطب وعلوم الرياضيات والكيمياء والفيزياء إلى جانب التدوين حيث كانت لهم عناية خاصة بالتدوين وفي هذا يقول الجاحظ "**لو لا خطوط الهند لضاع من الحساب الكثير والبسيط ولبطلت معرفة التّضاعيف**"، وقد شملت استفادة المسلمون من الهنود إلى علوم الشّرع واللّغة العربية كعلوم الحديث وعلوم النّحو والصرف والاشتقاق، ففي علم الحديث مثلا يقول محمد رشيد لرضا في مقدّمة كنوز السُّنة: "**لولا عناية إخواننا علماء الهند بعلوم الحديث في هذا العصر لقضي عليه بالزّوال من أمصار الشّرق، فقد ضعف في مصر والشّام والحجاز والعراق (وهذه أشهر البلدان التي كانت تعتني بعلوم الحديث دراية ورواية) منذ القرن العاشر**

((177)) عبد الحليم ندا، " **الحضارة الاسلامية وتفاعلها مع الحضارات الانسانية**"، مجلة العمارة والفنون، العدد 08، أكتوبر 2017، ص371.

للهجرة[178]، وهذا يدل على أنّ علماء الهند قدّموا خدمة جليلة للإسلام والمسلمين في شتّى المجالات، كما يدل من جهة أخرى على أنّ الإسلام ليس متقوقع على ذاته كما قد يقوله البعض من مرضى النفوس، فهو يقبل الحق ممّن كان ولو كان من عند غير العرب، وهذه ميزة الإسلام والحضارة الإسلامية الّتي حقّا تتفاعل مع الحضارات الأخرى لا لشيء إلاّ من أجل السُّمو بالمسلم إلى أعلى درجات التّقدّم الأخلاقي والمادي والرَّوحي.

وفي الأمور المتعلّقة بتنظيم الدولة استفاد المسلمون من نظام الدواوين في خلافة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ففي بداية الأمر كانت دول الإسلام صغيرة المساحة وقليلة الأفراد، ولما اتّسعت دولة المسلمين وانتشر دين الإسلام في الآفاق وتباعدت المسافات بين المسلمين، وصار من الضّروري تنظيم الحقوق والواجبات احتاج المسلمون إلى الاستفادة من خبرات الأمم الأخرى، وهو ما حصل بالفعل في خلافة الصّحابي الجليل فاروق الأمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان القصد من اعتماده لنظام الدواوين هو تنظيم الأعطيات، ووضع الخطط، وتدوين كل ما استجد من أمر المسلمين، وكلمة ديوان هي فارسية الأصل جاءت لدولة الاسلام من بلاد فارس، وكلمة الديوان تعني الدفتر الذي يكتب فيها أسماء الجيش وأهل العطاء[179].

كما استفاد المسلمون في أمور الحرب والقتال من بلاد فارس كطريقة حفر الخنادق التي أشار بها سلمان الفرسي على الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة

((178)) تمام أبو الخير، "**كيف أثرى العلماء الهنود الحضارة الإسلامية** "، صحيفة نون بوست، 2020/09/04.

((179)) ابراهيم بن حماد بن سلطان الريس، "**الاستفادة من مخترعات وتجارب غير المسلمين: دراسة حديثية** "، منشورات شبكة الألوكة الثقافية،2007/12/24.

الأحزاب، وقد سمّيت هذه الغزوة باسم غزوة الخندق نسبة إلى الخندق الذي أشار به سلمان الفارسي في تلك الغزوة، حيث كان ذلك سببا في حقن دماء المسلمين وتجنيبهم لخسارة كبيرة في الأرواح والممتلكات. وحفر الخنادق هو من خصائص الفرس لكن لم يمنع ذلك الرّسول عليه الصّلاة والسّلام وصحبه الكرام من الاستفادة منه، فكل ما فيه مصلحة للإسلام والمسلمين حرص نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم على فعله، وهذا يدل على أن الإسلام دين يدفع المضار ويجلب المصالح للمسلمين ولغيرهم بصرف النّظر عن جنسهم ولونهم ولغتهم وأرضهم،ولأجل ذلك ينتفع الإسلام بكل ما فيه خير وصلاح للأمم والأفراد ولو تطلّب الأمر الاستعانة بالأمم غير المسلمة أو الأمم الكافرة بالعبرة إذن بتحقيق مصالح المسلمين ودفع الشّر عنهم.

وفي الجملة فإنّ تفاعل الحضارة العربية الإسلامية أو تصادمها مع الحضارات الأخرى يستند إلى عدّة ضوابط نذكر منها على سبيل الذّكر لا الحصر مايلي:

- **الضّابط الأولّ**: أن تترجّح مصلحة الاستفادة على مفسدتها فإن تساوت المصلحة مع المفسدة أو فاقت المفسدة على المصلحة ففي تلك الحالة تمتنع الحضارة العربية الإسلامية من الاستفادة من الحضارات الأخرى، وليعلم القارئ أنّه ما حصلت الشّرور والمفاسد في بلاد المسلمين إلاّ بسبب إهمال هذا الضّابط والتّساهل الكبير وغير المسؤول من الاستفادة من الآخرين بحجّة مواكبة التّطور الحضاري الغربي، وقد نتج عن ذلك انتشار الكثير من الأخلاق والسلوكات التي لا تمت بصلة إلى الحضارة العربية الإسلامية، حيث فقد المسلمون أخلاق عزيزة كانت تمثّل خط أحمر للمسلمين في الزّمن الأول من الحضارة العربية الإسلامية كخلق الحشمة والحياء، وعزّة النفس، أو التّساهل في لبس كل ما يخدش الحياء أو يخالف عادات وتقاليد المسلمين، ولذلك نناشد كل من له غيرة على الإسلام أن يحرص كل الحرص على التّصدي لهجمات

الغرب ضد المسلمون التي تشمل أخلاقهم ودينهم، وهذا أغلى عندنا من ماء الذهب الخالص –أي الحفاظ على الديّن والأخلاق من التحريف والانحراف–، وديننا سبب عزّتنا الدّائمة والحقيقية، وما سوى ذلك سراب باطل وظل زائل.

–الضّابط الثاني: –أن لا يكون فيه تعدّي على الإسلام والمسلمين وعلى مقدّساتهم وشعائرهم الدينية، فما قيمة أن يستفيد المسلمون من الحضارات الأخرى بعض المنافع المحدودة إذا كانوا قد خسروا دينهم أو بعض المقدّسات الدينية، مثلما يحدث اليوم في فلسطين على وجه الخصوص فانظروا كم خسر المسلمون بفقدانهم لأحد المقدّسات الدّينية التي جاء في ديننا الإسلامي الحث على شدّ الرحال إليها وهو المسجد الأقصى الذي يعد أحد المساجد الثلاثة التي يعظم فيها الأجر على غيرها من المساجد، فحينما اعتدى اليهود الصّهاينة على حرمة المسجد الأقصى لم يعد للمسلمين تلك الهيبة التي عرفوا بها منذ فجر الإسلام، وصارت البلدان العربية على وجه الخصوص فريسة لأعدائهم الصّهاينة الذين يريدون أن يستبيحوا حرمة المسلمين ويسفكون دمائهم بلا شفقة ولا رحمة، فليحذر المسلمون من التّفريط في هذه المقدّسات والتّساهل في شأنها، وأقلُّ شيء يفعلونه هو إعادة رصّ صفوفهم من جديد، وتوحيد كلمتهم وتقوية جيوشهم واقتصادهم حتّى يرفعوا راية التّحدي من جديد، وليدخلوا الرّعب في قلوب أعدائهم من اليهود والنّصارى والملحدين الذين يتربصّون بهم شرّا.

–**الضّابط الثالث:** ألا يكون التّفاعل مع الحضارات الأخرى مطية لخدمة أغراض أعداء الإسلام، حيث يفتحون لنا أبواب التّعاون على مصراعيها في شتّى المجالات والميادين، ثم ينتهزون الفرصة لإملاء بعض الشروط التي تخدم مصالحهم مثل تعديل النظام السياسي أو النظام الاقتصادي للبلدان الإسلامية بما يخدم مصالحهم هم وليس مصالح الدول العربية والإسلامية، فهذا عين الظلم والاستبداد، فالمسلم لا يكون يوما

هيّنا ولا يقبل الهوان ولا يستبدل الذي هو أدنى بالّذي هو خير، فنحن نصبر على شظف العين والجوع ولا نصبر دقيقة واحدة على الاستبداد والاستعباد من قبل أعدائنا، ومن ذاق مرارة الاحتلال الغربي يدرك حقيقة ذلك ويستشعر جيّدا ما نقوله.

الضّابط الرابع: أن يكون التّعاون معهم في أشياء دنيوية ليست عندنا،فالتّعاون معهم مثلا في الطّب والصيدلة والتكنولوجية الحديثة وعلوم المادة فإنّ في ذلك بلا شك مصلحة راجحة للمجتمعات الإسلامية، ومن شأن ذلك أن يسهم في تطوّر العلوم والصنائع في البلاد الإسلامية، وقد يكون ذلك سببا في استغناء المسلمون من تلك الحاجات إذا اتقنوا تلك العلوم والصنائع واستحكموا فيها جيّدا، وكما هو معلوم نحن مطالبون بتعلّم كل العلوم والصنائع لأنّ الصّراع بين المسلمون والكفار يبدأ بهذه الأشياء، فهم قد يرغموننا على استجدائهم إذا لم يكن لنا قدرة على منافستهم في مختلف السّلع والمنتوجات والصنائع، وكيما قيل لا تكن كلمتنا من رأسنا حتّى تكون لقمتنا من فأسنا، ولذلك ننبّه بهذه المناسبة على فائدة مهمّة وهي أنّه يجب ألاّ نتكّل عليهم في كل صغيرة وكبيرة فإنّنا لا نأمن مكرهم وشرّهم علينا، فبقدر ما يهبوننا خدمات ومنتوجات بقدر ما يفكّرون في استلابنا كثير من المقدرّات والمقدّسات.

الضّابط الخامس: ينبغي أن يكون التّعامل معهم وفق قاعدة النّد بالنّد، وليس وفق قاعدة المهيمن والتابع لأنّ إشعار العدو بحالة من الضّعف والهوان سيفتح علينا أبواب كثيرة من الشّرور والمخاطر، فأعداء الإسلام من قديم الزّمان يريدون منا أن نكون في تبعية مطلقة لهم، بل لن يرضوا عنا إلاّ إذا تركنا ديننا وأخلاقنا ونتبّع ملّتهم وديانتهم القائمة على الفسق والفجور والظُّلم والبطش وملذّات الدنيا الفانية، فما أُستعبد المسلمون إلاّ من باب الغفلة والتساهل وعدم أخذ الحيطة من العدو.

الضابط السادس: أن يكون التّعاون معهم سببا في إزدهار دولة الإسلام والمسلمين وتطوّر بنيتهم التّحتية وتحسّن اقتصادهم –أي المسلمون–، أمّا إذا كان التّعاون معهم فيه زيادة للتّبعية والتّخلف والرّكود الاقتصادي فهذا من شأنه أن يعمّق الهوة بيننا وبينهم مما يجعل بلداننا أكبر سوق لبضائعم ومنتوجاتهم أي نصير نحن سببا في زيادة تفوّقهم علينا ونصير نحن كمن باع نفسه لغيره بأبخس الأثمان ثمّ بعدها لا يمكن أن نرفع رؤوسنا شامخة أمامهم، ونقبل عندها بالذُّل والهوان على مضض منا.

هذه إذن بعض الضّوابط المتعلّقة بالتّعاون مع الحضارات الأخرى وإلاّ فإنّ الأصل هو التّعاون وليس التّصادم إذا لم يكن في ذلك– كما مرّ معنا – فيه مفسدة لحضارتنا الإسلامية وللمسلمين، ولا شكّ أن هذا العصر هو عصر التّعاون بامتياز، فلم يعد بوسع أي دولة من دول العالم مهما كانت قوّتها وتفوّقها الاقتصادي أن تستغني عن غيرها من الدول، وانظر إلى حال الولايات المتّحدة الأمريكية مثلا فرغم تفوقها العسكري والاقتصادي على جميع دول العالم إلاّ أنها لم تستغن يوما واحدا على التّعاون مع كبار الدول وصغارها في العديد من المجالات، بل قد رأينا الولايات المتّحدة الأمريكية تتسّخط وتتذّمر إذا تراجعت مكانتها في التّعاون مع الدول الأخرى لصالح دولة أخرى، وهذا يدل أنّ التّعاون مع الدول الأخرى بقدر ما يضمن مصالح الولايات المتّحدة الأمريكية بقدر ما يضمن لها كذلك تفوّقها وهيمنتها العالم، فالحاصل إذن أنّ التّعاون والتفاعل بين الحضارات هو الأصل وليس الصّدام والتنافر هو الأصل فقد يحدث التّنافر بين الحضارات في حالة تعارض المصالح فقط وإلاّ فإنّ بقاء التّعاون بينها هو القاعدة وليس الاستثناء.

المبحث الثالث: أسرار تفوّق الحضارة العربية الإسلامية وتأثيرها في بقيّة الشّعوب والحضارات

توجد العديد من الأسباب التي جعلت الحضارة العربية الإسلامية تعلو شامخة في سماء الحضارات الإنسانية وتتفوّق عليهم قاطبة، إلى درجة أن بعض المستشرقين الغرب صدحوا بكلمة الحق وأقرّوا بتفوّق الحضارة العربية الإسلامية على الحضارة الغربية في القرون الوسطى وما بعدها، بل اعترفوا بفضل الحضارة العربية الإسلامية عليهم في اكتشافاتهم وبحوثهم العلمية في شتّى المجالات، ويمكن أن نسوق لكم أحد أسرار تفوّق المسلمين على غيرهم من المجتمعات في النقاط المختصرة الآتية:

1-اعتزازهم بدينهم الإسلامي واستمساكهم بتعاليمه السّمحة التي لا اعوجاج فيها: فالعرب قبل الإسلام كانوا جماعات متناحرة يقتل القوي فيهم الضّعيف، وكانت الحروب والنزاعات بينهم تحدث لأتفه شيء، مع ما كان معهم بطبيعة الحال من فضائل لا يمكن نكرانها أو تجاهلها، ولما جاء الإسلام وبشرّهم سيّدنا محمد صلّى الله عليه وسلم بهذا الدين وبلغهم رسالة النبوة، بدأت تشّع أنوار الحكمة والنبوة في بعض أفراد قريش إلى أن استمر في التّوسع والامتداد شيئا فشيئا إلى أن تكوّنت الدولة الإسلامية في المدينة النبوية حرسها الله، ومنذ ذلك الوقت تغيّرت طبائع المسلمين وأصبحوا مجتمعا يجمع من الفضائل والشّيم ما لم يحصل لأمة أخرى من الأمم، وانطلق المجتمع المسلم من ذلك الوقت يشيّد ركائز الدولة الحديثة، ويقيم لنفسه ولغيره نظاما اجتماعيا يسوده العدل واحقاق الحق بين المسلمين، وهكذا استطاع المسلمين مع مرور الزّمن وتعاقب الأيام أن يبنوا حضارة إنسانية متكاملة الأركان وعديمة الشّبه، وظلّ المسلمون لقرون من الزّمن وهم في مقدمّة الأمم والمجتمعات وما ذلك إلاّ بالأخلاق السّامقة التي تحلّوا

بها وحرصهم الشّديد على الموافقة بين حقوق الدُّنيا وحقوق الآخرة دون أي إفراط أو تفريط.

وقد كانت الأمم الكافرة تخشى شوكة المسلمين وتحسب لهم ألف حساب قبل أن تفكّر بمباغتة المسلمين أو الدّخول معهم في حرب، نقول هذا الكلام رغم التفوّق العددي والعسكري للكفّار على المسلمين وقلّة ذات يد المسلمين ونقص إمكانات القتال آنذاك، لكن ذلك لا يمنعه البتّة في مواجهة العدو وحماية جناب المسلمين، واستمرّ المسلمون في بناء مجدهم وعزّهم لعدّة قرون من الزّمن واستطاعوا أن يبهروا العالم باكتشافاتهم العلمية وقدراتهم القتالية وبطولاتهم الفريدة وأخلاقهم النادرة والعجيبة.

وهو ما جعل أهل الكتاب وغيرهم يدخلون في دين الإسلام أفواجا ليس إكراها بل قناعة وحبّا لهذا الدين وأخلاقه العالية التي تحلّى بها جماعات المسلمين وأفرادهم، و هذا سر عجيب جعل دائرة المسلمين تتّسع شيئا فشيئا إلى أن وصلت ما عليه اليوم، حيث بلغ عدد المسلمين أكثر من مليار مسلم، وانتشر الإسلام في كل أصقاع العالم، واهتدى كثير من الحيارى إلى الدّين الذي شعروا فيد بالسعادة من أول يوم دخلوا فيه الإسلام، فقد اعترف الأساقفة والقساوسة الذين دخلوا إلى الإسلام بسماحة هذا الدّين وقدرته العجيبة في إدخال الرّاحة النفسية والسّعادة على قلوب التائهين والمذنبين، وهذا سر آخر من أسرار تفوق الحضارة العربية الإسلامية على باقي الحضارات.

2-**الجد في العمل وحرصم الشّديد على عدم تضييع الوقت**: لقد ضرب المسلمين خير الأمثلة في الحفاظ على الوقت وعدم تضييعه في الأمور التافهة والحقيرة، ولذلك فقد الواحد فيهم لم يبلغ الثلاثين من عمره مثلا إلاّ وتجد سيرته مفعمة بالعطاء والانجازات المادية والمعنوية، وما ذلك إلاّ بسبب احترامهم الكبير للوقت واستغلاله في

يعود عليهم بالنّفع، ولم يكن للقادة والأمراء المسلمين الأوائل وقتا للفراغ بل كانت حياتهم كلّها جد وعطاء وتحرّ للخير والفضائل، وتنظيم للجيوش الإسلامية وتوزيع المهام على الرّعية، وترتيب الأمور العامة المدنية منها والعسكرية.

بل لم توجد حضارة أو بالأحرى لم يوجد دين عرف قدر الوقت مثل الإسلام، حيث أعطى القرآن الكريم أهمية بالغة للوقت، وارتبطت معظم العبادات في الإسلام بالوقت كالصّلاة والصّيام والزّكاة والحج، وقد أشار الدكتور حامد أبو طالب إلى دور إدارة الوقت في صناعة الحضارة قائلا: تبدأ صناعة الحضارة من حرص أفرادها على احترام الوقت كقيمة حضارية، وجاء الإسلام مدركا لهذه الحقيقة لذلك اهتمّ الاسلام اهتماما كبيرا بالحفاظ عليه واستثماره فيما ينفع في الدنيا والآخرة، ولذلك يعتقد الدكتور حامد أبو طالب في سياق تأكيده على أهمية الوقت أنّ أهم أسباب تأخّر المسلمين وتراجع دور الحضارة العربية الإسلامية وتأثيرها في بقية الحضارات هو عدم استثمار المسلمين للوقت، حيث يقول: "**إننا لم نعد نعي قيمة الوقت وأضعناه فيما لا يعود بالنفع على المسلمين**"[180].

ونحن حينما نقرأ سير الّصالحين والخلفاء الراشيدن وقبلهم سيد الأنام محمد عليه أفضل الصّلاة والسّلام أنّهم كانوا يحرصون على استغلال أوقاتهم أكثر من حرصهم على الطّعام والشّراب، ولذلك فقد أقام سيّدنا محمد عليه الصّلاة والسّلام دولة الإسلام في المدينة النبوية خلال عشر سنوات فقط، وهي مدّة قصيرة جدا بالنّظر إلى التوسّع الكبير في عدد المسلمين وأراضي الإسلام، فمنذ بعثة الرسول الله عليه الصّلاة والسّلام وهو في جد وحزم واستغلال كل دقيقة لتبليغ رسالة الإسلام للعالم أجمع إنسهم وجنهم،

((180)) أنظر إلى المقال المعنون ب: "**استثمار الوقت في الشريعة الإسلامية: فريضة غائبة**"، صحيفة الشرق،مصر، 2014/04/24.

وهكذا حذا حذوه الصّحابة الكرام والخلفاء الذين أتوا من بعده، فانظر مثلا كيف أقام فاروق الأمّة عمر بن الخطاب رضي الله عنه نظام العدل الّذي شهد به العدو قبل الصديق في مدّة وجيزة لا تتعدّى العقد من الزّمن، واستطاع بتوفيق من الله عزّ و وجل وصرامته في الحفاظ على الوقت أن يحافظ على أركان الدولة الإسلامية وينشر العدل بين جميع رعيته بدون أي تفرقة أو تمييز، كما توسّعت في خلافته حدود الدولة الإسلامية وزادت هيبتها بين الأمم والبلدان، وقدّم المسلمون للعالم في وقته دروسا عظاما في العمل والجد والحزم، وتهيّأت عند ذلك الزّعامة والرّيادة للأمة الإسلامية، وما ذلك إلاّ بفضل احترامهم للوقت.

وفي ذات السّياق نجد مالك بني نبي رحمه الله يضع ضمن شروط الحضارة الأساسية عامل الوقت في معادلته الشّهيرة: "**الحضارة= انسان +وقت +تراب**"، وكما نفهم من هذه المعادلة فإنّه إذا لم يحسن الانسان استغلال وقته فهذا يعني أنّه لا يمكنه بناء أسس وقواعد الحضارة الإنسانية التي تستطيع إثبات وجودها ومنافسة غيرها من الحضارات الانسانية، وفي هذا الصّدد يرد سؤال مهم للغاية وهو كيف يستطيع الانسان أن يواجه مختلف التّحديات التي ترافق عملية البناء الحضاري التي أقل ما يقال عنها أنّها تحديّات صعبة ومعقّدة إذا كان لا يقيم وزنا للوقت والزّمن، ولذلك أعتقد أنّه لا توجد حضارة على وجه الأرض بنيت بين عشيّة وضحاها بلا نصب ولا تعب، بل إنّ أي حضارة انسانية تمر عبر مراحل مختلفة وصعبة في بعض الأحيان،ولكل مرحلة خصوصيتها ومميّزاتها التي تختلف بها عن سابقتها.

فالحاصل إنّ الحرص على الوقت والاعتناء بها أشدّ العناية هو فعلا أحد عوامل تفوّق الحضارة العربية الإسلامية في الأزمان الأولى لهذه الحضارة، وإذا أردت أن تعرف حال العلماء الأوائل كيف كانوا يحرصون على عدم تضييع دقيقة واحدة في ما لا

ينفعهم فاقرأ كتاب سير أعلام النبلاء للحافظ شمس الدّين الذهبي رحمه الله والذي أودع فيه أخبار عجيبة على حرص العلماء على أوقاتهم، وممّا يذكر في سيرة العالم أبو الوفاء ابن عقيل الحنبلي رحمه الله أنّه ألّف أكبر كتاب على وجه الأرض سمّاه كتاب الفنون يقع في ثمانمائة مجلّد تطرّق فيه إلى نحو أربعمائمة فن (علم) والعجيب أنّ تأليفه لهذا السّفر الضّخم كان في وقت فراغه حينما يخلد إلى الرّاحة أو النوم، ويذكرون كذلك عن الشيخ العلامة الجبل الهمام عبد الحميد بن باديس كان ينام في اليوم والليلة ساعتين فقط وبقية وقته يقضيها في التّعليم والعبادة والتأليف والرّد على الملحدين والمبتدعة والاحتلال الفرنسي، فما ساد القوم إلاّ بحرصهم على الوقت وتفانيهم في استغلاله في الخير والصلاح.

3- **توحيد كلمة المسلمين وجمع صفوفهم نحو أهدافا محدّدة:** من الأشياء التي جعلت الحضارة العربية الإسلامية تتفوّق ويعلو شأنها بين الأمم هو جمعهم على كلمة واحدة وهدف واحد، فلم تكن الخلافات بين المسلمين تصل إلى حد التّشرذم الذي نعيشه اليوم، بل قد كان للمسلمين حاكما واحد يجتمعون عليه ويدعون له بالصّلاح ويقدّمون له العون والمدد كلما احتاج إلى ذلك، وله أمراء وأعوان يساعدونه في إدارة شؤون الإمارة أو الخلافة الإسلامية، ففي الخلافة الإسلامية الرّاشدة مثلا التي تعاقبها عليها أربعة خلفاء راشدين كان المسلمون يدا واحدة حربا على أعدائهم سلما لأوليائهم، يجمعهم هدفا واحدا وهو إعلاء كلمة التوحيد وإرغام الأعداء على إمّا الدخول في الإسلام أو تقديم الجزية للمسلمين.

ورغم اتّساع رقعة الدولة الإسلامية في عصر الخلافة الإسلامية وفي عصر الدّولتين الأموية والعباسية إلاّ أنّ المسلمون كانوا في الغالب رغم بعض النّعرات والخلافات السياسية يشكّلون نظاما سياسيا موحّدا يرجع فيه الأمراء إلى الخليفة أو الأمير الأول

للبلاد الإسلامية، وقد سمح هذا الوضع بالحفاظ على مقدّرات الدولة الإسلامية وحمايتها من كل عدو تسوّل له نفسه الاستلاء أو السّطو على تلك الممتلكات سواء كانت مادية أو معنوية.

والشّيء الذي يثير حيرتي دائما ونحن نتحدّث عن توحيد صف المسلمين كعامل من عوامل قوّة وتفوّق الحضارة العربية الإسلامية على غيرها من الحضارات هو هذا السّؤال لماذا يجتمع دائما وعبر مر التاريخ أعداء الأمة الإسلامية ضد المسلمين رغم اختلاف مذاهبهم الإسلامية وأنظتمهم السياسية والاقتصادية والثقافية في الوقت التي تفرّق فيه المسلمين شذر مذر رغم كثرة القواسم المشتركة بينهم ؟ والإجابة عن هذا السّؤال يقودنا إلى عدّة أجوبة منها أنّ أحد أسباب انحطاط المسلمين وسقوط حضارتهم العربية الإسلامية هي كثرة الخلافات السياسية بينهم، حيث كُثرت الأحزاب السياسية والفرق الإسلامية بين المسلمين إلى درجة أنّ المسلم احتار أيّهم على حق وصواب.

ومن يستنطق تاريخ الحضارة العربية الإسلامية يدرك أنّ سبب تسلّط الصليبيين على البلاد الإسلامية هي اختلاف المسلمين وتعدّد الأمراء والحكّام الأمر الذي جعلهم لا يجتمعون على كلمة واحدة وهدف واحد، وهي الثّغرة التي استغلها أعداء الأمة الإسلامية لينفثوا سمومهم وشرورهم على بلاد الإسلام والمسلمين، ليحتلوا بذلك أغلب البلاد الإسلامية إلى أن وصل الحد إلى تقسيم البلاد الإسلامية إلى عدّة دول بعد أن كانت بلاد واحدة يسوسها حاكما واحدا وتنتظم فيها الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية وفق أحكام الشّريعة الإسلامية الحنفية.

وسنّة الله في خلقه أنّ الأمة إذا افترقت وانداحت بينهم الخلافات فإنّها إلى زوال وخراب وفناء مهما جمعت أسباب القوة والعزّة لأنّ ميزان القوّة يضعف بين المسلمين أو غيرهم كلما تعدّدت الأصوات وتشرذمت الجماعات وانسدت سبل الوفاق والائتلاف، وقديما قالوا:

اقـــرؤوا التـــاريخ إذ فيـــه العـــبر ضـــاع قـــوم لـــيس يـــدرون الخـــبر

وإذا لم تجتمع الأمة الإسلامية التي نعيش فيها اليوم على ما اجتمع عليه أسلافنا وأجدادنا بحجّة حرية الرّأي والديمقراطية الزّائفة فلن ولن يكون لها شأنا ولن ترفع لها راية، وستظّل في ذيل الأمم وفي آخر الرّكب لأنّ الله أرسل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بهذا الدّين ليرفع من شأن العرب والمسلمين إذا هم التزموا به ولم يطلبوا بدلا عنه في الديمقراطيات المزعومة أو الهيئات الدولية المشؤومة أو النّظريات الغربية المذمومة التي لا طائل منها ما دامت لا تقيم للدين وزنا وتضع الأخلاق تحت أقدامها كما يضع اللاعب كرة القدم أمام قدمه ليقذفها قذفا.

4-**إقبال العلماء المسلمين على العلم والعمل وإعراضهم عن زخارف الدنيا وسفاسف الأمور**: لقد اطّلعت على سير العديد من علماء المسلمين سواء في مجال علوم الشّرع أو علوم الدنيا فوجدت أنّ أغلبهم كان منشغلا بالبحث والتحقيق العلمي ونقد الدراسات والأبحاث العلمية، إذ لم يكن لهم انشغال بزخارف الدّنيا والأمور التافهة الحقيرة، ولذلك فقد تجد عالما مسلما توفي في ريعان شبابه لكنّك تجده ترك إرثا علميا كبيرا وبحوثا علمية دقيقة قد لا يسبقه إليه أحد، أو تجده قد ألّف موسوعات علمية ضخمة أصبحت فيما بعد مرجعا علميا لكثير من الباحثين الذين أتوا من بعده.

ولم يكن من عادة العلماء المسلمين الأوائل أن يشتغلوا بسفاسف الأمور التي تحط من قدرهم بل كانت حياتهم عامرة بالعلم وتعليم الناس ما يحتاجون إليه في أمور دينهم ودنياهم، ولم يكونوا كذلك يهتموا بالحصول على الألقاب العلمية، بل كان شغلهم الشّاغل حل الغوامض من المسائل العلمية حيث يصلون اللّيل بالنهار من أجل إيجاد حل لتلك المسائل المعقدّة والغامضة، وبالفعل استطاعوا أن يحلّوا عددا كبيرا من تلك المسائل والتي أنارت الطريق للأمّة الإسلامية وأسهمت في تحسّن أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية والتّعليمية والفكرية.

وقد كانت مجالس العلماء في ذلك الوقت حافلة بحضور طلبة العلم والمشتغلين به، فرغم قلّة الإمكانات المادية والفنية –التي ننعم بها نحن الآن – في زمانهم إلاّ أن مجالس العلم في مختلف المجالات العلمية كانت سمة بارزة لمختلف الحواضرالإسلامية شرقا وغربا، حتّى كان الواحد فيهم يحتار أي مجلس علمي يجلس فيه لكثرة المحاضرات العلمية التي كانت متاحة للجميع، ولذلك فإنّ ما تركه المسلمون من منتوج علمي كان له الأثر البارز في تفوق المسلمون على غيرهم من الحضارات، وبهذا يتضح أنّ الاشتغال بالعلم سواء تعلّما وتعليما هو أحد أهم أسرار تفوّق الحضارة العربية الإسلامية وبروزها في الآفاق، وهذا ما جعل أعدائها يقرّون بفضلها وسبقها على حضاراتهم

5–إيلاء أهمية كبيرة للعلماء وتبجيلهم على غيرهم وإعطاء مكانتهم الحقيقية في المجتمع: لم أر عصرا عُرِف فيه قدر العلماء مثل العصور الأولى للحضارة العربية الإسلامية وبخاصة في عصر الدولة العباسية، وهذا ما أيّده المؤّرخ الدكتور راغب السرجاني، حيث يقول: يأتي في مقدّمة الخلفاء الذين عنوا بالعلماء الخليفة العباسي هارون الرّشيد الذي قال عنه العالم الجهبذ عبد الله بن مبارك ما رأيت عالما ولا قارئا للقرآن ولا سابقا للخيرات ولا حافظا للحرمات في أيام بعد أيام رسول الله صلى الله

عليه وسلم وأيام الخلفاء الراشدين والصحابة أكثر منهم في زمن هارون الرّشيد وأيامه، لقد كان الغلام يجمع القرآن وهو ابن ثماني سنين، ولقد كان الغلام يستبحر في العلم والفقه ويروي الحديث ويجمع الداووين ويناظر المعلمين وهو ابن احدى عشرة سنة، ولم يكن ذلك إلاّ بكثرة انفاقه واهتمامه بالعلم والعلماء وطلاّبه منذ الصغر[181].

ومن شدّة اعتناء الخلفاء بالعلم في ذلك الزمان أنهم كانوا يعتنون عناية خاصة بطلبة العلم المتوفقين كما فعل ذلك الخليفة الموحدي الثالث المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن،حيث أنشأ بيت الطلبة خاصا بالنابغين ويشرف عليه بنفسه حتّى غن بعض حاشيته ومقربيه حسدوا هؤلاء الطلبة على قربهم منه وعنايته بهم وتقريبهم منه وخلوتهم بهم دونه (لطلب المشورة منهم في كثير من القضايا والنوازل)، ولما بلغ ذلك الخليفة المنصور الموحدي اغتاض وخاطبهم قائلا: "يا معشر الموحدين أنتم قبائل فمن نابه منكم أمر فزع إلى قبيلته ن وهؤلاء الطلبة لا قبيلة لهم إلاّ أنا، فمهما نابهم من أمر فأنا ملجأهم وإليّ فزعهم وإليّ ينسبوا" ولا شكّ أنّ مثل هذا الأمر يشحذ همم طلبة العلم ويجعلهم متفرّغين لتحصيل العلم من مظانه، كما يجعلهم يستشعرون بأهمية ما يطلبونه والمسؤولية الملقاة على عاتقهم، فهم نبراس الأمة الإسلامية ومصابيح الدّجى ينيرون للأمة دروب الهدي ويصرفونهم عن طرق الضّلال والتيه، فكيف إذن لا يستحقّون العناية اللازمة التي تؤهّلهم للقيام بهذا الدور، بل وما بلغت الأمم من تطوّر وتقدّم إلاّ حينما عرفوا قدر علمائهم، فانظر مثلا إلى أوروبا كيف كانت تتقلّب في الجهل والتّخلّف عندما كان علمائهم يتعرّضون للأذى والمضايقات والتّهديد بالموت من قبل رجال الكنيسة ومن شايعهم الذين لا هم لهم إلاّ بطونهم وشهواتهم الفانية، وبعدما

((181)) راغب السرجاني، "**عناية الدولة بالعلماء في الحضارة الإسلامية**"، انظر إلى الموقع الالكتروني الآتي: https: //ar.islamway.net/article

تفطن الأوروبيون لخدع رجال الدّين قاموا ضدهم وثاروا عليهم، وأعطوا المشعل للعلماء، وجعلوهم هم القادة الحقيقيين نفضت أوروبا غبار الجهل والتّخلف عنها وقامت كأحسن ما كانت عليه، بل أصبحت هي قائدة الحضارة الغربية المعاصرة.

وقد أجمع المؤّرخون أنّ الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور كان أوّل رعاة العلم من خلفاء بني عباس، وعلى الرّغم من اشتغاله رحمه الله بتثبيت أركان دولته فقد اهتم اهتمام كبيرا برعاية الحركة العلمية، حيث كان الخليفة نفسه كما تؤكّد المصادر جيّد المشاركة في العلم والأدب (علوم اللّغة والشعر والبيان) وكان بارعا في الفقه وله اطّلاع واسع على الفلسفة وعلم الفلك، كما أنّه كان أعلم الناس بالحديث والأنساب،وأكثر من ذلك فقد تطوّرت حركة التّرجمة في عصره، وقد ترجمت له كتب كثيرة من اليونانية والفارسية إلى العربية لاسيّما كتب الطب. وكان الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور محبّا لأهل العلم، حيث أثّر عنه أنّه كان متواضعا مع أهل العلم والأدباء، فقد أحاط طبيبه جورجيس مثلا خلال السّنوات التي أمضاها في بغداد بالتّكريم والاحترام فعندما مرض لم يتردد الخليفة في زيارته وتفقّد أحواله بشكل يومي، وعندما حنّ إلى بلده ورغب في العودة إلى أهله بعثه إلى بلده معززا مكرّما برفقة عدد من رفاقه وأصحابه[182].

ونفس الشّيء بالنّسبة للخليفة هارون الرّشيد لم ينقطع عن زيارة الإمام الكسائي أثناء مرضه ونال العلماء والأدباء على اختلاف فئاتهم وعلومهم أموالا طائلة من الخليفة، حيث كان يصل كل واحد منهم عطاء جزيلا ويرفعه إلى أعلى درجة، بل كانت هناك فئة من العلماء والأطّباء تحصل على مخصّصات مالية ثابتة نقدية وعينية

((182)) عادل زيتون، "**العباسيون يرعون العلم والعلماء** "، مجلة العربي، الكويت، العدد509، أفريل 2001.

من بيت مال المسلمين، وما يدل على حرص هارون الرّشيد على العلم وحبه للعلماء أنّه كان يعقد في قصره مجالسا علمية تضم كبار علماء عصره كالأصمعي والكسائي وسيبويه والواقدي وأبي عبيدة وأبي العتاهية والفقيه المشهور أبي يوسف يعقوب ودعيل وابراهيم الموصلي وابنه اسحاق وغيرهم، وكانت تدور في هذه المجالس مناظرات علمية وأدبية برعاية الخليفة ومشاركته، ولأجل خدمة العلن والعلماء قام هارون الرّشيد افتتاح أول مصنع للورق[183] كبداية جديدة تسهّل على العلماء وطلبة العلم تدوين العلم وحفظه في الدواويين والكتب والمجلّدات.

6-**ثقتهم بأنفسهم وبقدراتهم العلمية والابداعية:** إنّ ثقة العلماء المسلمين بأنفسهم جعلت منهم علماء يبدعون في كل مجال من مجالات العلم أو في مختلف الصّنائع والحرف، فلم يكن يصدهم شيئا من مصاعب الحياة في المضي قدما نحو استكمال مشاريعهم العلمية والحرفية، فرغم أنّ البيئة العامة في وقتهم كانت تموج بالفتن السياسية التي أثّرت بشكل واضح على أمن واستقرار الدّولة الإسلامية إلاّ أنّهم لم يستسلموا لذلك الواقع المشحون بالاضطرابات الأمنية، بل لو ألقينا نظرة سريعة على منجزات العلماء المسلمين في ذلك الوقت لقلنا أنّ الأحداث السياسية والاضطرابات الأمنية لم تؤثر كثيرا في تحقيق أهدافهم العلمية ولم تثن عزمهم على أن يسهموا بشكل كبير في مختلف صنوف العلم.

والثقة بالنّفس تولّد لدى العالم شعورا وقدرة كبيرة على مواجهة جميع الصّعاب التي قد تواجهه في مسيرته العلمية وحياته اليومية، بل قد تكون سببا في تفوّقه على أقرانه من العلماء الّذين يعيشون في رغد العيش، وجل علماء المسلمين مرّوا بظروف صعبة ولكنّهم جعلوا من تلك الصّعاب طريقا نحو النّجاح وتخليد آثارهم العلمية،

((183)) عادل زيتون، **نفس المرجع السابق**.

فالشّدائد هي مصنع الرّجال كما يقال، فما علت مكانة العلماء ولم يتحصّلوا على الرّتب العليا إلاّ بتوفيق الله له أوّلا ثمّ بهمّتهم العالية وإرادتهم وإصرارهم على تحقيق أسمى الرتب ثانيا، وفي هذا رد على كل من يحاول أن يفسّر فشله بالظروف الاقتصادية أو الاجتماعية، فحتّى الأنبياء والرّسل صلوات ربي وسلامه عليهم كانوا يتلقّون صنوف الأذى من قبائلهم وعشائرهم ولم يكن ذلك سببا في ترك دعوتهم،و الّتي كانت تدور حول توحيد الله وتخليص العباد من عبادة العبادة إلى عبادة رب العباد، وهكذا الخلفاء الرّاشدون ومن أتى من بعدهم كلّهم مرّوا بظروف صعبة للغاية خلال المرحلة التي حكموا فيها المسلمين ومع ذلك ضربوا لنا خير الأمثلة في الشّجاعة والصبر والتّحدي ولم تتوقّف حلقات العلم، ولم يصرف ذلك العلماء على ترك الاشتغال بالعلم والتّصنيف في مختلف العلوم.

فالحاصل أنّ الشّدائد والمحن لا تضعف أبدا من ثقة العلماء الحقيقيين بل تزيدهم في الغالب الإصرار على النجاح وبلوغ مكانة عالية في العلم،وهذا الّذي جعل أعداء الأمّة الإسلامية ينبهرون بما حقّقه علماء الحضارة العربية الإسلامية خلال تلك المرحلة، أقصد خلال القرون التي ساد فيه المسلمون على العالمين، فالواحد منهم –أي علماء الأمة الإسلامية –كان لا يملك ربّما قوت يومه ويعيش في فقر مذقع لكنّه كان أعجوبة زمانه في تحصيل العلم ونشره وبثّه بين الناس، فالعبرة إذن ليست بما يملكه الانسان من إمكانات مادية أو فنيّة بل بما يملكه من إرادة وتحدّ وثقة بالنّفس تجلعه قادرا على تحويل المحن إلى منح والشّدائد إلى إنجازات، وهذه سمة عُرف بها المسلمين على مرّ التاريخ، فقد سادوا الأمم والعالم بفضل قوّة عزمهم وصبرهم وتحمّلهم جميع المشاق في سبيل تحصيل العلوم وتبليغ شرع الله وسنّة رسوله للعالمين.

إذ لم يجد الفشل سبيلا إلى قلوبهم، ولم تثنهم الحماقيس على بلوغ مرادهم على الرّغم من الضّعف الذي قد يحّل بهم في بعض الأحيان، لأنّهم آمنوا بقدراتهم وعرفوا كيف يطبقّون قوله عليه الصّلاة والسّلام: "**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، واسْتَعِنْ بِاللَّهِ، ولَا تَعْجَزْ، وإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا كَانَ كَذَا وكَذَا، ولَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللَّهُ، ومَا شَاءَ الله فَعَلَ؛ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**"[184]، وهذا الحديث دليل قاطع على أفضلية المسلم على غيره أو بالأحرى أفضلية المسلم على الكافر والملحد والعلماني وكل أعداء الإسلام.

7-**أنّ المسلمين كانوا يتكلّون على أنفسهم في أوقات الشّدّة والرّخاء ولا يثقون في أعدائهم**: من المعلوم أنّ أعداء المسلمين في القديم والحديث كُثُر ولا يمكن إحصائهم وتحديد جميع أماكنهم، والمتربصّون بهم يحيطون بهم من كل جانب إن لم نقل كانوا يأكلون ويشربون معهم، ولا يفوّتون دقيقة واحدة لإنزال شرّهم ومكرهم بهم، وكل ذلك حسدا لما عند المسلمين من أسباب العزّة والتّمكين وهو الدّين الإسلامي الذي يجمعهم على كلمة واحدة ومصير واحد، ولم تكن هذه الحقائق تخفي على المسلمين، بل قد كانوا في أشد الاستعداد لأيّ عدو قد يفجؤهم في أي لحظة، وأكثر من ذلك فإنّ المسلمين كانوا يأخذون بجميع الأسباب لقطع الطريق أمام أعدائهم من خلال اعتمادهم على أنفسهم في بناء حضارتهم وتوفير قوتهم اليومي و حاجاتهم الأساسية.

إنّ ما أدّى إلى تهاوي الحضارة العربية الإسلامية في آخر أيّامها كما هو معلوم ومتّفق عليه هو تكالب أعدائها من الشّرق والغرب، فقد اجتمع الكفّار على كلمة

((184)) أخرجه مسلم في صحيحه برقم 2664.

واحدة وهدف واحد وهي أن يستأصلوا شأفة الإسلام ويقتلعونها من جذورهاّ ، ومع ذلك فقد كان المماليك في ذلك الوقت لا يأبهون إلى ذلك في الوقت الذي كان فيه الصليبيين يحضّرون لأكبر حرب ضد الإسلام والمسلمين، ورغم أنّ النّصوص الشّرعية من الكتاب والسّنة حذرّت المسلمين من مكر اليهود والنصارى وحلفائهم إلاّ أنّهم لم يأخذوا حذرهم من أعدائهم فوقعوا في قبضة أعدائهم وقدّر الله أن تسقط أكبر وأرقى حضارة إنسانية.

فالحاصل أنّه لما كان المسلمون يدركون أنّ أعدائهم لا يبغون لهم إلاّ خبالا وخرابا فإنّهم كانوا لا يدنونهم من مجالسهم ولا يستيشرونهم في أمر من أمور المسلمين ولا يولونهم مناصب سياسية أو إدارية ولا غيرها من المسؤوليات أمنوا شرّهم وأبعدوا مكرهم عنهم، ورفعت راية الحضارة العربية الإسلامية شامخة عالية لمدّة ثمانية قرون والأعداء يكرّون ويفرّون لإسقاط الحضارة ولكن أبى الله إلاّ أن يُبقى المسلمون سادة العالم في ذلك الوقت.

وممّا نستخلصه من دروس وعبر هو أنّ المسلمين هم أنفسهم من يكتبون العزّ لأنفسهم أو يخربون بيوتهم بأيديهم، فمتى استقلّوا بأمورهم وشؤونهم دون تدّخل من أعدائهم فإنّهم مهما مرّوا بظروف صعبة فإنّ الفرج سيأتيهم قريبا ما دام يجمعهم مصير واحد وهدف واحد، وفي المقابل لو ركنوا إلى أعدائهم وصدّقوا ما يقولون لهم من دعاوى كاذبة فإنّ مصيرهم إلى ضعف وخراب وهوان لا محالة، وبهذا تعرف أنّ قوة الحضارة العربية الإسلامية لم تكن أبد الدّهر بقوة جيوشهم الإسلامية إنّما كانت قوّتهم بمدى تمسكّهم بدينهم الإسلامي وثقتهم في الله بأنّه ناصرهم على أعدائهم ورجوعهم إلى الله في أوقات الرّخاء والشدّة، والتفافهم حول علمائهم وأمرائهم وأتقيائهم.

هذه باختصار بعض أسرار تفوّق الحضارة العربية الإسلامية على الحضارات الأخرى وليتنا نتعظ بها ونستفيد منها في حاضرنا ومستقبلنا، لأنّه لن يكون لنا شأنا ولن نسترد مجدنا التليد إلاّ بالسّير على ما سار عليه الأوائل من المسلمين، والاقتداء بهم في الأمور الظاهرة والباطنة، وما ذلك علينا بعزيز لو صدقت نيّاتنا وعدنا إلى شرع ربّنا، وما توفيقنا إلاّ بالله العزيز الحميد، وتحصيل أسباب القوّة المادية والتّقنية لا يكفي وحده لتحقيق النّصر والتّمكين للأمّة الإسلامية على أعدائها ما داموا متفرّقين إلى طوائف متناحرة لأجل دنيا فانية و زائلة، ولو علموا ما ينتظرهم من تحديّات ومكر اليهود والنصارى لهم لصاروا لحمة واحدة ولكنّهم ذهلوا عن هذه الحقائق بسبب غفلتهم وانكبابهم على ملذّات الدنيا.

الفصل الرابع:

سقوط الحضارة العربية الإسلامية وإمكانية النهوض من جديد في ظل التطورات الرّاهنة

الفصل الرابع: سقوط الحضارة العربية الإسلامية وإمكانية النهوض من جديد في ظل التطورات الرّاهنة

في هذا الفصل سنسلّط الضّوء –إن شاء الله – على ثلاث نقاط أساسية وهي: أسباب سقوط الحضارة العربية الإسلامية وضعفها، وإمكانية نهوض الحضارة العربية الإسلامية من جديد في ظل ما وصل إليه المسلمون في الوقت الحالي، ثمّ نختم الفصل والكتاب بالحديث عن نظرة الغرب إلى الحضارة العربية الإسلامية وموقفهم من عودتها من جديد، ونسأل الله أن يوفقّنا إلى الصّواب ويعيننا على بلوغ الحق الّذي قد يخفى عنّا سهوا أو جهلا.

المبحث الأوّل: أسباب سقوط وانحطاط الحضارة العربية الإسلامية

لقد تعدّدت أسباب سقوط الحضارة العربية الإسلامية ما بين أسباب دينية وأسباب سياسية وأخرى عسكرية واقتصادية ونفسية...الخ، ومن ثمّ فإنّه لا يمكننا حصرها في جانب واحد فقط دون غيره، ولذلك سنتعرّض في هذا المبحث المهم بشيء من التّفصيل إلى العديد من العوامل والأسباب التي أفضت إلى سقوط أهم حضارة انسانية عرفتها البشرية على مر التاريخ، وذلك على النّحو الآتي:

أوّلا: الأسباب الدّينية والأخلاقية

قبل أن أتحدّث عن الأسباب الدّينية والأخلاقية التي أدّت إلى سقوط الحضارة العربية الإسلامية في شكل نقاط أحببت أن استحضر في هذا المقام مقولة تنسب إلى الصّحابي الجليل عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه، وهي تلخّص لنا سبب انحدار الحضارة العربية الإسلامية بعدما كانت تتّصف بالقوّة والأصالة والمتانة، وقد أخرج الحاكم في مستدركه عن طارق بن شهاب قال: خرج عمر بن الخطاب إلى الشّام ومعه

أبو عبيدة بن الجراح –رضي الله عنهما – فأتوا على مخاضة وعمر على ناقة له، فنزل عنها وخلع خفيّه فوضعهما على عاتقه وأخذ بزمام ناقته فخاض بها المخاضة[185]، فقال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين أأنت تفعل هذا ! تخلع خفيّك وتضعهما على عاتقك وتأخذ بزمام ناقتك، وتخوض بها المخاضة ؟ ما يسرّني أنّ أهل البلد استشرفوك..فقال عمر: أوّه لو قال ذا غيرك أبا عبيدة جعلته نكالا لأمّة محمد صلّى الله عليه وسلّم: "**إنّا كنا أذل قوم فأعزّنا الله بالإسلام فمهمنا طلبنا العزّة بغير ما أعزّنا الله به أذلّنا الله**" [186].

ما أغلى هذه العبارة وما أزكاها معنى وقدرا، لقد أوضحت هذه العبارة بطريقة غير مباشرة أنّ الضُّعف والهوان الذي يصيب الأمّة الإسلامية ويجعلها في ذيل الأمم هو تخلّيها عن دينها الإسلامي وطلبها لعزّها من قوانين وضعية أو نظريات ضيّقة أو

((185)) **المخاضة** هي مكان به ماء يجتازه الناس مشاه أو ركبانا، هنا لفتة مهمّة جدّا متعلّقة بهذه القصّة وهي أنّ الصحابي الجليل أبو عبيدة بن الجراح وهو أمين هذه الأمة أراد بفهمه العفوي أن لا ينظر الكفّار إلى قائدهم نظرة احتقار وازدراء ونيته في ذلك هي نصرة الإسلام ظاهرا وباطنا، لذلك أشار إلى الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنهما بأن يركب ناقته ويلبس نعليه ليشعر الكفار بعزّة المسلمين وقوتهم، ولكن عمر الفاروق رضي الله عنه أراد أن يبعث برسالة إلى عبيدة بن الجراح وإلى الأمة الإسلامية قاطبة بأنّ عزة المسلم ليس في المظهر الخارجي إنّما بما يقر في صدر المسلم من إيمان وبمدى اتباعه لشرع ربّه عزّ وجل وهدي نبيّه محمد صلى الله عليه وسلّم، وهذا هو المقصد من إيراد هذه الحقيقة ولنا في ذلك عبر ودروس جمّة لا يتسع المقام لذكرها، وهذه المقولة بالذّات بالنسبة إليّ هي من أنفس ما قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد أعزّه الله فعلا في الدنيا والآخرة بصدقه وأمانته وغيرته على الاسلام ونصرته للنبي صلى الله عليه الصلاة والسلام، و لذلك فهو سيّد من سادات الأمة الإسلامية ومن أعظم قاداتها على مر التاريخ.

((186)) أبو هيثم محمد درويش،" **كنّا أذّل قوم فأعزنا الله** "، انظر إلى الموقع الالكتروني الآتي: https: //ar.islamway.net/article/38855

شعارات رنّانة أو مقولات زائفة، ويفهم من هذه العبارة كذلك أنّ قوّة المسلمين ليست في الكثرة أو القوة العسكرية أو الاقتصادية وإن كنّا نحن مطالبين عقلا وشرعا بتقوية هذه الجوانب، وإنّما قوّتهم في استمساكهم بدينهم الحنيف واتّباع سنّة نبيّهم وهديه وما كان عليه صحبه الكرام ومن تبعهم بإحسان، ومن دون ذلك لن نكون شيئا؛ فالأمّة الإسلامية اليوم يفوق تعدادها المليار نسمة ولكنّها لم تحقّق بعد النصر على أعدائها ولم تتفوّق اقتصاديا ولا عسكريا، فهيهات هيهات ما بين دعانا إليه شرع الحنيف وما عوّلت عليه عقولنا القاصرة.

وقد أُثر كذلك عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انّه قال: "**إنّكم لا تغلبون عدوّكم بعدد ولا عدّة، ولكن تغلبونهم بهذا الدّين، فإذا استويتم أنتم وعدّوكم في الذنوب كانت الغلبة لهم**" وفي هذا النّص تحذير من الصّحابي الجليل عمر بن الخطاب رضي الله عنه من ترك المسلمين لأسباب الغلبة الحقيقية ضد أعدائهم في الحاضر والمستقبل، وقد حلّ بالأمة الإسلامية ما كان يخشاه فاروق الأمة وهي الهزيمة النّكراء من جانب المسلمين أمام أعدائهم في أكثر من موقعة وفي العديد من أراضي الإسلام وكل ذلك بسبب المعاصي التي اقترفوها والحرمات التي انتهكوها، وبسبب إعراضهم عن شرع الله وسنّة نبيّهم الأمين محمّد صلّى الله عليه وسلّم.

وفي هذا درس عظيم للأمّة الإسلامية بأنّ حضارتهم الإسلامية ليست كبقية الحضارات الانسانية الأخرى لها ركائز وأسس إن هي أهملتها انهارت جملة واحدة، ومن تلك الأسس هي الأخلاق والخشية من الله في السّر والعلن، والامتثال لما أمر به الله عز وجل ونبيّه محمد صلى الله عليه وسلم والانتهاء عمّا نهى الله عزو وجل ورسوله الأمين محمد سيّد العالمين، ومنها كذلك إسناد الأمانة والمسؤوليات العظام إلى أهلها ومستحقيها، والصّبر على ملاقاة الشدّة لنصرة الدّين وتبليغ دعوة محمّد صلى الله إلى

العالمين، فضلا عن إقامة ميزان العدل بين المسلمين بلا تفرقة وتحيّز إلى عشيرة أو قبيلة أو قرابة، فالنّاس متساوون أمام شرع ربنا بصرف النظر عن لونهم وجنسهم وانتمائهم الوطني.

وفيما يلي نورد على شكل نقاط الأسباب الدينية التي أدّت إلى تهاوي الحضارة العربية الإسلامية وأفولها:

1-ضعف التّوحيد وانتشار مظاهر الشّرك في البلاد الإسلامية: وفي هذا يذهب الأستاذ الدكتور عبد الله محمد الأمين إلى القول بأنّ التوحيد هو عصب التّصور الإسلامي، وهو الّذي صنع الحضارة الإسلامية في بداية ظهورها، غير أنّ مسألة التّوحيد تعرّضت لمحاكات المتكلّمين بتأثير الفلسفة اليونانية[187] وظلالها المسيحية ممّا انعكس سلبا على الفعل الحضاري، وإذا كان التّوحيد هو السّبب الذي صنع الحضارة العربية الإسلامية فإنه سيبقى على مرّ الدّهور العامل المحرّك للحضارة العربية الإسلامية [188]، وبالفعل قد صدق الأستاذ الدكتور فيما قاله، ولكن كثير من المسلمين يهوّنون – عن جهل أو غفلة-من مشكلة التّوحيد ويتعبرونها ليست من

((187)) الفلسفة اليونانية في باب العقائد كانت شرّا على المسلمين حيث جرّتهم إلى مزالق خطيرة، كما عصفت بوحدة المسلمين وأضعفت قوتهم وفرّقتهم شذر مذر حتّى نال من العلماء المسلمين من القتل والتعذيب ما نالوه بسبب ردّهم للأفكار الشّاذة التي دخلت إلى المسلمين عبر كتب الفلاسفة اليونايين والتي أغلبها مبنية على الشّك والظّن والتّخيلات الفكرية المستوحاة من العقل والمنطق، ونحن نقول من هذا المنبر يجب عدم الاستهانة بخطورة ذلك لأنّه قد ينتج عن التهاون بهذه الأمور انتشار الإلحاد وتشكيك المسلمين بمصادر الشريعة الإسلامية، فضلا عن ضعف عقائدهم الإسلامية القائمة على التّصديق لا التّشكيك.

((188)) عبد الله محمد الأمين، "**حول عوامل تدهور الحضارة الإسلامية**"، انظر إلى الموقع الالكتروني الآتي: https: //www.islamweb.net

القضايا الأساسية في تدهور الأمة، بل حسبهم أنّ تدهور الأمة الإسلامية يكون بسبب تفريطها في الأمور الاقتصادية والعسكرية والسياسية فحسب، وقد يكون ذلك ناشئا إمّا عن جهل وإمّا لعدم إحاطتهم بواقع المسلمين ومظاهر الشرك في بلاد المسلمين، وعلى كل حال فإنّ الشّرك الذي هو أكبر الكبائر هو أحد الأسباب التي أفضت إلى ضعف الأمة الإسلامية أخلاقا وسلوكا وعقيدة الأمر الذي جعلهم يقعون في كثير من المحاذير الشّرعية كطلب النّصر والتّمكين من أصحاب القبور والأولياء والصّالحين، وهذا من أبطل الباطل الذي لا يمكن معه أن يصير المجتمع الإسلامي مجتمعا قويّا ومُهاب الجانب.

2- **ميل قادة المسلمين إلى ملذّات الدّنيا وزخارفها:** حينما تسلّل حب الدّنيا إلى قلوب المسلمين –ومن باب أولى إلى قادتهم وزعمائهم- ومالت بهم أنفسهم إلى حياة اللّهو والغناء والمجون، وحينما اشتغلوا بإشباع شهوات النّفس الفانية دبّ الضّعف إلى المسلمين، وانتشرت عندئذ الغفلة بينهم، ولم يعودوا يهتموا بأمر المسلمين والجهاد والدّفاع عن بيضة الإسلام والمسلمين، وهو ما دفع بالصليبيين إلى الانقضاض على معاقل المسلمين مستغلين فرصة انشغالهم باللّهو والمجون وحياة التّرف والبذخ الّتي كان عليها أغاب المسلمين في ذلك الوقت، وقد أصاب المسلمين هوانا عظيما حينما أغار عليهم الصّليبيين واستحكموا القبضة عليهم، فأضحوا بعدما كانوا هم أهل القوّة والعزّة لقرون من الزّمن في قبضة عدوّهم اللّذوذ فأذاقوهم صنوفا من العذاب يعجز الانسان عن ذكرها ووصفها لفضاعتها وشدّتها، ولا يزال أعداء الأمّة الإسلامية يكرّرون نفس المشهد كلّما سنحت لهم الفرصة، والله أقولها بكل صدق إنّ أعداء أمتّنا الإسلامية لا نأمن شرهم ومكرهم مهما أبدوا حبّهم وميلهم لنا فهم أهل الغذر والمكر من قديم الزّمان، فكيف يتغيّرون اليوم إلى الأحسن؟، ولقد كشف الله حالهم وبيّنهم لنا بشكل

جلّي في قوله تعالى: "**لن ترضى عنك اليّهودُ ولا النّصارى حتّى تتّبع ملّتهم**...."[189]، وملّتهم قائمة في الأساس على كره الإسلام والمسلمين جملة وتفصيلا، ومن يبغضك لو أهديته أغلى ما في الدّنيا يبقى على بغضه وعدواته لك ما بقي اللّيل والنهار.

3- **تدهور أخلاق المسلمين وقلة الوازع الدّيني فيهم**: من الأسباب التي أدّت إلى سقوط الحضارة العربية الإسلامية وضعفها وتراجع مكانتها بين الأمم هي فساد قلوب المسلمين وانتشار الأمراض القلبية بينهم كالحقد والبغضاء والغيبة،[190] وكل هذا بسبب ضعف العقيدة الإسلامية بينهم وتمكّن الهوى من قلوبهم الأمر الّذي جعلهم يهتمون بأمور الدّنيا أكثر من انشغالهم وتفكيرهم بأمور الآخرة كالبعث والنشور والحساب يوم الدّين، ولا نقول إنّ المسلمين في عهد الرّسول صلى الله وعليه وسلم أو في عهد الخلفاء الرّاشدين ومن أتى من بعدهم لم يقترفوا ذنوبا وآثاما وأنّهم كانوا معصومين من الخطأ والزّلل، بل هم بشر يخطؤون ويصيبون كغيرهم من البّشر ولكنّهم كانوا على جانب كبير من التّقوى والتّسامح وسلامة القلوب التي جعلتهم كالجسد الواحد، فإذا أصاب أحدهم مصيبة يتسارعون لمواساته وتعزيته والوقوف إلى جانبه، وعلاوة على ذلك لم تكن الدّنيا سببا لإحداث النفور بينهم لأنّهم يعلمون بأنّ الدّنيا مهما طالت فإلى زوال وفناء ولا يبقى إلاّ الواحد الديّان، ولما ضعفت هذه السّجايا بين المسلمين في القرون المتلاحقة لم تعد كثرتهم تغني عنهم شيئا إن لم نقل أصبحت كثرتهم لا تخيف أعدائهم لأنّ أعدائهم يعلمون أنّ سر قوّة المسلمين تكمن في أخلاقهم ودينهم وعقيدتهم النّقية

((189)) سورة البقرة , الآية 120.

((190)) عبد الحليم العويس، **أربعون سببا من أسباب سقوط الأندلس**، الطبعة الأولى، القاهرة، دار الصحوة للنشر والتوزيع، 1994، ص11.

من الشوائب والبدع والخرافات، وهذا هو رأسمالهم الحقيقي وسبب عزّهم في الدّنيا والآخرة والله المستعان.

4- **الجهل بالدين وعدم الاكتراث به في تنشئة الأجيال والأبناء:** إنّ الفقه في الدّين والتّربية الصّحيحة والسّليمة يقيان صاحبهما من مختلف المهالك والمزالق والفتن، وقد كان للتّفقه في الدّين والتّربية الإيمانية في المجالس قيمة عظمى في زمن عبد الله بن ياسين، حيث ربّى المجاهد يوسف بن تاشفين خير تربية وأرشده إلى ما تصلح به نفسه، وهو الأمر الّذي هيّأه لخوض عدّة معارك خالدة في الأندلس، حيث أعاد –رحمه الله – للمسلمين عزّتهم ومكانتهم وكرامتهم، لكن للأسف انتشر الجهل بالدّين في نهاية عهد المرابطين، وفي عهد دولة الموحّدين، وسادت بين الناس معتقدات غريبة وآراء عجيبة تدّل على الجهل المطبق بالدّين الإسلامي وأحكامه ومبادئه وتعاليمه[191]، وقد مهّدت هذه المرحلة إلى انقسام المسلمين إلى عدّة طوائف متناحرة ومتقاتلة، وهو ما أدّى إلى إضعاف شوكتهم وإصابتهم بالوهن والخور إلى يوم الناس هذا.

5-**عدم الاحتكام إلى الكتاب والسّنة عند حدوث الخلافات بين المسلمين:** من الأشياء التي عمّقت الخلافات المشينة والمحاكات العقيمة بين المسلمين هي عدم احتكامهم إلى كتاب ربّهم أي القرآن الكريم وكذا سنة نبيّه محمد صلّى الله عليه وسلم، وقد كان هذا تمهيدا لتعطيل الأحكام بالشّرع وإحلال محلّها الأحكام الوضعية التي هي من اجتهادات البشر والتي تتّصف عادة بالضّعف والقصور وعدم الإحاطة بكل الأجزاء والتّفاصيل، ولما تهاون المسلمون بتحكيم الشّريعة الإسلامية دبّت إليهم الكثير من الأوجاع والأمراض والتي لم يبرؤوا منها إلى يومنا هذا، واحتاروا في أمرهم حيرة

((191)) أبو اليسر رشيد كهوس، "**عوامل سقوط الأندلس: دراسة تحت مجهر السنن الاجتماعية**، صحيفة البيان، العدد325، يوليو 2014.

شديدة وما ذاك إلاّ بسبب إعراضهم عمّا شرّعه الله لها من أحكام وتعاليم هي في الأصل سبب سعادتهم في الدّنيا والآخرة وعاملا من عوامل استقرارهم ووحدتهم، وعلى كل حال فقد خسر المسلمون أيّما خسارة بسبب تعطيل أحكام الشّرع ظنّا منهم أنّ فيها مشقّة ويصعب تطبيقها لأنّ زمنهم يختلف عن زمن نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم اجمعين، وقد انتهى بهم اجتهادهم هذا إلى حصول تفرق المسلمين إلى جماعات متناحرة وطوائف متقاتلة الأمر الّذي أدّى في نهاية المطاف إلى انهيار وتراجع حضارتهم الإسلامية.

ثانيا: الأسباب السياسية

إذا نظرنا إلى ما آلت الحضارة العربية الإسلامية في أواخر أيّامها وجدنا أنّ الخلافات السياسية والصّراع على الحكم كانت من أهم الأسباب التي أدّها إلى انهيارها وضعفها، حيث تزايدت حدّة الصّراع على السّلطة بين الأمراء في الأندلس الأمر الّذي ترك فراغا رهيبا في تنظيم أمور الدّولة في جوانبها الأمنية والعسكرية على وجه الخصوص، وقد استغل هذا الفراغ الإفرنج وقام بإعادة ترتيب أمورهم بشكل جيّد ومحكم إلى أن تحيّنوا الوقت المناسب لتنفيذ خططهم العسكرية التي باغتوا بها ديار الإسلام في بلاد الأندلس، وقد شكّلت الغارات المفاجئة التي شنّها الصّليبيين الأوربيين صدمة كبيرة جدّا على المسلمين والأمراء في ذلك الوقت بسبب تفرّقهم وترشدهم إلى جماعات سياسية متناحرة.

وبهذه المناسبة أريد أن أؤكّد على أنّه ينبغي عدم التّهوين من شأن الخلافات السّياسية بين أبناء الأمّة الواحدة أو الدّولة الواحدة، وقد يخفى على كثير من النّاس أنّ أعداء الحضارة العربية الإسلامية أو المسلمين بشكل عام يلجؤون في الغالب إلى

سياسة فرّق تسد لإضعاف شوكة المسلمين وتسهيل عملية غزوهم واحتلالهم، وقد نجح للأسف أعداء الأمة الإسلامية في تحريك خيوط هذه اللّعبة ضد المسلمين وتمكنّوا بالفعل من تمزيق أوصال الأمّة الإسلامية إلى جماعات متشرذمة وفرق متناحرة في الأندلس وغيرها من البلدان الإسلامية التي لم تسلم من تبعات هذه السياسية أعني سياسة فرّق تسد.

وللأسف يأتيك اليوم من يقول أنّ الاختلافات السياسية ظاهرة صحيّة ومؤشّرا من مؤشّرات الديمقراطية المزعومة، وهذا وهم وخطأ فادح، إذ لم تكن الاختلافات السياسية على مرّ التاريخ إلاّ سببا من أسباب التنازع سواء بين المسلمين أو بين الكفار، ولأنّ الاختلافات السياسية المبنية على المصالح الضيّقة تفضي دائما إلى فقدان الثّقة بين الأفراد والسياسيين وعادة ما تنتهي تلك الاختلافات بصراعات سياسية قد تصل إلى حدّ الحروب الأهلية أو على الأقل قد تصل إلى حد الخصومات التي تفسد العلاقات بين أولئك المتخاصمين.

ومن النّاس من يرى أنّ وجود الخلافات بين السياسيين دليلا على وجود الديمقراطية وصحّة الحكم ومؤشّرا على وجود التّعددية السياسية والحزبية، وهذا ما قد عمّت به البلوى وصار الناس ينظرون إليه على أنّه من لوازم السياسة، مع أنّ الإسلام أمرنا بعكس ذلك تماما فقد أمرنا ديننا الإسلام بضرورة الاعتصام بحبل الله المتين وجمع المسلمين تحت راية واحدة ونهانا على التفرّق والتّشرذم قال تعالى: "**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ**

اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ"[192]، وانظر أخي القارئ وتأمّل قوله تعالى ولا تفرّقوا لتدرك أنّ التفرّق يكون دائما مذموما مهما كانت مبرّراته ومسوّغاته لأنّه ينتهي في الغالب إلى نشر الكراهية والبغضاء والحقد بين المسلمين، ومن أراد أن يتأكّد من هذا جيّدا فلينظر في حال الأحزاب السياسية الموجودة في العالم الإسلامي اليوم كيف أنّهم متفرّقون شذر مذر وكل حزب يعادي الأحزاب السياسية الأخرى ويتهّمها إمّا بالتّزوير وإمّا بالتطبيل والانحياز التام لمصالحها الخاصة، فهذه الأحزاب أصبحت لا تمثل في الغالب إلاّ جماعتها ولا تدافع إلاّ عنهم وكأنّ الجماعات الأخرى لا يعنيها أمرها لا من قريب ولا من بعيد، وهنا تكمن خطورة التحزّب والافتراق بين المسلمين على أمور دنيوية فانية زائلة والله المستعان.

ويجب التّنبيه كذلك على نقطة مهمّة جدا وهي أنّ الاختلافات السياسية التي تؤدّي في الغالب إلى حدوث انقسامات سياسية بين أبناء الأمة الواحدة –بل بين الأسرة والواحدة – قد تفضي إلى معضلة أخرى أشدّ خطرا منها بأضعاف مضاعفة، حيث قد تؤدّي تلك الانقسامات إلى التّحالف والتّواطؤ مع العدو لإسقاط الحاكم وأخذ مكانه بالقوّة، ولكن للأسف كثيرا ما يؤدّي ذلك إلى نتائج عكسية تماما فإنّ الاستعانة بالعدو في الغالب عواقبها وخيمة وآثارها جسيمة مثلما حدث مع ابن العلقمي[193] الذي كان سببا مباشرا في مهاجمة المغول لأرض العراق واستباحة دمائها

((192)) سورة آل عمران، الآية 103.

((193)) **ابن العلقمي** (مؤيّد الدّين الأسدي البغدادي)هذا هو صاحب الخيانة العظمى ويعود أصله إلى بلاد فارس كام مذهبه التشيع طمع في الحكم فانتهى به طمعه إلى قتله وخراب بيوت آلاف من المسلمين وهلاكهم، والذي يظهر لي أنّ هذا الرجل كان يضمر شرا للمسلمين ويتظاهر بعكس ذلك، وإلاّ كيف يستعين بعدو للمسلمين ويثق فيه من أجل توليته على أحد الإمارات الإسلامية، وقد جازاه الله بسوء قصده أن أذلّه شر إذلال على يد من

وقتل الآلاف من المسلمين وإن كان هذا بقضاء الله وقدره ونحن نسلّم بذلك لكن في التاريخ دروسا وعبرا يستفاد منها حاضرا ومستقبلا فقد ذكر المؤرّخون أنّ ابن العلقمي الذي كان وزيرا للمستعصم بالله أحد الخلفاء الراشدين العباسيين هو الّذي هيّأ الظروف لهلاكو السفّاح لمباغتة بغداد وغزوها، وقد اقترف هلاكو مجازر انسانية بأرض العراق يعجز اللّسان عن وصفها وذكرها للأجيال الحاضرة، وهذا التّصرّف الشّنيع والقبيح الذي قام به ابن العلقمي الخائن هو أن يصير حاكما أو واليا على على أحد الأمصار الإسلامية لكن هولاكو جزاه مجازاة غريبة حيث قام بقتله وإهانته، فلا ابن العلقمي حقّق أمانيه السياسية ولا المسلمين سلموا من شر وبطش هلاكو السّفاح، والعبرة من هذه القصة هي أنّ الطموحات السياسية التي لا تقدّم مصلحة الاسلام والمسلمين لا خير فيها بل هي شرّا محضا، يجعل المسلمين في موطن ضعف وهوان وخيبة وخسران، فهل يعتبر إذن جيلنا ممّا حدث للمسلمين في الأندلس والعراق وغيرها من الحواضر الاسلامية؟، أم يفضّلون المجازفة والمغامرة لتحقيق أهداف وطموحات وهمية أغلبها تنتهي بالفشل.

ونحن نحذّر دائما من مغبّة التّواطئ مع أعداء الأمّة الإسلامية والوثوق بهم فهم لا يعرفون جميل ولا يرحمون كبير ولا صغير، ومن يثق في أعداء الأمّة الإسلامية فهو على خطر وشيك وشر قريب، فهم خانوا الرسالات والأنبياء فما بالك بعامة المسلمين وأمرائهم، كما حرّفوا شرائع دينهم لحظوظ النفس وشهوات فلا دين يردعهم ولا قانون يحتكمون إليه بصدق، فهم يدورون مع المصالح أين ما دارت ولا حبيب لهم غير المال

وثق به وكان عبرة لمن يعتبر، ودرسا لكل خائن يخون وطنه ودينه وشعبه لمصلحة فانية وشهوة زئلة (شهوة الرئاسة والحكم).

والجاه، وألستنهم كأنّها عسل مصفّى وقلوبهم سمّا زعافا، ومن يأمن شرّهم فهو إمّا في عقله نقص وإمّا غلب عليه الجهل والطمع فيما لا يقدر عليه.

وعلى العموم فإنّنا نقول أنّ الأسباب السياسية تضاف إلى قائمة أهم الأسباب التي أدّت انهيار الحضارة العربية الإسلامية وهوان المسلمين، ولذلك فإنّ التّلاعب بأمور الدّولة الجسام وترك السياسة لمن لا يفقه في مدخلها ولا مخرجها شيئا هو بمنزلة من يوكل شخصا بسياقة مركبة وهو لم يتدرّب على سياقتها يوما واحدا في حياته، فهذا إمّا أن يعرّض المركبة إلى عطل وإمّا يتسبّب في حوادث مميتة وقاتلة، فهو لم ينج بنفسه وعرّض غيره للخطر، وما يقال عن المتعالم يقال على من يريد أن يخوض في غمار السياسة وهو عاجز على إدارة شأنه وشأن بيته وأهله، ومن هذا المنبر أرجو أن لا يمكّن صغار العقول والتّافهين من إدارة شؤون العامة والبلد، وهذا حتّى يأمن هؤلاء من شرّهم، ويتفرّغ الأكفاء إلى إصلاح الاعوجاج الذي كان سببا في تخلّف الأمة الإسلامية، وقد يقول قائل هذا ضرب من المحال وأمرا صعب المنال فنقول له ولأمثاله أرفق بنفسك واشتغل بها والتفتيش عن عيوبها فهذا بداية الإصلاح وعلامة على انفراج الأزمة التي حلّت بأمتنا الإسلامية وحضارتنا الانسانية.

ثالثا: الأسباب العسكرية

من بين الأسباب كذلك التي عجلّت بسقوط الحضارة العربية الإسلامية في بلاد المسلمين هي كثرة المعارك التي خاضها المسلمون ضد أعدائهم من الإفرنج وغيرهم، ضف إلى ذلك توالي الانهزامات العسكرية التي مُنيت بها الجيوش الإسلامية نتيجة التفوق العددي والعسكري لأعدائهم، فأعداء المسلمون كانوا أكثر عدّة وتنظيما من

المسلمين في ذلك الوقت، وبينما كان المسلمين منشغلين بلملمة جراحهم كان العدو يباغتهم كلما سنحت له الفرصة في ذلك، وهو ما جعل جراح المسلمين تعظم حينا بعد حين الأمر الّذي جعلهم غير قادرين على إعادة تنظيم جيوشهم الإسلامية وتقوية جبهات القتال في الدّاخل والخارج.

وحتّى القيادة العسكرية للمسلمين ببلاد الأندلس لم تكن في مستوى تطلّعات المسلمين، حيث سيطرت عليهم النّعرات القبلية والخلافات المذهبية ولم يأخذوا حذرهم من العدو الذي قد يبغتهم في أي لحظة، وكان أغلبهم يريد الحصول على أكبر عدد من المزايا والمنح، وهذا بسبب تعلّقهم بالدّنيا وميلهم الشّديد إلى ملذّات الدّنيا، ونحن نعلم بأنّ المسلمين على مر التاريخ لم يكونوا أكثر عددا ولا أكثر قوّة من أعدائهم وخصومهم ولكن ميزان القوّة عند المسلمين دائما يكون بمدى استمساكهم بدينهم وعقيدتهم الإسلامية فضلا عن نوعية القادة العسكريين الذين يتولّون أمور القتال والحروب، فهذا خالد بن الوليد رضي الله عنه أدخل الرعب في قلوب الكفرة قبل رؤيته وما ذلك إلاّ بسبب حنكته العسكرية وتحكمه في فنون القتال.

وقد كان مجّرد وجود خالد بن الوليد رضي الله عنه في الجيش قوّة كبيرة للمسلمين وسندا منيعا يحتمي به المسلمين، ولذلك لما مات أبو سليمان خالد بن الوليد رضي الله عنه رثاه المسلمين واشتد البكاء والعويل عليه، ولما جاء أحد الرّجال إلى عمر ليخبره إنّ نساء المسلمين يبكين خالدا ويندبن عليه قال له الفاروق: "**ثكلتك أمّك على مثل أبي سليمان فلتبك البواكي**"، وهذا يؤكّد مكانة خالد بن الوليد رضي الله عنه عند الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما يؤكّد من جهة أخرى على أن عظمة الجيش تكون دائما بعظمة قائده العسكري وحنكته القتالية فرحم الله خالدا بن الوليد الذي أعزّ الله به وبأمثاله الإسلام.

وحينما يُولّى على المسلمين قادة عسكرية أكفاء فإنّ العدو يحسب لهم ألف حساب ويخشى حتّى في غزوهم ومباغتهم لأنّ فرص النّصر عليهم تكون ضئيلة جدا، ولذلك نرى في كل زمان أنّ أعداء المسلمين قبل أن يحتلوا دولة إسلامية مثلا يقومون بتصفية القادة العسكرية الأكفاء لكي تضعف القدرة القتالية للدولة التي يريدون احتلالها وغزوها، وقد فعل ذلك مرارا وتكرارا الاحتلال الفرنسي في الجزائر، حيث نجدهم كل مرّة يعمدون إلى قتل وتصفية أو إغواء القادة العسكريين الجزائريين بمزايا ومبالغ مالية طائلة من أجل ترك القتال والكّفاح والتّخلي عن قيادة جيش الدّولة المسلمة، وإن لم يفلحوا في ذلك يرتّبون مبالغ مالية ضخمة لمن يقتل أحد قادة الثورة الجزائرية، ولكن ولله الحمد فإن قادة المسلمين عموما لا يفنون فإذا مات أحدهم خلفه الآخر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ومع ذلك فحينما يموت قائدا من قادة المسلمين فإنّ ذلك أعظم من قتل جيشا بأكلمه، وهذا ليس تهوينا من قدر ومكانة الجيش وإنّما هو تأكيد على مزية القائد على باقي الجيش.

وهنا فائدة أخرى مهمّة وهي أنّه كلّما فرّط المسلمين في تقوية جيوشهم وجبهاتهم القتالية فضلا عن إعداد العدّة القتالية والعسكرية فإنّ ذلك معناه بداية هوانهم وتعرّضهم لأذية ومكر أعدائهم من اليهود والنصارى ومن شايعهم، ويجعل خصومهم يستهينون بهم ولا يرحمون فيهم مغرز إبرة، ولو تأمّلنا قوله تعالى: " **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ**"[194] أيقنّا بلا شك أنّ أحد الأسباب الفعلية لانهزام المسلمين وذلّهم –سواء في بلاد الأندلس أو غيرها من الحواضر والبلدان الإسلامية – هو تركهم عن قصد أو

((194)) سورة الأنفال، الآية 60.

غير قصد لأسباب القوة العسكرية لأنّ ما يرهب الخصوم من جهة القوة العسكرية هو أكثر بكثير من القوة الاقتصادية أو القوّة الصّناعية.

لذلك فإنّ الكفار دائما يحرصون حرصا شديدا على عدم تقوّية الجيوش الإسلامية ويحرمونهم بكل ما أوتوا من قوّة من حق امتلاك الأسلحة النووية تحت حجج واهية، لأنّهم يعلمون علم اليقين أنّ المسلمون لو امتلكوا الأسلحة النووية سيغيرّون خارطة العالم (عدلا وليس ظلما) وسيصبحون هم قادة العالم وسادتهم كما كانوا بالأمس لكنّهم لم يأبهوا لما أمرّهم به خالقهم –أي المسلمون– فصاروا للأسف هم أضعف دول العالم ولم تعد لهم قوة ومنعة يجابهون بها أطماع أعدائهم.

رابعا: الأسباب الاقتصادية

في البداية يمكن أن نقول إنّ الأسباب الاقتصادية التي أدّت إلى انهيار الحضارة العربية الإسلامية هي في الأصل تبع للأسباب الدّينية والأسباب السياسية وليست مستقلة عنهما، ولذلك فإنّ إهمال المسلمين لجانب العمل الّذي هو أحد أسباب قوّتهم وعزّتهم مرّده لانشغالهم بأمور القتال والحروب التي أنهكتهم وأثقلت كاهلهم هذا من جهة، ولغياب التّخطيط العلمي والاستراتيجي من جهة أخرى، وحتّى الظروف الأمنية التي كان يعيشها المسلمون آنذاك هي الأخرى أسهمت بشكل كبير في تعطّل الأنشطة التّجارية والاقتصادية نتيجة الحصار الشّديد الذي فرض على المسلمين من قبل الصّليبيين واتباعهم، الأمر الذي جعل النّشاط الاقتصادي للمسلمين محدود للغاية.

وهناك من يعزو أسباب الانهيار الاقتصادي الذي حلّ بالمسلمين في ذلك الزّمن إلى حالات الإسراف والتّبذير التي عمّت في بعض الحواضر الإسلامية كقرطبة مثلا، وكما هو معلوم فإنّ ديننا الإسلامي نهى عن الإسراف والتّبذير في العديد من جوانب الحياة كالإسراف في المأكل والملبس والماء وملذّات الدنيا المختلفة لأنّ الإسراف يفضي مهما طال الزّمن أو قصر إلى الإفلاس والخراب والحاجة، والتّوسط في ما ذكرناه في أمور الدُّنيا هو المأمور به المسلم فلا إفراط ولا تفريط، وإذا اختلّت هذه المعادلة أصاب الأمّة الإسلامية أزمات كثيرة كأزمة الفقر وأزمة التّشغيل وأزمة الزواج والسكن.....الخ، وكلّ هذا ليس في مصلحة الإسلام لا من قريب ولا من بعيد، ومصلحة الإسلام تكون في الحفاظ على قوّة المسلمين وثباتهم على الحق وشرع ربّنا، ولا يكون هذا إلاّ بالحفاظ ومراعاة تلك النّعم التي أنعم الله بها على المسلمين .

وما يحزّ في النفس هو أنّ المسلمون أصبحوا أكثر إسرافا وتبذيرا في مختلف مظاهر الحياة أكثر من غيرهم، رغم أنّ نصوص الشّرع تنهاهم على ذلك، ولأجل ذلك قلنا أنّ الانهيار الاقتصادي هو في الأساس تبعا لضعف العقيدة الإسلامية وقلّة الفقه في الدين، حيث رأينا كيف توسّع المسلمون أيام الحضارة العربية الإسلامية في المأكل والمنكح وملذّات الدنيا دونما التّفكر في عواقب هذا الأمر، بل يلتفتوا لخطورة ذلك إلاّ بعد أنّ حلّ بهم من الخراب ما حلّ، وبعد أن أصابتهم الحاجة والعوز، وسنة الله في خلقه أنّ الغنى والإسراف لا يجتمعان أبدا مهما حاول المرء التّوفيق بينهما، وقد سمعنا ورأينا أناسا كانوا يعيشون في غنى فاحش ورغد العيش لكنّهم بسوء تدبيرهم وكثرة تبذيرهم لنعمة المال صاروا من أفقر الناس وأشدّ الناس عوزا وحاجة.

وهناك من يربط بداية سقوط الحضارة العربية الإسلامية إلى تسرّب الذّهب من البلاد الإسلامية إلى أوروبا من النصف الثاني منة القرن الثاني للهجرة حسب ما ذهب إليه الباحث محمد صادق سعد، وقد تزامنت عملية انتقال الذّهب من بلاد المسلمين إلى أوروبا مع الحملات الصّليبية في أواخر القرن الخامس الهجري، وممّا عقّد من الوضع الاقتصادي أكثر فاكثر لدى المسلمين هو فقدان المسلمين لأهم الطرق التّجارية مثل طريق الحرير بعد سيطرة المغول أو اكتشاف طريق الرجاء الصالح، وتراجعت أهمية طريق البحر الأحمر، حيث بدأ النشاط التجاري ينقلب لصالح الجمهوريات التجارية الإيطالية، وكان ذلك سببا آخر لتدفّق الذهب نحو بلاد الغرب أو البلدان الأوروبية، وقد نتج عن ذلك تراجع العملات الاقتصادية للمسلمين بسبب قلّة الرّصيد الذّهبي الذي يستخدم في ضرب العملة الأمر الذي أدّى غلى تدهور الحالة الاقتصادية

للمسلمين وانتشار المجاعات والأوبئة، كما ترك ذلك آثار اقتصادية خطيرة على كل المستويات وهو ما تسبب في خراب مدن بأكلمها[195].

وممّا سبق يتبيّن لنا أنّ العامل الاقتصادي يعد عاملا محوريا كذلك في سقوط الحضارة العربية الإسلامية ببلاد الأندلس وبقيّة الحواضر والبلدان الإسلامية، فكما هو معلوم فقد تضافرت عدّة أسباب لحصول الانهيار الاقتصادي في البلاد الإسلامية وبخاصة في بلاد الأندلس فمنها هو هو متعلّق بسوء الإدارة والتّسيير المسلمين لهذا القطاع الحيوي، ومنها ما هو متعلّق بكثرة الحروب والفتن التي حلّت بالأمة الإسلامية آنذاك، ومنها كذلك ضعف البنية التّحتية للأنشطة الاقتصادية والتجارية للمسلمين، حيث لم نشهد تطوّرا محسوسا في الهياكل القاعدية للإقتصاد، في المقابل شهدت الدول الغربية تطوّرا ملحوظا في هياكلها الأساسية والقاعدية لاسيّما ما تعلّق بالطرقات ووسائل النّقل و طرق حماية البضائع من التلف فضلا عن استحداثهم لأسواق جديدة تضمن استمرارية المعاملات التجارية والاقتصادية في تلك البلدان أقصد البلدان أو الدول الغربية أو بعبارة أدق الدول الأوروبية، ومن ثمّ كان الفارق واضح جدّا بين المسلمين والغرب، حيث ترجّحت الكفّة لصالحهم، وهو ما عزّز من هيمنة وسيطرة الأوروبيين الصليبيين على مكتسبات وثروات الشعوب الإسلامية في ذلك الوقت، إلى غاية تمكّنهم من إحكام السّيطرة بشكل كلّي على دواليب الحكم في بلاد الأندلس وأغلب الحواضر الإسلامية، الأمر الّذي أدّى إلى سقوط المدن الإسلامية الواحدة تلو الأخرى إلى أن سقطت جميعا وأصبحت بيد الإفرنج الصليبيين .

((195)) ممدوح أكرم، "**كيف أسهم الذهب في سقوط الحضارة الإسلامية؟**"انظر إلى الموقع الالكتروني الآتي: https: //www.ida2at.com/how-did-gold-contribute-to-islamic-civilization-fall/.

خامسا: الأسباب النفسية والإيديولوجية

تعد الهزيمة النّفسية التي تنتهي بتقليد العدو في كل شيء هي أحد أسباب أفول الحضارات وسقوطها بشكل نهائي، ولو تأمّلنا نحن كيف آل أمر المسلمين في تقليد أعدائهم من النّصارى وغيرهم لأدركنا أنّ هزيمتنا لم تكن مفاجئة بل كانت متوقّعة ومنتظرة، فالإعجاب بأفكار وثقافات العدو ومحاولة محاكاتها دون تبصّر لشرورها وعواقبها هي أخطر من السّم الزّعاف والرّصاص القاتل، وهذه ليست مبالغة ولا شطط في القول إنّها حقائق يرويها لنا التاريخ بلا نقصان ولا زيادة، فلو رأيت كيف بدأت ملامح المسلمين تتغيّر في أواخر الحضارة العربية الإسلامية لأدركت أنّ أكبر أسباب انحطاطها هي الذوبان في ثقافة الغير، حيث دخلت إلى المسلمين ثقافات هجينة ما كنّا نسمع بها في الزّمن الأول أي زمن نبيّنا محمّد عليه الصّلاة والسّلام وصحبه الكرام ومن أتى بعدهم الذين سلكوا نفس مسلك الرّعيل الأول.

وبدأ كذلك التّساهل من جانب المسلمين في كثير من أمور الشّرع والعقيدة الإسلامية حتّى صار الدّين غريبا كما بدأ أول مرة، كما عرفت العقيدة الإسلامية منذ ذلك الوقت انحرافات خطيرة في العقيدة والسلوك، الأمر الّذي انتهى بهم إلى تغليب الأهواء والأذواق على شرع الله ومن ثمّ دبّ الضّعف إلى المسلمين شيئا فشيئا حتّى صاروا جسدا بلا روح، وبغض النّظر عن مختلف المسوّغات والمبرّرات التي استند عليها بعض المسلمين لتبرير بعض اجتهاداتهم الخاطئة فإنّ ما نجم عن تلك الاجتهادات (في الدين والعقيدة والسلوك) من أضرار معنوية ومادية لا يمكن التّستر عليها ولا إخفائها، ولو لا الله عزّ وجل ثم تصدّي الأخيار من العلماء والمصلحين لتلك الدّعوات والزّلات لانمحت (زالت)كثير من مظاهر الإسلام ومبانيه العظام، ولكن الشّر إذا عمّ وطمّ فإنّ

جهود العلماء لا تكفي وحدها للتّصدي لجميع الحملات التشويهية ما لم يكن هناك سندا لهم من الأمراء والعقلاء والحكماء.

هذا؛ وليعلم القارئ الكريم أنّ أزمة تقليد ومحاكاة المسلمين للغرب مرّده في الأساس البعد عن الدّين وسيطرة الهوى على العقل والحكمة، وإلّا كيف يرضى المسلمين أن يستبدلوا الّذي هو أدنى بالّذي هو خير، والأصل في المسلم أن يكون فطنا لقنا لا تغرّه المظاهر ولا تجري به الأهواء، وحينما يقع المسلمون في حمأة التّقليد بلا روية ولا تعقّل فإنّ مصيرهم بلا شك سيكون إلى زوال وفناء، ولن يترك حينها عدوّهم أي فرصة لطمس آثار شخصيتهم الإسلامية حتّى يصيرون أتباع لهم حذو القذّة بالقذّة، وهذا الّذي حذّرنا منه نبيّنا محمّد صلى الله عليه وسلّم في أكثر من موضع خشية ضياع ديننا الذي هو أغلى ما نملك.

والمتأمّل في حال الحروب الثقافية والفكرية التي ما فتئ الغرب يمارسها بشكل مستمر– ضد المسلمين– منذ قرون من الزّمن يدرك لا محالة أنّ الصّراع بين أنصار الحق و أنصار الباطل لم يعد محصورا في جوانب ضيّقة؛ بل قد اتّسع ليشمل عقيدة المسلمون ولغتهم وثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم وحتّى لباسهم وهندامهم، ومن ثمّ فإنّ دائرة الحرب قد اتّسعت فعلا بيننا وبينهم وأصبحت منصبّة بشكل أكبر على الجوانب الفكرية والثقافية أكثر من غيرها، وهذا حتّى يسهل لهم التّلاعب بعقول شباب المسلمون وترويضها كما يشاؤون خدمة لمخططاتهم التّغريبية المشؤومة.

وفي هذا السياق تحرص الدول الغربية دائما على بثّ سمومها للمسلمين عبر نافذة التّقليد الأعمى لهم، ولذلك تجدهم يباركون ويستقبلون دائما المفكّرين والباحثين والكتّاب والفنّانين الذين يدافعون عن أطروحاتهم الفكرية والثقافية ويغدقون عليهم

بالأموال الطّائلة والهبات والسّكنات الفارهة، ويغلقون الأبواب أمام كل من يكشف مؤامراتهم الخبيثة ضد المسلمين، وكأنّهم بذلك يريدون توجيه رسالة مفادها أنّه من ليس معنا في الفكر والسلوك فهو ضدّنا، ومن ثمّ فهو متحجّر ورجعي حسب معتقدهم المأفون، والخلاصة أنّ ضعف المسلمين نفسيا وعقديا هو كذلك سببا مهمّا في انقضاض الكفرة علينا، حيث يستغلون هزيمتنا النّفسية لتمريرعدّة مشاريع فكرية وثقافية لهدم الثوابت والأصول التي قامت عليها الحضارة العربية الإسلامية، وقد نجحوا للأسف في تطبيق بعض من تلك المشاريع في أغلب البلدان الإسلامية الأمر الّذي جعل ميزان القوة ترجح كفّته لصالحهم، في المقابل حصلت جراح غائرة في جسد الأمة الإسلامية بسبب عدم تمكنّهم من الوقوف في وجه تلك المخططات التغريبية والاستهانة بها في أوّل الأمر.

ولا يسعنا إلاّ أن نقول في الأخير بأنّ سقوط الحضارة العربية الإسلامية لم يحدث بين عشيّة وضحاها ولم يكن ذلك بالأمر الهيّن؛ بل قد استغرق ذلك أزمنة طويلة من التّخطيط وإعداد العدّة لإسقاطها والإجهاز عليها، وأكبر درس نستفيده من أسباب انهيار الحضارة العربية الإسلامية هو أنّ التّساهل في أمور الدّين والعقيدة هي أُولى أمارات ضعف المسلمين، كما أنّ الثقة العمياء في العدو وعدم أخذ الحذر منهم هي بمنزلة من يسلّم نفسه للأسد الهصور ويؤمّل بعد ذلك أن يعيش معه في وئام وسلام أبدي، ونأمل أن نكون قد استفدنا عدّة دروس وعبر من خلال الوقوف على جملة من الأسباب التي أدّت إلى انهيار أرقى حضارة انسانية على مر التاريخ وهي الحضارة العربية الإسلامية.

المبحث الثاني: مدى إمكانية نهوض الحضارة العربية الإسلامية من جديد

أوّلا قبل أن نخوض في هذه المسألة المهمّة جدّا رأيت من المناسب التّذكير على حقيقة مهمّة مفادها أنّ سقوط الحضارة العربية الإسلامية ليس معناه زوالها وأفولها بالكليّة أو إلى الأبد وإنّما معناه التّعثر والضّعف والتّراجع، والدّليل على ذلك هو أنّ الشّعائر الإسلامية التي كان يتعبّد بها المسلمون آنذاك لا تزال قائمة، والمساجد موجودة بكثرة في كل البلدان الإسلامية، حيث ما تزال الصّلوات تؤدّى في تلك المساجد، كمالا تزال الدروس والمحاضرات وخطب الجمعة والأعياد والمناسبات الإسلامية تقام في مؤسّسات المسجد، وإلى جانب ذلك فإنّ مصادر التّشريع الإسلامي ما فتئت قائمة والمسلمون يمارسون مختلف الشعائر الإسلامية بالرّغم من المضايقات التي يتعرّض لها المسلمون هنا وهناك.

ضف إلى ذلك فإنّ دائرة الإسلام لا تزال تتّسع يوما بعد يوم في أغلب دول العالم دون استثناء؛ ففي أوروبا مثلا هناك تزايدا ملحوظا في عدد الّذين يعتنقون الإسلام من ذوي الأصول الأوروبية ومن الجنسين الذّكور والإناث، ومن ثمّ فإنّ أعداد المسلمين تتضاعف يوما بعد حتّى فاقت المليار مسلم، وهذه في الحقيقة –رغم الضّعف الذي حلّ بالأمة الإسلامية– تعدّ بشائر خير تنبئ عن إمكانية عودة الحضارة العربية الإسلامية من جديد، وهذا ليس بمحال، وقد مرّ معنا في ثنايا هذا الكتاب أنّ من خصائص الحضارة العربية الإسلامية أنّها حضارة خالدة وهي الحضارة الوحيدة التي ستضل قائمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهذا فضل من الله عزّ وجل على الأمّة الإسلامية قاطبة، فهي والله رغم النقائص الموجودة فيها خير الأمم علما وأدبا وسخاءً وعفّةً وشجاعةً وإقداما على الخير بمختلف صنوفه وأبوابه وكفى بهذا شرفا للأمّة الإسلامية والحضارة العربية الإسلامية.

ولكن عودة الحضارة العربية الإسلامية كما كانت عليه في بادئ الأمر مرهونا بتحقيق مجموعة من الشّروط والتي سنجملها بشكل مفصّل في النقاط الآتية:

1- **تحكيم شرع الله في العبادات والمعاملات:** إنّ تحكيم شرع الله والوقوف عند حدود الله عز وجل هو من أوجب الواجبات على المسلمين قاطبة، فشرع الله هو الوحيد الّذي يحقّق العدل والاستقرار داخل الأمم والمجتمعات، وفيه رحمة بالمسلمين وعموم البشر؛ بل إن رحمته تمتد إلى كل الخلائق وحتّى الجماد فهي شريعة شاملة ومتوازنة لا إإفراط فيها ولا تفريط، ولا غلو ولا تساهل، ولو توقّف المسلمون عند حدود شرع الله لصاروا والله أسعد الأمم وأقواها بلا مزايدة ولا مداهنة، بل إنّ شرف الأمة الإسلامية أوّلا وآخرا في دينها الإسلامي وعقيدتها النقيّة وأخلاقها العالية والفريدة.

وتحكيم الشرّع ينبغي ألاّ ينحصر في جوانب الفقه والعبادات فقط كالصّلاة والزّكاة والصّوم والحجّ وغيرها من الشّعائر الدينية الأخرى، بل يجب أن يشمل جوانب أخرى مهمّة كالسّياسة والاقتصاد والتّعليم، لأنّه هناك دعوات من قديم الزّمان تدعو إلى فصل الدّن عن السياسة بحجّة تعارضهما أو صعوبة الجمع بينهما وهذه أخطاء فادحة قد تجر الأمّة الى مهالك ومزالق خطيرة كاستبدال ما أنزله الله إلى العالمين من أحكام وشرائع تشمل جميع شؤون المسلم بنظريات سياسية غربية قاصرة لا تخدمهم إلاّ أصحابها، وتتنافى في كثير من مبائدها ومنطلقاتها مع أسس العدل والانصاف، ونفس الشّيء بالنّسبة إلى الاقتصاد فيجب كذلك ربطه بأحكام وتعاليم الإسلام لأن النّظريات الاقتصادية الغربية أغلبها غثاء وقائمة على أساس الرّبا وأكل حقوق الضّعفاء والمعوزين، فضلا عن أنّها تبيح ما حرّمه الله من معاملات ربوية، وفي ديننا الإسلامي حلولا ممكنة لجميع المشكلات الاقتصادية التي يعيشها العالم اليوم وغدًا.

وقد يقول قائل إنّه من الصّعب جدّا اليوم تطبيق جميع أحكام الشّريعة الإسلامية لأنّ المجتمعات الإسلامية اليوم في حالة ضعف وركود وأعدائها في حالة قوّة وتفوّق وهؤلاء يمارسون ضغوطاتهم اليومية على المسلمين سعيا منهم لإضعاف الوازع الدّيني في أوساط المجتمع المسلمن، فنقول لهم إّننا في الأساس نحن من تسبّبنا في هذا الضّعف، ونحن من حِدنا عن أمر ربّنا طواعية ودون إكراه، فأحيانا نلقي باللائمة على الدّولة في ممارسة الشعائر الدّينية،ونحن في الأصل لا نتابع أبنائنا وأهلينا في تطبيق شرع الله، فمن يمنعنا من تعليمهم القرآن والسُّنة النبوية ودراسة سيرة النّبي محمّد صلى الله عليه وسلّم وصحبه الكرام والتابعين الأعلام وغيرهم من الصّالحين، ومن يمنعنا كذلك من حثّهم على أداء الصّلوات مع الجماعات وصيام النوافل ومطالعة كتب العقيدة الصّحيحة واستماع دروس العلماء الرّبانيين الّذين يحثّونهم على الفضيلة وينهونهم عن اقتراف المعاصي والآثام، فلا أظن أنّ أحدا يمنعهم من ذلك فلماذا التحجّج إذن بحجج هي أوهى من بيوت العنكبوت، ومن يخشى النّاس ولا يخشى من ربّ الناس فقد أضاع نفسه وأهله أجمعين، ومن باب أولى أضاع الأمانة التي أوكلت إليه، وكل واحد منّا مسؤول عن هذه الأمانة أمام الله عزّ وجل.

والحاصل أنّ مسؤولية تطبيق شريعة الله يشترك فيها الأمراء والعلماء والأولياء والمصلحين والدّعاة وكل من في قلبه بذرة خير، لأنّ حصرها في جهة واحدة أو شخص واحد أو مؤسّسة واحدة كوزارة الأوقاف والشّؤون الدّينية يدل على قصور في الفهم والاستيعاب، وكثرة اللّوم بدلا من الإصلاح والبكاء على الأطلال يزيدننا وهنا على وهن والله المستعان وعليه التّكلان.

2- إصلاح النّفوس والنيّات: إنّ معالجة الأمراض النّفسية من وساوس وسوء الظّن بعموم المسلمين وخاصتهم، والتّشكيك في نيّاتهم الطّيبة يعدّ كذلك شرطا أساسيا

لاستعادة قوّة المسلمين وتمكينهم في الأرض، ولو تأمّلنا جيّدا في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية وبخاصة في أيّامها الأخيرة، وكيف كانت علاقة الحاكم بالمحكوم؟ نجد أنّ أغلب تلك العلاقات كانت قائمة على الشّك وسوء الظن، وفي قصّة مقتل الخليفة الرّاشد الحيّي عثمان بن عفان خير دليل على ذلك، حيث كانت بدايتها بسوء الظّن بخلافته والسّياسة التي كان يتبعها عثمان بن عفّان رضي الله عنه، وهذا ما حمل مرضى القلوب وبعض الأغمار على إلصاق تهم طائشة بسيّدنا عثمان رضي الله عنه ، ووصف حاشاه بالتّحيّز لأهله وقرابته في العطايا و تعيين المناصب العليا، وقد انتهت للأسف تلك الوساس بمقتل خليفة وولي أمر المسلمين عثمان بن عفان،حيث مات شهيدا وهو يتلو كتاب الله، والدّم يقطر عليه، وحتّى كِبر سنّه لم يشفع له في حقن دمّه رضي الله، وقد نالته بشرى رسول الله وهو أن يموت شهيدا فرحمه الله رحمة واسعة وأعلى مقامه في جنّات الخلد والفردوس الأعلى.

ومنذ مقتل الخليفة الرّاشد عثمان بن عفّان رضي الله عنه والأمّة الإسلامية تموج بالفتن والأهواء نتيجة لتفرّق الأمة الإسلامية إلى أحزاب وجماعات، وكلّ هذا بسبب سوء الظّن بالمسلمين وأمرائهم وخيارهم، ومن ثمّ يجب غلق هذا الباب إن أردنا أن نستعيد عافيتنا وقوّتنا وإلاّ بقينا نترنّح هنا وهناك بلا فائدة تُذكر، وإصلاح النّفوس لا يكون بمجرّد التّمني أو التّسويف بل يكون بالمجاهدة ورياضة النّفس (أي مجاهدتها)، وهذا يحتاج إلى صدق نية وصبر كبير منّا نحن معاشر المسلمين، لأنّ معالجة نقائص النّفس شديد جدّا على النّفس التي تسيطر عليها الأهواء والملذّات، ولذلك فإنّ مسؤولية إصلاح الأمّة الّتي هي من مهام الأنبياء والعلماء والمصلحين هي من أشق وأصعب المسؤوليات على الإطلاق، وهي تحتاج إلى حكمة وعلم وصبر واحتساب الأجر على الله.

وهناك كتاب مهم جدّا أنصح به كل مسلم ولم أر كتاب مثله في هذا الباب وهو كتاب "**الدّاء والدّواء**" لشيخ الإسلام وحسنة الأيّام ابن قيم الجوزية رحمه الله رحمة واسعة، والقارئ لهذا الكتاب لا يمل من تكراره والوقوف على أسراره، وهو مفيدا جدّا لمعرفة أمراض النّفس وكيفية مداواتها ويغينك قراءة هذا الكتاب عن استماع العديد من المحاضرات التي تتحدّث عن عيوب النّفس وكيفية إصلاحها فقد كفانا ولله الحمد ابن القيّم الجوزية مؤنة البحث عن تفاصيل الأدواء النّفسية وتشخيص علاجات نافعة لها، وقد أثنى العديد من العلماء قديما وحديثا على هذا الكتاب ونصحوا طلبة العلم والرّاغبين في إصلاح أحوالهم وأنفسهم بقراءة هذا الكتاب وإن كنّا نفضّل قراءته واستماعه على يد شيخ فاضل ومتقن لعلوم الشّرع، لأنّه في بعض الأحيان قد يشق على القارئ فهم معاني ومقاصد هذا الكتاب، كما قد لا يتأتّى له فهم غوامض الكتاب إلّا على يد شيخ أو عالم متمكّن ومتبحّر في علوم الشرّع، وهذا أصل من أصول العلم والتّربية أي أخذ العلوم على يد المشايخ والمربّين والمعلّمين.

وخلاصة القول فإنّ إصلاح النيّات والنّفوس مقدّم على إصلاح الجوانب التّقنية والفنيّة والسياسية والاقتصادية، فما قيمة الإصلاح السياسي أو الإصلاح الاقتصادي ما دام المسلمين لا يثقون في بعضهم البعض أو يخوّن بعضهم بعضا، فالّذي أراه أنّ تعزيز ثقة المسلمين لا يكون إلاّ بإصلاح القلوب وحسن الظن بعموم المسلمين، وقد حذرّنا الله الله عزّ وجل في محكم تنزيلة من سوء الظن وعواقبه الوخيمة بين المسلمين في قوله تعالى: " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ**...." [196] وجاء في كتب السّنة الصّحاح قوله عليه الصّلاة والسّلام: "**إيّاكم والظّن فإنّ**

[196] سورة الحجرات، الآية 12.

الظّن أكذب الحديث"[197]، وهذه النّصوص وغيرها تدلّ على حرمة سوء الظّن بين المسلمين لأنّها تحملهم على الكراهية والحقد والبغض، وهذا ما يفرح به أعداء الإسلامية أيّما فرح، ولذلك فإنّ توطين النّفوس على حب الخير لعامة المسلمين أينما كانوا وأينما حلّوا وارتحلوا يعدّ أحد الحلول الناجعة لإعادة اللّحمة بينهم بما يخدم مصالحهم الدنيوية والأخروية.

3-**إصلاح المناهج التّعليمية والتربوية وربطها بواقع المسلمين حاضرا ومستقبلا:** إنّ إعادة النّظر في البرامج التّعليمية والتّربوية المعتمدة في العالم الإسلامي أصبح أمرا ضروريا للغاية نظرا للنّقائص والثّغرات المسجلّة عليها، فمن جهة أنّ الدول التي احتلت البلدان الإسلامية أثرّت تأثيرا واضحا على تلك البرامج والمناهج التّعليمية، حيث قامت باستبدال المناهج التّعليمية الإسلامية بالمناهج الغربية، وألغت كل ما له صلة بالحضارة الإسلامية والإسلام بشكل عام، ومن جهة أخرى فإنّ عملية صياغة البرامج التّعليمية تأثّرت بشكل كبير بظاهرة العولمة لاسيّما في الجوانب الثقافية والقيمية، مع العلم أنّ للدول الإسلامية خصوصيات تتميّز بها عن الدول غير الإسلامية.

ولا يخفى كذلك أنّ المناهج الغربية تتميّز بالقصور في كثير من جوانبها؛ إذ أنّها تغفل في أغلبها الجوانب الأخلاقية مع تركيزها الشّديد على الجوانب المادية المحسوسة والمعقولة، حيث تقريبا لا تجد ذكرا فيها للجوانب العقدية والسُّلوكية وإنّما هي مجرّد نظريّات عقلية اجتهادية تحتمل الصّواب والخطأ، بينما المناهج التّربوية والتّعليمية التي كانت معتمدة خلال الحضارة العربية الإسلامية تتميّز بالدقّة والوضوح وقوّة الحجّة والبيان فضلا عن تركيزها على الجوانب الأخلاقية والسّلوكية التي ترتقى بالمسلم إلى مرتبة

---

[197] حديث متّفق عليه (صحيح البخاري برقم 5143 وصحيح ومسلم برقم 2563).

الصّالحين والمصلحين، فهي برامج تعليمية توازن بين الجانبين المهميّن للحضارة وهما الجانب المادي والجانب الرّوحي الأخلاقي، وهي ميزة تفتقدها أغلب الجامعات الغربية رغم التّطور الكبير الّذي بلغته تلك الجامعات في مختلف مجالات العلوم الطبيعية والمادية.

وقد ذكر أحد الباحثين كلاما نفيسا غاية في الأهمية أعجبني كثيرا عند معرض حديثه عن أهمية التعليم في رقي المجتمعات وضرورة مراجعة المناهج التعليمية باستمرار من أجل تحقيق التّنمية المستدامة حيث قال في هذا الصّدد: "**إنّ الأمم الرّاغبة في الشهود الحضاري والتّمكين الفكري في الأرض كانت ولا تزال تلقي بثقلها المادي والمعنوي على التّعليم بترقيتها لمؤسّساتها التّعليمية ترقية شاملة، وبتعهّد مناهجها التّعليمية بالمراجعة الدّائبة (المستمرة) والتّطوير المتواصل سعيا إلى تمكين التّعليم بمؤسّساته ومناهجه من مجابهة الظروف والأزمات والتّحديات التي تداهم حياتها بين الفينة والأخرى، وأملا في تمكين الأجيال التي تعد مخرجات التّعليم من الاستفادة من الفرص والآفاق والإمكانات المتوافرة في النهوض بالشعوب والارتقاء بها** "[198].

وبعد ذلك أردف الحديث عن خطورة إهمال مراجعة المناهج التّعليمية بقوله: وبالمقابل فإنّ الأمم والشّعوب التي لا تتطلّع لا تتطلّع إلى أي قدر من الشهود الحضاري، ولا ترنو إلى أي نصيب من الحضور والتّمكين في الأرض لا تولي مؤسّساتها التّعليمية أدنى أي اعتبار أو تقدير، كما لا يمس مناهج تعليمها بأدنى تطوير أو تغيير أو تحديث أو تجديد، بل تحظى مؤسّساتها بإهمال دائم ونظرة دونية رجعية منبثقة عن رغبة عارمة في التّمادي في حالة التيه الفكري والتخلّف العلمي والتّأخر المادي والتّقهقر

((198)) قطب مصطفى سانو، "**مناهج التعليم في العالم الإسلامي حتمية المراجعة وضرورة التطوير**"، مجلة الكلمة، العدد48، 2005.

الحضاري، كما تتمتّع مناهجها التّعليمية بركود عميق وجمود عتيق يدفعانها دوما وأبدا إلى الاعتصام المزّيف بماض مجيد لم تصنعه أبدا، والاعتزاز الأجوف بمنجزات حضارية لم تسهم فيها قط إلى آخر ما قاله هذا الباحث[199].

ويفهم ممّا ذهب إليه هذا الباحث أنّ أولوية وضرورة مراجعة المناهج التّعليمية بشكل دائم شرطا أساسيا وركنا ركينا لإحداث التّنمية المستدامة والرُّقي في جميع المجالات، وأنّه لا قدرة للشّعوب في التأثير على غيرها وإثبات خصوصياتها الثقافية والعقدية إلاّ من خلال وضع مناهج تعليمية كفؤة قادرة على إحداث التّغيير وإصلاح المجتمعات والأفراد بما يخدم المصلحة العامة ويحفظ لهم دينهم وأخلاقهم وموروثهم الحضاري والفكري، وأنّ المجتمعات التي تعتز بالتّعليم وتولي له عناية خاصة فإنّها حتما ستحقّق تفوّقا في العديد من المجالات فضلا عن تحولّها إلى مجتمعا راقيا بفكره وأخلاقه وإنجازاته العلمية والفكرية والسُّلوكية، وهذا ليس بأمرا صعبا على المجتمعات الإسلامية التي تمتلك خزّانا وافرا من الكوادر التّعليمية القادرة على إحداث قفزة نوعية في مؤشّرات جودة التّعليم تنافس بها أرقى الجامعات والمؤسّسات التّعليمية على مستوى العالم.

4- ربط حاضر الأمة الإسلامية بماضيها وتاريخها الإسلامي: لا يخفى على كثير من إخواننا المسلمين أنّ هذا الجيل الذي نعيش في ظلّه يجهل في غالبه حتّى لا نقول كلّه التاريخ الإسلامي في العديد من جوانبه، كما يجهل علماء الحضارة العربية الإسلامية وانجازاتهم العلمية فضلا عن مختلف الحروب التي خاضها المسلمون في ذلك الزّمن ضد أعدائهم، كما يجهل البطولات التي أنجزها المسلمون والتي حيّرت حتّى أعدائهم، ونحن لا نقلّل من شأن هذا الجيل ولا نعدم منه الخير لكن نرجو منه أن يكون أكثر ارتباطا بماضي الأمة الإسلامية حتّى يكون قدوته المسلمين من العلماء والأتقياء والمصلحين،

((199)) قطب مصطفى سانو، نفس المرجع السابق.

ولا يكون قدوته الكفرة الأنجاس لأنّ في ديننا غُنية عنهم . ولا يتحقّق هذا إلاّ من خلال الإطّلاع الدّائم على كتب السّيرة والتاريخ الإسلامي التي تروي لنا صفحات ناصعة ممّا كان عليه سلفنا من عزّة النفس وقوّة العزيمة والشّكيمة، فقراءة سيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه مثلا تجعل المسلم يعتز بدينه ويفتخر بإنجازات ما قدّمه قادة المسلمين وأمرائهم، فما أنجزه عمر بن الخطاب رضوان الله عليه مثلا في خلافته الرّاشدة جعلت حتّى الكفار يقرّون بعبقرية هذا الصّحابي الجليل ويصنّفونه ضمن أوائل عباقرة العالم، كما جعلتهم يصفونه بأوصاف تنبئ عن أفضلية ما قدّمه المسلمون مقارنة بغيرهم من الأمم.

وقد وصفت دائرة المعارف البريطانية عمر بن الخطاب بأنّه: "كان حاكما عاقلا، بعيد النّظر، وقد أدّى للإسلام خدمة عظيمة "، وقال عنه ابرفنج في كتابه الموسوم ب "**محمد وخلفائه**: "إنّ حياة عمر من أوّلها إلى آخرها تدل على أنّه كان رجلا ذا مواهب عقلية عظيمة، وكان شديد التّمسك بالاستقامة، وهو الذي وضع أساس الدّولة الإسلامية" (بل أكمل تلك الأسس لأنّ واضع أساس الدولة الإسلامية هو نبيّنا محمدﷺ) فهل بعد هذا الثّناء العطر على الخليفة الراشد عمر بن الخطاب يبحث الشباب المسلمين على قدواتهم من مشاهير الغرب من الممثلمين والفنانين ولاعبي كرة القدم وغيرها من الرياضات والفنون؟، لا أظّن أنّ عاقلا يقبل بذلك أو يرضى لنفسه أن يكون قدوته غير المسلمين.

وتاريخ المسلمين مفعم بالأخبار المحفّزة التي تقوّي عزم المسلم وتجعله يتشبّث أكثر بدينه ولغته وتاريخه التليد، وهذه فائدة مهمّة من فوائد التاريخ الإسلامي، ولذلك فقد حثّ علمائنا قديما وحديثا بضرورة ربط الأمة الإسلامية بماضيها وتاريخها حتّى يحافظ المسلمون على هويتهم الإسلامية من جهة، و من جهة أخرى لكي لا يتأثّروا بما

وصل إليه بالكّفار من انجازات مادية وبطولات في أمور دنوية فانية زائلة، بل إنّ انجازات الكفّار لم تعدوهم أصلا وانحصرت عندهم فقط مقارنة بإنجازات المسلمين التي شملت العالم أجمع، وأقرّ بهذا القاصي قبل الدّاني والعدو قبل الصّديق. ومن ثمّ فنحن بحاجة إلى إطالة النّفس في كتب التاريخ الإسلامي في هذا الزّمن أكثر من غيره لأنّ ما يعتري الأمّة الإسلامية من مكائد وحيل من قبل أعدائهم يجعلنا فعلا نخشى من تلك المكائد والحيل على جيلنا وأنفسنا وأهلينا جميعا، ولا حيلة لنا إلاّ بالعودة إلى قراءة سيرة سلفنا الصّالح حتّى نأمن شرور أعدائنا ومكرهم الّذي لم يتوقف لحظة واحدة، ولنذكّر الأجيال الحاضرة أنّ مجد الحضارة الإسلامية لا يتحقّق إلاّ بما حققّه أجدادنا وأسلافنا من طاعة الله وتقواه وحسن المعتقد والطوية.

5- الحفاظ على ثوابت الأمّة الإسلامية وبخاصة اللّغة العربية: دائما أكرّر الحديث في كتبي على أهمية الاعتناء بثوابت الأمة التي توحّد الأمة الإسلامية وتجمع شتاتها هنا وهناك، ولا شكّ أنّ اللّغة العربية هي أهم تلك الثوابت وأقواها، ورغم أنّ اللّغة العربية تراجعت إلى حد كبير في أغلب الدول العالم الإسلامي وحلّت محلّها لجهات محليّة ركيكة جدّا فإنّ إمكانية تعزيزها في الأوساط التّعليمية والأكاديمية ليس أمرا صعبا، ودائما ينتابني سؤالا مهمّا لماذا لا تدرّس العلوم المادية والطّبيعية والطّبية باللّغة العربية فهل العيب في اللّغة العربية أم فينا نحن العرب، وهل اللّغة الانجليزية و الفرنسية أعلى مقاما وأقوى بيانا من اللّغة العربية أم أنّه العجز والتّقليد، فمسايرة الرّكب لا تعني التّخلي عن الثوابت فكثير من دول العالم كالصين واليابان وألمانيا وتركيا وبريطانيا وإيطاليا وفرنسا وغيرها من الدول الأخرى تدرّس العلوم الطبيعية والمادية والطّبية بلغاتهم الأم، ولم يقع منهم أيّ حرج أو نقص تجاه لغتهم الأم، ولم يتأخّروا أبدا في منافسة الدول التي تنطق بلغات غير لغتها، فلماذا لم تتأخّر الصّين وكذا اليابان وهم يعتمدون

على لغتهم الأم في البحث العلمي والصناعة والتدريس؟، أم أنّ الأمر يتعلّق كما قال العلاّمة عبد الرحمان بن خلدون بحب التّقليد للأقوى، فقد جاء عنه رحمه الله قوله: **أنّ المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيّه ونحلته وسائر أحواله وعوائده "** وهذا رجع في الأساس حسب بن خلدون إلى وجود نقص في المغلوب أو المقلّد هذا من جهة، ومن جهة أخرى لأنّ نفس المغلوب تعتقد الكمال فيمن غلبها. وهذا في الحقيقة محض جهل وانقياد يفتقر إلى أدنى بصيرة وعقل، ويدل على سوء الطّوية وهزيمة داخلية.

ولذلك فنحن نؤكّد دائما على أهمية وضرورة الاعتناء باللّغة العربية ومختلف الثوابت والأصول الإسلامية كالقيم والعادات والتّقاليد التي تخص المجتمعات الإسلامية فإحياء هذه القواسم المشتركة بين الدّول والمجتمعات الإسلامية من شأنه أن يرسي ثقافة الاحترام المتبادل ويقوّي وشائج الأخوّة بين المسلمين، ويضعف من جانب آخر مخطّطات الغرب التي ترنو إلى مسخ الهوية الإسلامية بشكل دائم، وتمسّك الأمة الإسلامية بهذه الثوابت يحمي تراثها الإسلامي من الزّوال والاندثار، ويربط حاضرها بماضيها كما مرّ معنا آنفا.

6- الوقوف في وجه المخطّطات التّغريبية والعلمانية: لا يخفى على كل عاقل أو قل على كل مسلم حجم المخطّطات التي قام ولا يزال يقوم بها الغرب ضد المسلمين، فهناك مخطّطات تخص تقسيم العالم الإسلامي إلى العديد من الدويلات حتّى يسهل عليهم السّيطرة التامة على ثرواتها مثلما يحدث اليّوم بالضّبط في السودان وكذلك في ليبيا وسوريا ولبنان وغيرها من الدول الإسلامية، وهذه خطّة استدمارية قديمة انتهجها

أعدائنا منذ قرون، وظهرت في شكل علني في اتفاقية سايكس بيكو[200] التي قسّمت العالم الإسلامي أو الخلافة الإسلامية بين فرنسا وبريطانيا، ولهاتين الدّولتين على وجه الخصوص دورا كبيرا في ما حلّ بالأمة الإسلامية من حروب طائفية وأهلية وتقسيم

((200)) **اتفاقية سايكس بيكو التي جرت في 1916** في ظنّي هي أخطر اتفاقية في ذلك القرن وما بعده ضد الحضارة العربية الإسلامية والبلاد الإسلامية عموما، وهي معاهدة سريّة بين فرنسا والمملكة المتّحدة بمصادقة من الإمبراطورية الروسية وإيطاليا على اقتسام منطقة الهلال الخصيب بين فرنسا وبريطانيا، ولتحديد مناطق النفوذ في غرب آسيا وتقسيم الدولة العثمانية التي كانت المسيطرة على تلك المنطقة في الحرب العالمية الأولى. اعتمدت الاتفاقية على فرضية أنّ الوفاق الثلاثي سينجح في هزيمة الدولة العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى ويشكل جزءًا من سلسلة من الاتفاقات السرية التي تأمل في تقسيمها. وقد جرت المفاوضات الأولية التي أدّت إلى الاتفاق بين 23 نوفمبر 1915 و 3 يناير 1916، وهو التاريخ الذي وقّع فيه الدبلوماسي الفرنسي فرانسوا جورج بيكو والبريطاني مارك سايكس على وثائق مذكرات تفاهم بين وزارات خارجية فرنسا وبريطانيا وروسيا القيصرية آنذاك. وصادقت حكومات تلك البلدان على الاتفاقية في 9 و 16 مايو 1916.

وقد قسّمت الاتفاقية فعلياً الولايات العربية العثمانية خارج شبه الجزيرة العربية إلى مناطق تسيطر عليها بريطانيا وفرنسا أو تحت نفوذها. حيث خصّصت الاتفاقية لبريطانيا ماهو اليوم فلسطين والأردن وجنوب العراق ومنطقة صغيرة إضافية تشمل موانئ حيفا وعكا للسماح بالوصول إلى البحر الأبيض المتوسط. أمّا فرنسا فتسيطر على جنوب شرق تركيا وشمال العراق وسوريا ولبنان. ونتيجة اتفاق سازونوف–باليولوج المشمول فإنّ روسيا ستحصل على أرمينيا الغربية بالإضافة إلى القسطنطينية والمضائق التركية الموعودة بالفعل بموجب اتفاقية القسطنطينية (1915). وافقت إيطاليا على هذا الاتفاق سنة 1917 عبر اتفاقية سانت جان دي مورين بحيث يكون لها جنوب الأناضول. أمّا منطقة فلسطين ذات الحدود الأصغر من فلسطين المنتدبة اللاحقة فإنّها ستكون تحت "إدارة دولية"، ومنذ هذه الاتفاقية والعالم العربي يعاني من ويلات التقسيم والتقزيم إلى يومنا هذا، وهذا يعني أنّ آثار هذه الاتفاقية ما زالت ممتدّة إلى حد الآن للأسف، وكما سبق أن ذكرنا فإنّ فرنسا وبريطانيا هما فعلا أكثر الدول عداوة للإسلام والمسلمين والواقع يكشف عن ذلك، ومعظم الشّرور التي حلّت بالأمّة الإسلامية كانوا يقفون خلفها ويؤجّجون نارهاأو يدعومنها بالمال والسّلاح.

البلدان الإسلامية إلى عدّة دويلات، وبريطانيا كما هو معلوم هي التي منحت الأرض المقدّسة فلسطين الجريحة إلى شرذمة من اليهود فعاثوا فيها فسادا وخرابا وصارت موطنا لهم، وبالنّسبة لفرنسا فلها اليد الطولى في أحداث الرّبيع العربي والعشرية السوداء في الجزائر وإسقاط نظام القذافي وإحداث القلاقل الأمنية في أرض ليبيا، وهي التي تحدث الفتن بين دول الجوار، ولها مخابرات منتشرة في كل أرجاء العالم الإسلامي، كما أنّ لها ذروع مخابراتية في العالم العربي يقدّمون لها آخر المستجدّات التي تحدث في العالم العربي والإسلامي.

إنّ مشروع تقسيم الأمة الإسلامية لم يتوقف عند اتفاقية سايكس بيكو كما قد يظن البعض؛ بل هو مشروع إمبريالي ممتد إلى يومنا هذا ساهت فيه العديد من الدول التي تبغض الدول والشّعوب الاسلامية، لكون حقد الغرب على العرب على وجه الخصوص ليس بالأمر الجديد بل هو قديم وضارب في عمق التاريخ، وهناك مساعي حثيثة لمنع توافق الفصائل السياسية في العالم العربي والإسلامي مثلما حصل في ليبيا وفلسطين وبلاد الشام، فهم يوقدون الفتن ويشعلون نيران الكراهية بين أبناء البلد الواحد حتّى يتسنّى لهم تنفيذ سياسات فرّق تسد التي تسمح لهم بالسّيطرة الكليّة على ثروات البلد المستهدف، ولكن إذا تعلّق الأمر بمشاكلهم الخاصة –أي الدول التي تدعي أنّها دولا ديمقراطية –يقولون هذا شأن داخلي لا يحق لأي دولة في العالم التّدخل فيه مثلما حدث مع قضية السترات الصفراء في فرنسا، وهذه سياسة خبيثة وماكرة وعفنة جدا تنفر منها الفطر السّليمة وتمجّها الأنفس الحكيمة.

وبخصوص المخطّطات التّغريبية والعلمانية فقد زادت شراراتها أكثر فأكثر مع ظهور وسائل الاتصال الحديثة في أغلب دول العالم، حيث تبنّت الدول الغربية عدّة مخطّطات خطيرة من أجل طمس الهوية الإسلامية وإحلال الثقافة الغربية مكان الثقافة والهوية

الإسلامية، وذلك من خلال المسلسلات والأفلام والألعاب الإلكترونية، وأيضا من خلال عروض التّجارة وطرائق التّعليم النظامي، وكذا من خلال المناسبات الثقافية والرياضية والتّرفيهية، دون أن ننسى وسائل الإعلام المختصة بنشر الثّقافة الغربية والمتاحة مجانا بمختلف لغات العالم، فهناك اليوم حربا ضروسا ضد كل ما هو إسلامي أو له صلة بالمسلمين، كما أنّه هناك حملات كثيرة لتشويه سمعة المسلمين من خلال كيل التّهم ضدهم بشكل غير أخلاقي ويفتقد للصدق والمصداقية، فهم بكل بساطة يريدون منّا أن نصبح مثلهم في الأنظمة الاجتماعية والأخلاقية والسياسية والاقتصادية، بل في كل شيء حتّى في الجانب الدّيني، ويريدون أن يجعلوا كل العالم نصرانيا أو يهوديا أو مجوسيا المهم القبول بانتشار أيّ دين أو أيّ شريعة غير الدّين الإسلامي.

والأدهى والأمر أنّهم يصفون الدّين الإسلامي بأنّه دين الرجعية ودين قائم على الإرهاب والعنف والتّقتيل، ويمعنون في إلصاق أخبث الأوصاف بالدّين الإسلامي ويروّجون على أنّه دين لا يوجد فيه تسامح؛بل أنّه حسبهم قائم على الشّدة الزّائدة وقهر الأنفس، ثمّ يأتيك بعض الأشخاص ويقولون لك نحن مجبرون على التّعايش معهم بسبب ضعفنا، فهم لا يقبلوننا في الأساس، فعن أي تعايش إذن نتحدّث، ألم تكشف لكم حرب غزّة حجم الكره والبغض الذي يكُنه الكفار تجاه المسلمين؟، أم ما زال الشّك يخيّم على عقول المسلمين بأنّ العالم الغربي يمقت الإسلام والمسلمين جملة وتفصيلا؟، وعلى كل حال من يقرأ كتاب بوتوكولات حكماء صهيون تتبدّى له الحقيقة أكثر فأكثر وتنكشف له كثير من الخبايا والأسرار، وسيعرف حجم مخطّطات اليهود وأنصارهم ضد المسلمين في الشّرق والغرب، وأنّ مسألة التّعايش بيننا وبينهم هي مسألة وهمية ولا أساس لها في الحقيقة، وأنّها مجرّد شعار أجوف وكلام فارغ.

7-الاهتمام بتحقيق اكتفاء ذاتي في الأمن الغذائي لقطع دابر التّبعية للخارج: إنّ تحقيق العالم الإسلامي للاكتفاء الذّاتي في أمنه الغذائي يعدّ أول خطوة نحو تحقيق الاستقلال الكلّي والتخلّص من التّبعية للخارج وضغوطاتهم، وقد شهد العالم أجمع كيف كانت تمارس الدول الإمبريالية على غرار الولايات المتّحدة الأمريكية وفرنسا وغيرها من الدول الإمبريالية ضغوطا شديدة على الدول المستضعفة من خلال مادة القمح، وكانت تجبر من خلالها الدول المستضعفة على إجراء إصلاحات هيكلية وجذرية في المنظومة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية حتى تحصل على حقّها من مادة القمح، وفي بعض الأحيان تجدهم يتخلصّون من فائض القمح ويرمونه في قاع البحار ولا يقدّمونه للفقراء والمساكين إمعانا منهم لتحقيق الهيمنة المطلقة على تلك الشّعوب والدول.

وكما هو معلوم في علم الاقتصاد فإنّ مادة القمح أصبحت اليوم تسمّى بالسّلاح الأخضر، حيث تجعل منه الدول الإمبريالية وسيلة لقهر الشّعوب واستعبادها وورقة ضغط لإجبار الدول المستضعفة على تغيير مواقفها بما يخدم مصالح تلك الدول أي الدول الإمبريالية، والأعجب من ذلك تحرص الدول الإمبريالية على حرمان الدول الضعيفة من حقّها في الاستغلال الأمثل للأراضي لزرع مادة القمح وتضيّق عليها السّبل لتحرمها من هذا الحق، وقد تفرض عليها عقوبات اقتصادية إن هي حقّقت اكتفاء ذاتي في المواد الغذائية الواسعة الاستهلاك على غرار مادة القمح، وإن لم تفلح في ذلك تلجأ إلى خلق مشكلات سياسية وأمنية داخلية حتّى تصرف الدول الضّعيفة عن المضي نحو الاستغلال الأمثل لمواردها المتاحة بغية تحقيق اكتفاء ذاتي في المواد الغذائية ومختلف السلع الاستراتيجية.

وعليه فإنّ تحقيق الاكتفاء الذاتي في الأمن الغذائي يسدّ الباب أمام الدول الإمبريالية لفرض سيطرتها المطلقة على العالم الإسلامي وبإمكان هذا الأخير أن يحقّق اكتفاء ذاتي في أمنه الغذائي من خلال الاستغلال الأكثل لموارده المتاحة وأراضيه الزّراعية الخصبة، ومن خلال تثمين المنتوج المحلّي وتقديم مختلف المساعدات والإمكانات للفلاّحين المحلّيين وإزالة كل العراقيل الفنيّة والمالية والمادية كقلّة الأسواق التّجارية وضعف البنية التّحتية كشبكة الطرقات ووسائل النقل والشّحن، وأمام دول العالم الإسلامي كذلك فرص لتحقيق تعاون وتكامل فيما بينهم في العديد من المجالات الاقتصادية والزرّاعية والتّجارية، وهذا وإن كان يثير غضب الدول الإمبريالية بشدّة فإنّه يبقى السّبيل الأوحد لتحقيق الاكتفاء الذّاتي في الأمن الغذائي للدول الإسلامية، وهذا حتّى يستردون مكانتهم بين الأمم ويستنهضون من جديد لبناء مجدهم السّالف وحضارتهم الراقية التي لم تزل بعد بحاجة إلى مواقف مشرّفة من المسلمين لإعادة الاعتبار إليها من جديد.

8– تقوية الحالة الدّفاعية والقتالية للجيوش العربية والإسلامية: بالنّظر إلى الظروف الأمنية التي يشهدها العالم وانتشار الجماعات الإرهابية في كل مكان، وتزايد التّهديدات الأمنية التي تفرضها بعض الدول على دول أخرى أو مليشيات عسكرية مرتزقة ضد أمن الدول والشّعوب فإنّه من المتعيّن على الدول الإسلامية زيادة الانفاق العسكرية وتقوية قدراتها الدّفاعية والقتالية حماية لأمنها القومي من تلك التّهديدات من جهة ولردع الدول التي تريد زعزعة الأمن القومي لدولة بعينها، والدول الإسلامية في مجملها لا تملك من الأسلحة النووية ما تملكه الولايات المتّحدة الأمريكية لوحدها، وهذا يدل في الحقيقة على أنانية كبيرة للولايات المتّحدة الإمريكية في استئثارها بتلك الأسلحة وحرمان غيرها منها بحجّة الحفاظ على الأمن والسّلام الدّوليين ومنع تطوّر

النزاعات بين الدول، فما عدا دولة باكستان الوحيدة التي تمتلك الأسلحة النووية وبقية الدول الإسلامية لا تملك ترسانة نووية تستطيع أن تجابه بها التهديدات النووية التي تفرضها الدول النووية عليها من حين لآخر.

ومن المفترض أن يشكّل العالم الإسلامي تكتّلا عسكريا أو أحلافا عسكرية جماعية لصد أي عدوان أو هجوم مفاجئ على أحد الدول الإسلامي فإنّما يأكل الذئب من الغنم القاصية أي البعيدة عن بقية الأغنام، وما يقال عن الأغنام يقال عن الدول فإذا كانت الدّولة وحيدة ولا تساندها بقية الدول العالم الإسلامية سهل على العدو اخضاعها لسيطرته وإصابتها بضربات عسكرية قويّة قاتلة، وهذا ما يحدث اليوم بشكل واضح جدّا في دولة فلسطين وبشكل أدق في منطقة غزّة الجريحةّ ، فانظروا كيف فعل بها العدو وكيف أباد أمّة بأكملها صغارا وكبار ورجالا ونساءً! بسبب عدم قدرة هذا البلد على صد العدوان ولغياب التّكتلات العسكرية الإسلامية الموحدة.

ولا أظنّ أنّ عزّة الأمة الإسلامية تتحقّق بدون القوّة العسكرية و بلا تطوير القدرات القتالية وإلاّ صرنا كما قال الشّاعر :

تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتتقي صولة المستأسد الضاري

أمّا قضية تحقيق السّلام الدّائم بلا قوّة عسكرية وأسلحة متطوّرة فهذا ضرب من المحال، فالّذي يحقّق للأمة الإسلامية السّلام الدّائم هو تطويرها الدّائم لمنظوماتها العسكرية والحربية، وأمّا تعليق الآمال على الهيئات الدّولية أو الشعارات الدبلوماسية ولا الوساطات الدولية في تحقيق السّلام الدائم مع الدول فهذا مجرد وهم وسراب سريعا ما تنكشف حقيقته.

وقد رأينا كيف تتسابق الدول الكبرى نحو تطوير قدراتهم العسكرية والنووية لإداركهم لأهمية التّسلح في موازين العلاقات الدولية، وانظر مثلا إلى التّطوّر الهائل الذي بلغته الصين في هذا المجال، فقد أصبحت هذه الدولة تشكّل أحد أكبر القوى العسكرية في العالم بفضل شجاعتها وعزمها على تطوير قدراتها العسكرية، حيث أصبحت هذه القوّة تنافس أقوى دول العالم في المجال العسكرية وتشكلّ تهديدا أمنيا لهم، فهي تمتلك ترسانة حربية قويّة جدا، وقد مكّن هذا الصّين من أن ترتقي إلى خانة أخطر وأقوى الدول العسكرية، وجعلها تنافس الولايات المتّحدة الأمريكية وروسيا في هذا المجال الذي بقي لعقود من الزّمن تحت سيطرة هاتين الدولتين.

فالعبرة إذن بما تمتلكه الدول المسلمة من أسلحة متطوّرة لا بقوّة مواقفها الدبلوماسية ومواقفها الانسانية تجاه الدول، والأصل أنّ المسلمون لا يثقون في أعدائهم كما أنّ أعدائنا لا يثقون بنا لحظة واحدة، وما دامت العلاقات الدولية تشوبها دائما الشّكوك المتبادلة بين الدول خاصّة في حالات التوتّر والنزاعات والقلاقل الأمنية الإقليمية والدولية فإنّ التّسلح الدّائم يعد إجراء مهم للغاية لمواجهة أي تهديد طارئ أو مفاجئ ولوضع الأمور في نصابها الحقيقي، لأنّ اليهود والنصارى أهل غذر وخيانة لا نأمنهم على أنفسنا وأمننا القومي.

9- غلق باب الانقسامات السياسية بين المسلمين: اعلم أيّها القارئ إنّ الانقسامات السياسية لا تزيد الأمّة الإسلامية إلاّ وهنا وضعفا وبعدا عن الحق والوفاق، وأمّا قول القائل أنّ الانقسامات السياسية تدل على التّعددية السياسية وحريّة الرّأي فهذا على ميزان الغرب وميزان الديمقراطية اليونانية، وهل هذا يصلح لكل أمّة من الأمم أم أنّه خاصة بالأمم الديمقراطية التي لا تدين إلاّ بما هو محسوس ومعقول فقط، نحن لا نشك أنّ لكل أمّة نظامها السياسي المختص بها والأمة الإسلامية لها نظامها

الخاص الذي ترجع إليه في جميع الأوقات، وهناك ثمّة سؤال مهم هل الدّين الإسلامي يشجّع على الانقسامات السياسية أم يحذّر منها تحذيرا شديدا ؟ والإجابة بلا شك أنّ الدّين الإسلامي جاء ليوحّد المسلمين ويجمع شملهم، ومن ثمّ فهو ينبذ كل ما يفرّق المسلمين ولو كانت نيّاتهم صادقة في بلوغ الخير،وكما قال الصّحابي الجليل عبد الله بن مسعود: "**وكم من مريد للخير لم يبلغه**"، وكذلك نقول: "وكم من باغي للفرقة لم يبلغ مراده " مثلما ما حدث مع جماعة عثمان بن عفان الّذين قتلوه غدرا وغيلة عليهم من الله ما يستحقون.

وفي الغالب فإنّ الانقسامات السياسية توظّفها بعض الدول أو بعض الجماعات السياسية لإضعاف قوّة البلد الواحد والمجتمع الواحد، حيث يراد من خلالها إثارة النّعرات القبلية والحروب الأهلية والطّائفية داخل البلد الواحد أو القبيلة الواحدة، وهذه السياسة تخدم بشكل كبير الدول المحتلة لأنّها تفتح لهم أبوابا كبيرة للتّدخل في شؤون الدول حتّى ذريعة حماية حقوق الانسان، ومن ثمّ لاحتلالها والسّيطرة على ثرواتها، وهذا الّذي نقوله لا يراد به تخويف الشعوب أو التّقليل من حريّاتها كما قد يظن من في قلبه مرض سوء الظّن بل يراد به الحفاظ على قوّة وهيبة الدول الإسلامية التي نالها من التّقسيم ما لم تنله غيرها من دول العالم، وهي مستهدفة في كل حين وفي كل وقت لأنّ الحضارة الغربية تعادي وبشدّة الحضارة الإسلامية لأنّها ترى فيها عائقا أمامها لتنفيذ مخطّطاتها التوسعية في العالم الإسلامي والعربي.

ولا زلت أذكر كيف ضغطت أمريكا والمؤسّسات المالية التابعة لها هيكليا وإيديولوجيا على كثير من الدول الإسلامية التي كانت تعاني من ركود اقتصادي حاد في بلدانها نتيجة تراجع أسعار النفط وتراجع قدراتها الاقتصادية، حيث أجبرتها تلك المؤسّسات على إجراء مجموعة من الإصلاحات السياسية والاقتصادية والتي عرفت

بالمشروطية السياسية، ومن ضمن تلك الإصلاحات السّماح بالتعدّدية الحزبية والسياسية، وقد كان لذلك نتائج عكسية على تلك البلدان، حيث أدخلها ذلك في حروب أهلية وطائفية خطيرة جدا، لأنّها لم يسبق لها خوض تلك التجارب كما أنّها لم تستوعب مضامين تلك الإصلاحات المفروضة عليها إلاّ بعد فوات الأوان، حيث تعرّض بفعل ذلك أمنها القومي إلى مزالق خطيرة جدّا، وهذا ما كلّفها خسائر مادية وبشرية كبيرة بسبب عدم توافق الجماعات السياسية على الأولويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

فالحاصل إذن أنّ الانقسامات السياسية ليست إلاّ سببا لتعميق الخلافات بين المسسلمين، ولا ينبغي تبرير هذه الانقاسامات بأنّها ضرورة أملتها الظروف الدولية، فلكل بلد خصوصيته ولكل شعب ثقافته الخاصة التي ينطلق منها، فالاجتماع على هدف واحد وغاية واحدة وإن لم يحصل الإجماع بينهم في كل شيء هو الّذي يخدم مصلحة المسلمين ويجمع صفّهم ويجعلهم كالبنيان المرصوص، ونحن اليوم بحاجة أكثر من أي وقت مضى لجمع كلمتنا ورصّ صفوفنا لأنّه كما يعلم النبيه الأريب حملات شق صفوف المسلمين تزاد يوما بعد يوم ولا يعلم حقيقة ذلك إلاّ القلّة القليلة، نسأل الله أن يجمع شملنا ويوحّد كلمتنا ويبعد عنا الشّقاق والفرقة.

10- الاهتمام بشباب المسلمين وتوعيتهم بالتّحديات التي تواجههم بشكل دائم:

إنّ شباب المسلمين هم وقود هذه الأمّة، وهم قاطرة التّنمية والسّد المنيع الذي يحمي ظهورنا من أي خطر داهم، هذا إذا أُحسن تربيتهم وفق مناهج وأصول التّربية السّليمة التي حثّ عليها ديننا الحنيف، وقد اعتنى الاسلام عناية كبيرة بفئة الشّباب، بل إنّهم هم الّذين قادوا الفتوحات الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، وبصموا على انجازات كبيرة لا تزال محفورة في سجل التاريخ الإسلامي، ومعظم من كان ينصر نبيّنا محمد

صلّى الله عليه وسلّم هم من فئة الشّباب، وهذا يعني أنّهم عنصرا فاعلا في المجتمع الإسلامي، فهذا الصّحابي الجليل أسامة بن زيد رضي الله عنهما قد عيّنه رسول الله قائدا على جيش المسلمين لغزو الرّوم في السّنة الحادية عشرة للهجرة وفيه كبار الصحابة كأبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضوان الله عليهم جميعا وعمره لم يتجاوز ثماني عشر سنة أي لا يزال في ريعان شبابه، وفي هذا درس للأمّة الإسلامية – وبخاصة فئة الشّباب –على ضرورة تربية الشّباب على تحمّل المسؤوليات الكبار بدل اشتغالهم بسفاسف الأمور والأشياء التّافهة والحقيرة.

ومن المعلوم أنّ الشّباب المسلمين اليوم يتعرّضون لحملات كبيرة من التّشويه والتشكيك لكل ما له صلة بالأصول والثوابت والدّين والقيم فضلا عن العادات والتّقاليد المحافظة، وذلك من طرف الجماعات المنحرفة أو من قبل الدول العلمانية، أو حتّى من طرف بعض الأفراد الّذين لديهم خلل في الفكر والسّلوك والمعتقد، وسواء كان ذلك عبر منصّات التّواصل الاجتماعي أو القنوات التّفلزيونية التي تختص بنشر العقائد الفاسدة والسّلوكات المنحرفة والرّذيلة سواء من أبناء جلدتنا وغيرهم من الكفار والملحدين، وإلى جانب ذلك فهناك محاولات مستمرة لزج الشّباب المسلمين في أوحال المخدّرات والمؤثّرات العقلية والمسكرات والملهيات، وهذا من أجل صرفهم عن القضايا المصيرية والمهمّة، ولجعلهم كذلك أذرع لتنفيذ مخطّطات دنيئة لا تعود عليهم ولا على دولهم بالنّفع والخير وصلاح الدّنيا والآخرة.

وقد رأينا حجم الملّفات القضائية المتصاعدة للشّباب الّذين تورّطوا في بيع وتعاطي المخدّرات والّتي وصلت إلى أرقام مخيفة حقيقة وهي تبعث على الخوف وتنم على أنّه هناك حربا حقيقية معلنة في الخفاء ضد الشّباب المسلمين، وأمام هذه التّطورات فإنّه علينا مسؤولية كبيرة للأخذ بأيدي الشّباب المسلمين نحو برّ الأمان كل

حسب موقعه ووظيفته فالإمام في المسجد عليه مسؤولية توعية الشّباب بخطورة هذه الظاهرة وتحذيرهم من مغبّة هذه السّلوكات الدخيلة على المسلمين مستخدما في ذلك نصوص الوعيد التي جاءت في القرآن والسّنة النبوية، والمعلمين والأساتذة في المؤسّسات التّربوية كذلك لهم مسؤولية توعية الشّباب بخطورة المخدّرات وتذكيرهم بواجبهم نحو الأمة الإسلامية، وما ينتظرهم من تحديّات في مختلف مجالات الحياة، والأولياء أيضا لهم مسؤولية متابعة أبنائهم بشكل دائم لأنّ إهمالهم لدور التّربية والمتابعة لأولادهم قد تنجر عنه آثار وخيمة على الفرد والمجتمع والدّولة، ومن ثمّ فهم مسؤولون أمام الله أوّلا ثمّ المجتمع والدّولة لتنشئة أجيال صالحة وقادرة على تحمّل مسؤوليتهم الكّاملة تجاه الدّين الإسلامي والمجتمع المسلم.

ولذلك من المهم جدّا توفير مناصب شغل دائمة لفئة الشّباب،أو منحهم قروض استثمارية غير ربوية وبدون فوائد، وهذا حتّى يشغلوا أوقاتهم في الأشياء المفيدة وليصقلوا مواهبهم الابتكارية، وليخوضوا عدّة تجارب في الحياة المهنية، لأنّنا رأينا أنّ نسبة كبيرة من الشّباب الذين وقعوا في حبائل الجماعات المنحرفة كانوا من فئة العاطلين عن العمل والذين لا يزاولون وظائف دائمة، فنفسك كما يقولون إذا لم تشغلها بالطّاعة- والتي من بينها الأعمال الدنيوية- شغلتك بالمعصية والرّذيلة والعياذ بالله، كما يجب كذلك ربط شباب المسلمين بتراثهم الحضاري والإسلامي، وإشراكهم في صنع السّياسات التي تهمّهم لأنّهم هم نواة المجتمع والرّكيزة الأساسية التي تنهض عليها جميع الوظائف المجتمعية.

11-تثمين التراث العربي الإسلامي في المجال العلمي والبحثي: ربّما يجهل كثير من النّاس أو بالأحرى كثير من المسلمين الذين قطعوا الصّلة بتاريخهم الإسلامي أنّ ما حصّله المسلمون في زمن الحضارة العربية الإسلامية من علوم ومعارف واكتشافات

علمية في العديد من التّخصّصات العلمية تفوق كثيرا ما حصّله ووصل إليه علماء الغرب في الوقت الحالي، وذلك مقارنة بالأساليب العلمية التي انتهجها علماء المسلمين في ذلك الوقت، وأنا ما زلت على رأيي في أنّ المنهج العلمي لعلماء الحضارة العربية الإسلامية أقوى بكثير من المنهج الحالي لعلماء الغرب سواء من حيث طريقة الاستدلال العلمي على كثير من المسائل العلمية، أو من حيث الرّوح العلمية التي تحلّى بها العلماء المسلمون في ذلك الوقت والتي كانت تتّسم بطول النفس في البحث العلمي والأمانة العلمية في عزو الاكتشافات العلمية لأصحابها، فضلا عن سبقهم في اكتشاف غوامض المسائل العلمية التي ظلّت عصيّة عن حلّها لمدّة كبيرة من الزّمن.

كما أنّ استصحاب التراث العلمي الإسلامي وكثرة التّنقيب فيه من شأنه أن يورث تعلّق أكبر بكل ما له صلة بالإسلام والمسلمين، فالتراث الإسلامي يجمع بين الدقّة العلمية وحسن المعتقد وهو ما لا يوجد في أغلب النّظريات العلمية الغربية التي لا تهتم في الأساس بحسن المعتقد؛ بل أحيانا يصيبك العجب من بعض العلماء الغربيين الّذين بلغوا شأوا كبيرا في العلم لكنّهم في المقابل لا يساوون شيئا في الجانب الأخلاقي والسّلوكي بل قد يكونون منحرفين للغاية في جانب العقيدة، فهناك من العلماء من الغربيين الذين نالوا أعلى الأوسمة والألقاب العلمية وهم ملحدين ومنحرفين في المعتقد والسّلوك، وقد تجد بعضهم بلغ حد الهذيان العلمي بسبب تعلّقه بالخرافات والأوهام، فلا يجب إذن الرّكون إليهم دائما والتّعويل عليهم في حل كل المعضلات العلمية خاصة إذا كان لنا من المراجع العلمية التي تغنينا هن هرائهم وشذوذهم، ولنا ولله الحمدّ علماء كثر في العديد من التّخصّصات العلمية والّذين عرفوا بتعمقّهم في البحث العلمي الأصيل والرّصين المعتدل وهو ما يجعلنا نفتخر بهم ونرفع رؤوسنا شامخة أمام علماء الغرب.

12-تمكين العلماء من دورهم التّوعوي في الأمة الإسلامية وتحفيزهم معنويا: ممّا لا ريب فيه أنّ العلماء هم صمّام أمان الأمم، وهم الذرع الواقي لها من جميع الأخطار المحدقة بها، ومن ثمّ فهم يستحقّون العناية الدّائمة والرّعاية المستمرة، لكونهم هم الّذين يخطّطون للأمّة ويرسمون لها سبل الفلاح والنّجاح والتنمية الشّاملة، لذلك من المهم إعطاء مكانة خاصة لهم في المجتمع ورفع شأنهم في كل محفل علمي، وحقيق بنا أن نجلّهم ونعرف لهم قدرهم، فهم يحرقون أنفسهم لينيروا لنا دروب الحياة، ويجدّون ويجتهدون ليميّزوا لنا الخبيث من الطّيب والغث من السّمين، إذ لا همّ لهم إلاّ استقصاء الحقائق وكشف ما خفي عنهم من علوم، والواحد فيهم ينفق عمرّه كلّه وهو يتنقل بين مسألة علمية وأخرى حتّى ينقضي عمره، وكما قال الإمام المبجّل أحمد بن أحمد رحمه الله من المحبرة إلى المقبرة، ولا سعادة لهم إلاّ بالعلم لأنّهم عرفوا قدر العلم وأهميته في المجتمع ولذلك باعوا الغالي والرّخيص ليحصّلوا منه ما كتب الله لهم من تلك العلوم.

ونحن اليوم بأمس الحاجة إلى فتح المجال أمام العلماء حتّى يقوموا بدورهم كما ينبغي، وذلك من خلال إقامة النّدوات والملتقيات العلمية والأيام الدراسية لمناقشة عدّة مواضيع تهم الأمة الإسلامية، ومن خلال تقديم كذلك عدّة مقترحات وتوصيات لحل المشكلات التي تواجه الأمة الإسلامية سواء في المجال الاقتصادي أو المجال التّعليمي أو المجال السياسي أو حتّى المجال الدّيني والسّلوكي وغيرها من المجالات المهمّة التي لها صلة مباشرة بحياة ومستجدات المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، ولوعرضت مشكلات العالم الإسلامي على العلماء المسلمين الأوفياء والمخلصين ودراستها من كل الجوانب بأسلوب علمي وموضوعي لتمكن هؤلاء العلماء من حل شفرة العديد من تلك المشكلات التي كان لها أثر جلّي على تخلّف المسلمين وتأخّرهم.

وما فاتنا الغرب اليوم إلاّ بتكريم علمائهم وإنزالهم لمنازلهم وإطائهم مكانتهم اللائقة، وهم يعرفون جيّدا دور العالم في المجتمع وما يقدّمه من خدمات جليلة لبلده وشعبه وأمّته، حيث نجد العالم عندهم له مرتبة عالية وله رأي مقدّم في القضايا والسياسات العامة، وحينما أتحدّث عن دور العلماء تحضرني دائما قصة المستشارة الألمانية انجيلا ميركل حينما قامت برفع أجور العلماء والأساتذة في ألمانيا بعدها طالب الأطّباء والمهندسين والقضاة وغيرهم من الموظّفين بضرورة رفع أجورهم ورواتبهم مثلما رفعت أجور المعلّمين والأساتذة فردّت عليهم ردّا مفحما لم أر ردّا مثله إلى حد السّاعة، حيث قالت لهم كيف أساويكم بمن علّموكم، وفي هذا الرّد دلالة قاطعة على أهمية ومكانة المعلّمين والأساتذة والباحثين في المجتمع، وفيه كذلك دليل أنّ القضاة والمهندسين والأطباء وغيرهم هم ثمرة وجهد المعلّمين والأساتذة، فلو لا المعلّمين والأساتذة ما كان هناك قاضيا ولا طبيبا ومهندسا وهلم جرّ، ولما كان الأمر كذلك فهم يستحقّون الرّاتب الأعلى في الدولة، كما يستحقّون التفاتة معنوية دائمة تكريما لجهودهم الفكرية التي يبذلونها لإنارة الطريق أمام الأجيال الصّاعدة.

وربّنا عزّ وجل قال في محكمه تنزيله: "**قل هل يستوي الّذين يعلمون والّذين لا يعلمون**..." [201]وهذا حق فكيف يستوي من ينام اللّيل كلّه متقلّبا في فراشه متنعّما براحة البال والجسد ومن يبيت الليل كاملا وهو مشتغلا بالعلم وقراءة الكتب والمسائل العلمية؟!، فأحيانا يبقى العالم ليله كلّه وهو يفكّر في مسألة واحدة يبحث لها عن حل إو إجابة وقد يستمر أياما متتابعة وهو على ذلك الحال يقلّب صفحات الكتب والمقالات والبحوث العلمية علّه أن يظفر بإجابة عن سؤال حيّره، أبعد كل هذا نتجاهل مكانتهم ودورهم في الأمّة، وينبغي علينا إذا أردنا أن نسترد مكانتنا الّتي كنّا

((201)) سورة الزمر , الآية 09.

عليه أن نعطي للعلماء مكانتهم الحقيقية في الرّأي والمشورة والتّوعية والتّعليم، وهذا حتّى نعطي للأجيال الحاضرة والمستقبلة دروسا حيّة بأنّه لا مكانة للمرء في المجتمع بدون العلم، وأنّ شخصية الرّجل الحقيقية تكون بما يقدّمه للأمّة من علوم ومعارف وتوجيهات ونصائح تعود على أمتّه بالنفع و الخير والصلاح، وليس بما يقدّمه لنا من خزعبلات وترّهات وأقوالا طائشة لا تسمن ولا تغني من جوع.

13- تعزيز علاقات التعاون بين الدول الإسلامية في مختلف الجوانب: إنّ ما يملكه العالم الإسلامي من ثروات وخيرات وموارد متنوعة والتي تسيل لعاب الدول الإمبريالية والمهيمنة على العالم وتجعلهم يتسابقون فيما بينهم للظفر بها يجعلنا أمام حتمية إقامة تكتّلات اقتصادية وعسكرية وتجارية لقطع الطريق أمام الدول المتربصّة بنا شرّا، وما يعيشه العالم اليوم من تقلّبات أمنية خطيرة ونزاعات هنا وهناك تجعل مخاوفنا تزداد يوما بعد اليوم، فلم يعد أمامنا الوقت الكافي لتضييع فرص التّعاون والتّكتل بين العالم الإسلامي، ولتحقيق هذه الغاية المنشودة ينبغي أن نبحث بشكل دقيق في الأسباب التي جعلت الأمّة الإسلامية تتفرّق شذر مذر، وإن كانت في أغلبها مفتعلة من الغرب، وهذا حتّى نعطي حلولا جذرية لمشكلات التّشرذم الّذي يعيشه العالم الإسلامي.

والعجيب أنّ كل الأمم نراها اليوم متكتلّة فيما بينها إلاّ الأمّة الإسلامية وقد رأينا في الحرب الروسية الأوكرانية كيف سارعت الدول الأوروبية والولايات المتّحدة الأمريكية إلى تقديم الدّعم العسكري واللوجستي لدولة أوكرانيا ووقفت إلى جانبها منذ انطلاق الشّرارة الاولى لهذه الحرب، وفي المقابل رأينا بعض الدول الأخرى وقفت إلى جانب روسيا وقدّمت لها كذلك الدّعم المعنوي والعسكري وأيّدتها في مواقفها العسكرية والدولية، بينما حينما تعرّضت غزّة للقصف الجهوي المنهمر لم نجد الدّعم الكافي لإيقاف القصف الهمجي الّذي أُعلن ضدها أمام مرأى العالم، وذلك لأنّ العالم

الإسلامي في وضعية لا يحسد عليها، وليست له القوّة الكافية التي يردع من خلالها العدوان الصهيوني، وعليه فإنّنا ملزمين بتقوية جبهاتنا القتالية وتوحيد صفّنا من جديد، والعالم الإسلامي بكل صراحة رغم الضّعف الشّديد الذي يمر به الآن فإنّه قادر على النهوض من جديد بشرط أن يكون العالم الإسلامي جاد وموحّد في أهدافه وغاياته.

14- استغلال وسائل الاتصال الحديثة للتّعريف بأصول الحضارة الإسلامية وثوابتها: لقد شهد العالم في العقود الأخيرة تطوّرا ملحوظا ومحسوسا في وسائل الإعلام والاتصال الحديثة، وقد وظّفت تلك الوسائل في تقريب المسافات بين الأفراد والمجتمعات، وجلعت من السّهولة بمكان الإتصال بينهم بدون أدنى مشقة، ومن ثمّ أصبح من الممكن تبادل الأفكار وتلاقحها بين المسلمين بغض النّظر عن المسافة التي تفصلهم عن بعضهم البعض، وفإنّه في ظهور هذه التّقنيات الحديثة فرصة كبيرة أمام المسلمين للترويج للموروث الحضاري الإسلامي والتّعريف بأبرز الشّخصيات الإسلامية التي كان لها فضل كبير في تطوّر الحضارة العربية الإسلامية، وهي كذلك وسيلة مهمّة لتفنيذ الشبهات ودحض الافتراءات التي يرّوجها أعداء الأمة الإسلامية بغرض ضرب وحدة المسلمين وإضعافهم.

كما أنّه يمكن إنشاء منتديات وصفحات خاصة عبر وسائط التواصل الاجتماعي أو عبر مختلف وسائل الاتصال الأخرى مهمتها التّعريف بالحضارة العربية الإسلامية وانجازاتها المختلفة، وهذا من أجل الوقوف على حقيقة ما قدّمه المسلمون للعالم عكس ما يروّجه الغرب بأنّ الحضارة العربية الإسلامية لم تقدّم سوى الدّم والسّيف والقتل للعالم، وهم يعلمون في حقيقة أنفسهم أنّ الحضارة العربية الإسلامية سبقتهم في اكتشاف كثير من المسائل العلمية المعقّدة ولكنّهم ينسبون ذلك لأنفسهم حسدا للمسلمين وللحط من قدر الحضارة العربية الإسلامية، والفرصة أمامنا اليوم لكشف

هذه الأكاذيب والأراجيف، وهذا الإفك المبين، فنحن من علّمنا الغرب أصول البحث العلمي وأخرجانهم من ظلمات وديا جير الجهل إلى أنوار ومصابيح العلم، وهذا باعتراف المنصفين من عقلائهم وعلمائهم **كزيغريد هونكه** و"**غوستاف لوبون**" و "**فاسيلي فلاديمير بارتولد**" و "**روجيه دو باسكويه**" و"**موريس بوكاي**" و"**آنا ماري شيمل**"، و"**ليو بولد فايس**" وغيرهم كثير جدا ولله الحمد، وقد نطقوا بالحق وردّوا على أكاذيب وادّعاءات المغرضين والحاقدين على حضارة العربية الإسلامية.

ولا يخفى أنّ كثير من الشُّبه المصطنعة استطاع بعض العقلاء والحكماء أن يزيلها من قلوب وعقول الشّباب المسلمين عبر هذه الوسائط الجديدة من خلال حسن عرضهم للشّبهة وتفنيذها بالحجّة والدّليل القاطع الأمر الذي أدّى إلى تراجع كثير من الشّباب عمّا كانوا يعتقدونه ظنّا منهم أنّهم على صواب، فالردّ العلمي الرّصين والمقنع له فلسلفة خاصة وله حكماء متخصّصون في هذا الشأن، ومعنى هذا أنّه ليس كل شخص مؤهّل للقيام بالرّد على الشُّبهات أو تبصير الأمة بما يحاك ضدّها من مؤامرات ومخطّطات، بل إنّ الأمر يحتاج إلى أشخاص كما قلنا أكفاء ومحنكّين يتّسمون بالهدوء والقدرة على الإقناع والحوار مع من وقعوا في الشّبهات أو في أحابيل الجماعات المتطرّفة والمنحرفة.

وعلى كل حال نأمل من المتخصّصين والمثّقفين والعلماء والدّعاة وطلبة العلم أن يستفيدوا من هذه التّقنيات الحديثة لخدمة دينهم الإسلامي وللرّد على كل من يتربصّ شرّا بالمسلمين والإسلام، ولنا ولله عددا كبيرا من هؤلاء ولا نشكّ في صدقهم وقدرتهم على تحمّل هذه الأمانة الجسيمة، فنحن نعيش في زمن يعج بالشّبهات والشّهوات والمؤامرات، وهذا يقتضي منّا أن نأخذ العدّة للوقوف أمام كل من تسوّل له نفسه الإضرار بالإسلام والمسلمين، وحان الوقت لنعقد العزم على أن نكونوا متكاتفين

لحماية ديننا وأوطاننا وأبنائنا وإخواننا المسلمين من كل حملات التّشويه والتّحريف والتّزييف لكل ما هو إسلامي، والّتي عهدناها من أعدائنا من قديم الزمان.

15-تعزيز مكانة الجامعة في معالجة القضايا التي تهم المسلمين والموروث الحضاري الإسلامي: يُنظر إلى الجامعة على أنّها أعلى مؤسّسة بحثية في الدّولة، ويسند إليها أساسا دراسة العديد من المواضيع في مختلف المجالات والتّخصّصات العلمية، ومعلوم أنّ للجامعة دور كبير في تنشئة الطلبة الجامعيين وتكوينهم تكوينا علميا ونظريا، ومن ثمّ يعوّل عليها أنّ تكون هي القاطرة الحقيقية التي تقود الأمّة الإسلامية نحو الرّيادة والتّقدّم في جميع الميادين، وذلك من خلال إشراكها في البرامج والمخطّطات التنموية من جهة، ومن خلال كذلك إشراكها في السّياسات والاستراتيجية البحثية التي تُعنى بالفكر والتّفكير العلمي السليم.

وتظهر أهمية الجامعة كذلك من خلال غرسها لمبادئ وأسس الثقافة الإسلامية لدى الأجيال المتعاقبة حتّى يكونوا دعاة ومدافعين عنها، كما أنّ لها دورا كبيرا –أي الجامعة- في توعية المجتمعات بأهمية التزامها وتمسّكها بثقافتها الإسلامية الأصيلة والبعيدة عن الغلو والتّطرّف والانحراف، بما ينسجم مع العقيدة الإسلامية النقيّة التي تسعى إلى بناء الأفراد والمجتمعات بناء قويا وسليما يسمح لها بتحقيق عزّة الأمة الإسلامية وقوّتها، وذلك من خلال تنظيم ملتقيات وندوات علمية تبرز من خلاله دور الإسلام في توجيه الأفراد والمجتمعات توجيها صحيحا، ومن خلال كذلك بناء الإنسان بناء صحيحا يجعله عنصرا فاعلا ومؤثرا في مجتمعه وأمته انطلاقا من المنهج الوسطي الذي جاء به الإسلام دون إفراط ولا تفريط [202]، أي بأسلوب يُراعى فيه عقول

((202)) حسين محمد الربايعية، "**دور الجامعات في تنمية الثقافة الإسلامية لدى المجتمعات** "، مجلة جامعة الأقصى، المجلد11،العدد01،يناير 2007، ص82.

الناس ومستواهم الإدراكي للقضايا التي تعرض عليهم، لأنّ القفز على مستوى فهم الأفراد قد تكون له انعكاسات سلبية ونتائج عكسية.

وللجامعة كذلك دورا كبيرا في الحفاظ على الهوية الإسلامية والدّفاع عن الموروث الحضارى الإسلامي، وذلك من خلال تقديم دروس ومحاضرات مباشرة وغير مباشرة للأجيال الصّاعدة تحثهم فيها على ضورة التّمسك بالهوية الإسلامية وتحذّرهم من خطورة دعوات التحريف والتزييف للحقائق الإسلامية التي تضطلع بها بها الجهات المأجورة أو بعض الدول العادية لكل ما له صلة بالإسلام والحضارة الإسلامية، أو من خلال كذلك تخصيص مواد علمية تدرس في الجامعات تختص بدراسة مواضيع إسلامية وحضارية، والهدف من ذلك هو توعية الأجيال الصّاعدة ونخبة الأمّة بما يتنظرهم من مهام ومسؤوليات جسام أمام أوطانهم ودينهم الإسلامي وحضارتهم الإسلامية التي تعرّضت للظُّلم والمسخ والتّشويه من الداخل والخارج.

16- إقامة دورات علمية تعنى بدراسة الحضارة العربية الإسلامية خلال الإجازات الصيفية: من المهم جدّا استغلال فترة الصّيف التي يكون فيها عادة الطلبة والتّلاميذ والمتمدرسين عموما في إجازة تدوم لثلاثة أشهر أو أكثر، فهذه في الحقيقة فرصة ثمينة يحسن بنا استغلالها في إقامة دروات علمية أو شرح كتب علمية تتعرّض للتراث الإسلامي ويكون ذلك على يد علماء متخصّصين في هذا الشّأن أي لهم إطلاع واسع على الثراث الإسلامي في الفقة والعقيدة اللّغة والحديث والتاريخ الإسلامي ومختلف العلوم الدنيوية، فمن الممكن خلال هذه الفترة تقرير عدّة مسائل تتعلّق بالتاريخ الإسلامي والهوية الإسلامية وانجازات المسلمين المادية والمعنوية والأخلاقية، وبعد انتهاء تلك الدورات العلمية تخصّص امتحانات ومسابقات علمية من أجل اختبار مدى

استيعابهم للموضوعات التي تناولوها ولأجل كذلك تحفيزهم وتشجيعهم على المشاركة في مثل هذه الدّورات المهمّة.

ومن المهم كذلك أي يصطحب الأولياء أبنائهم إلى تلك الدورات العلمية حتّى تعم الفائدة من جهة وليحرصوا على انتفاع ابنائهم من تلك الدورات من جهة أخرى، ومن الأحسن للأولياء هم كذلك أن يشجّعوا أبنائهم على حضور تلك الدورات العلمية من خلال تحفيزهم ماليا وتقديم هدايا ثمينة لهم مقابل حضروهم لتلك الدورات، لأنّه في الحقيقة إن لم يكن هناك متابعة من طرف الآباء لابنائهم فقد لا يحصّل الأبناء فوائد كثيرة من تلك الدّورات العلمية التي قد لا تتكرّر مرّة أخرى.

وقد اعتاد الأطفال والمتمدرسين على قضاء إجازاتهم الصّيفية في اللّعب واللّهو والترويح عن النفس في شواطئ البحار أو في دورات كرّة القدم أو الرّياضية بمختلف أنواعها، وإن كان الترويح هو جزء منهم من حياتهم إلاّ أنّه ينبغي ألاّ يكون جلّ همّهم منصبا على ذلك، بل ينبغي التّوسط في ذلك فساعة لطلب العلم وتحصيل العلوم وحفظ المتون والإطلاع على مختلف التّصانيف العلمية، وساعة للتّرويح عن النفس وباللّعب أو الاستجمام أو السّفر نحو الأماكن التي تكثر فيها الرّاحة النفسية والسّكينة بشكل عام.

17- تنظيم جوائز قيمة وثمينة لمن يقدّم أعمال علمية تهتم بدراسة بالحضارة الإسلامية: من اللاّئق علينا نحن كشعوب إسلامية أن نقوم بشكل دوري بتنظيم أو تخصيص جوائز ثمينة لكل من قدّم عملا علميا فريدا يهتم بالحضارة الإسلامية وتعريفها لجموع المسلمين وغيرهم، وهذا من أجل تحفيزه وتحفيز غيره من الباحثين على مواصلة البحث في هذا التّخصّص الذي كاد أن يندثر في المجتمع، حيث قلّ الاهتمام

به مقارنة ببقية التخصّصات العلمية الأخرى، فهناك اهتمام واسع اليوم بالعلوم الطبّية والفيزيائية والذّكاء الاصطناعي وغيرها من العلوم التي تشرأب إليها أعناق المتفوّقين في دراساتهم –وإن كنّا لا نقلّل من شأنها ودورها في تطوّر المجتمعات ورقيّها – ولكن في المقابل هناك زهد واضح وعدم إقبال تلك الفئة على العلوم الشّرعية والتخصّصات الإسلامية لأنّ الدراسة اليوم أصبحت مرتبطة بسوق العمل أكثر من ارتباطها بالتّحصيل العلمي الخالص، اقصد لو كان المتخرّج من العلوم الطبيّة لا يتقاضى أجرا على عمله أو يتقاضى أجرا زهيدا فإنّه من الممكن جدا ألاّ يدرس العلوم الطبية،و في المقابل إن كانت العلوم الشّرعية والاشتغال بها يترتّب عليها الحصول على وظائف مغرية ورواتب مرتفعة جدا فإنّ جل الطلبة سيصرفون هممهم إلى تلك التخصّصات العلمية.

وعلى كل حال فإنّنا اليوم بحاجة إلى تحفيز النّاس على الاهتمام بالتراث الإسلامي بأي وسيلة كانت سواء بالجوائز النّفيسة أو من خلال الإشادة بأعمالهم على المنابر الإعلامية والمؤسّسات التّعليمية، فالنفس تميل دائما إلى التّحفيز والتّشجيع، وهذا هو طبع الآدمي مهما كان لونه أو جنسه أو دينه، ولذلك فالعناية بهذه المسألة يعد أحد الحلول النّاجعة لتعظيم التراث الإسلامي في قلوب وأفئدة المسلمين، ولجعلهم أكثر تعلّقا لكل ما له صلة بالثوابت والأصول التي قامت عليها الحضارة العربية الإسلامية.

وفي هذا كفاية ونرجو أن تكون هذه المقترحات التي أسفلنا الحديث عنها كفيلة باسترداد مكانة الحضارة العربية الإسلامية، وأن يكون لها دورا على الأقل في تثمين كل ما له صلة بديننا الحنيف وحضارتنا العربية الإسلامية السّاطعة الأنوار وكثيرة العطاء للمسلمين وللبشرية قاطبة، وهذا ما نؤّمله ونرتقبه والله هو وحده الموّفق لذلك، والعبرة بحسن القصد لا بكثرة الكلام.

المبحث الثالث: موقف الغرب من عودة الحضارة العربية الإسلامية ونهضتها من جديد

لاشكّ أنّ موقف الغرب من عودة الحضارة العربية الإسلامية ونهضتها من جديد ينقسم إلى قسمين أساسيين؛ القسم الأوّل وهو الغالب ويشكّل الأغلبية وهو الّذي يرفض عودة الحضارة العربية الإسلامية من جديد لأنّها حسبهم تكبت الشّهوات وتقيّد الحريّات وقائمة على الرّهبانية والزهد والتشدّد، وهو ما لا يمكن الالتزام به حسب هذا التيار خاصة في ظل سيطرة الأهواء والشّهوات والملذّات على قلوبهم وعقولهم، والقسم الثاني أو الفريق الثاني وهم القلّة الذين يؤيّدون عودة الحضارة العربية الإسلامية لأنّها حسبهم هي الحضارة الوحيدة التي أرست مبادئ العدل والانصاف والسّعادة الحقيقية بين الناس، ويمثّل هذا التيار أو الفريق العقلاء والحكماء من العلماء والباحثين الذين أيقنوا أفضلية الدين الإسلامي على باقي المذاهب والنظريات السياسية والاقتصادية والنفسية التي تبيّن ضعفها وعجزها عن إيجاد حلولا جذرية للمشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأمنية التي يعيشها العالم في وقتنا الرّاهن.

ونعود إلى الموقف الأوّل حيث ذكر في هذا الصّدد الباحث حامد شاكر العاني تحذير الغرب من ظهور الإسلام وعودته من جديد، وقال ما مفاده وسأنقل كلامه دون أي تعديل نظرا لأهميته القصوى: " **الجدير بالإشارة إلى أنّ الغربيين المكابرين يحذرّون أشّد الحذر من عودة الإسلام إلى مسرح الحياة وسيطرته على سدّة الحكم من جديد، ويخافون من ظهور (صلاح الدين) مرّة أخرى، فقد بذلوا ما بوسعهم من منع عودة المسلمين إلى سالف مجدهم، وهم يقرّون بذلك من خلال الخطاب الفكري والسّياسي المخادع القائم على المراوغة والاحتيال، فهم في كلّ يوم يظهرون ببدعة جديدة، وصورة أكثر رونقاً وشفافية لزعزعة ثقة المسلمين**

بإسلامهم، فمرّة يدعون إلى عزل الدّين عن الحكم تحت مسمّى (العلمانية)، ويقولون: إنّ الدّين أفيون الشّعوب، وقد وجّهوا من خلال هذه النافذة سهامهم صوب القرآن الكريم والسّنة النبوية المطهرة زاعمين أنّ القرآن فيه عبارات لا تتناسب مع مبادئهم ومناهجهم، كإعلان الحرب بمعنى: لماذا يعلن الإسلام على الأديان الأخرى الحرب والعداء؟. ولماذا يميّز بين الذكر والأنثى؟ فيجعل للذّكر مثل حظ الأنثيين من الميراث، أي عدم المساواة بين الرجل والمرأة في كل شيء،والحجاب وستر المرأة بدنها،وأنه لا ينصف القوميات والأقليات"[203].

ومن سياساتهم الخبيثة أنّهم في بعض الأحيان يدعون عملائهم إلى اتّباع سياسة ومنهج تغريب المسلمين من خلال البعثات والدّعوات المبهرجة لدمجهم بحضارة الغرب وانصهارهم فيها، وانسلاخهم من دينهم وإسباغ الأموال الطائلة عليهم لإغرائهم بالانتقال إلى تلك البلاد، ومرّة يشيّعون منهج الديمقراطية كبديل عن مبدأ الشّورى في الإسلام، ويتّهمون الإسلام بالقصور والتّخلف، ومرة ينتهجون سياسة (فرق تسد)، هذا المبدأ الظالم القديم، الذين تمكّنوا من خلاله تمزيق أوصال الأمة وجعلوها دويلات متعادية تحت قوّة السّلاح، ومرة أخرى جاءوا بالدّعوة إلى القوميات والولاء لها والموت دونها، واليوم يدعوننا إلى مكافحة الإسلاميين المتطرّفين تحت مسمّى (الإرهاب)، إنّها حملة مسعورة يقوم بها الغربيون ومن والاهم ضد الإسلام والمسلمين، ونقلوا بهذا الأسلوب الجديد معركتهم إلى ديار المسلمين، فآلة حربهم اليوم تطحن المسلمين طحناً كما في العراق وأفغانستان وفلسطين[204].

((203)) حامد شاكر العاني، " **حذر الغربيين الأعداء من ظهور الإسلام وعودته مجدّدا** "، منشورات شبكة الألوكة الثقافية، 2014/10/09.

((204)) حامد شاكر العاني، المرجع السّابق.

إلى أن قال فقد سئل أحد المفكّرين الأوربيين في محاضرة له بعد استقلال الجزائر: لماذا كنتم تحاربون في الجزائر؟ أجاب بقوله: **(إنّنا لم نكن لنسخّر النّصف مليون جندي من أجل نبيذ الجزائر، أو صحاريها، أو زيتونها، إنّنا كنّا نعتبر أنفسنا سور أوروبا الّذي يقف في وجه زحف إسلامي محتمل يقوم به الجزائريون وإخوانهم من المسلمين عبر المتوسط، ليستعيدوا الأندلس التي فقدوها، وليدخلوا معنا في قلب فرنسا بمعركة (بواتيه) جديدة ينتصرون فيها، ويكتسحون أوروبا الواهنة، ويكملون ما كانوا قد عزموا عليه أثناء حكم الأمويين بتحويل المتوسط إلى بحيرة إسلامية خالصة، من أجل ذلك كنا نحارب في الجزائر"**[205].

وقد تعمّدت نقل هذه الفقرات بأكملها لأهميتها من جهة وللتّأكيد على خطورة موقف الغرب من عودة الحضارة العربية الإسلامية وسبب مقتهم وبغضهم لها، وهذا في الحقيقة ينبئ عن سوء فهمهم لما جاءت به الحضارة العربية الإسلامية،كما يدّل على قصور نظرهم وفهمهم لأبعادها ومقاصدها السّامية الأمر الذي جعلهم يتكالبون على تشويهها وتحريفها من أجل إشباع رغباتهم وشهواتهم الفانية، فهي حسب ظنّهم الفاسد وتفكيرهم الكاسد تقع سدّا بين ما يريدونه وما تريده الحضارة العربية الإسلامية، أي أنّها حضارة قد تجاوزها الزّمن ولم تعد صالحة حسب معتقدهم وفكرهم المادي.

وقد قاد "صمويل هنتجتون "– عالم سياسي أمريكي–حملة شرسة ضد الحضارة العربية الإسلامية في كتابه الشّهير: "صدام الحضارات وإعادة تشكيل النظام العالمي " حيث أكّد في محاور هذا الكتاب على أنّ الحضارة العربية الإسلامية عادت من جديد لتفرض نفسها بشكل تدريجي، ومن ثمّ فقد أصبحت حسبه تشكّل تحديا جليّا للغرب

((205)) المرجع نفسه.

وبخاصة في الربع الأخير من القرن العشرين، كما أنّه وصف العلاقة بين الإسلام والغرب على انّها علاقة صراع وتصادم في غالب الأحيان، ويقرّر قاعدة خطيرة جدا وهي أنّ المشكلة لا تتعلّق بالمسلمين أنفسهم وإنّما بالإسلام في حدّ ذاته، ويرى في ذات السّياق أنّ الإسلام يحمل مخاطر كبيرة على الغرب منها النّمو الديمغرافي الكبير، والحركية الاجتماعية التي تحدثها الحركات الإسلامية في شتّى مناحي الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية والتي ستؤدّي إلى امتلاك زمام الحكم[206]، وقد تبّنت الإدارة الأمريكية موقف صمويل هنتجتون تجاه المسلمين والحضارة العربية الإسلامية بشكل رسمي، حيث أعلنت الإدارة الأمريكية في عهد جورج دبليو بوش الإبن حربا ضروسا تجاه البلدان الإسلامية، وقد فرضت على بعض الدول الإسلامية عقوبات اقتصادية شديدة، وبعض الدول الأخرى تمّ غزوها واحتلالها كالعراق وافغانستان بحجّة مكافحة الإرهاب وامتلاكها للأسلحة المحظورة، والهدف من ذلك كلّه تضييق سبل الإسلام ومنع انتشاره وعودته بقوّة من جديد، ومن ثمّ فهي حرب صليبية جديدة ضد المسلمين لا تختلف كثيرا عن الحروب الصليبية القديمة.

ولا يزال موقف الغرب من الحضارة العربية الإسلامية موقفا تسيطر عليه أفكار الحقد والكراهية الشّديدة الممزوجة بالرّياء والنفاق في بعض الأحيان، حيث كلّما وجدوا مصلحة مع المسلمين تظاهروا باحترامهم وإلى حاجة التعاون معهم في كثير من القضايا الاستراتيجية والتي تحتاج إلى تكاتف بين جميع بلدان العالم، وكلما اختفت المصلحة أو تراجعت أظهروا وجههم القبيح وأطلقوا ألسنتهم النّتنة في وصف المسلمين بأوصاف دنيئة وحقيرة وهي تنطبق عليهم هم أنفسهم، فالحاصل أنّ موقفهم تجاه المسلمين

((206)) انظر إلى طارق الزمر، "**المستشرقون الجدد والعدوان على غزّة عودة لصدام الحضارات**، صحيفة عربي21، 19جوان 2024.

والحضارة العربية الإسلامية وإن كان أنّه موقف عدائي في الغالب فإنّه قد يلين بشكل مؤقّت إلى غاية تحقيق مطلبوهم وقضاء حوائجهم من المسلمين ثمّ يعود إلى أصله وهو الموقف المتصادم مع الإسلام والمسلمين، وهذا ليس في الحقيقة بشيء جديد؛ بل إنّ كتب التاريخ تسجلّ نفس المواقف المتكرّرة تجاه المسلمين منذ قرون من الزّمن أو قل منذ بعثة سيّد الأنام محمّد عليه أفضل الصّلاة والسّلام، ومن ثمّ فلنأخذ حذرنا منهم، ولا نعوّل على منطقهم الزّائف القائم على الكذب والافتراء، لأنّهم من قديم الزّمان وهم ينكثون الوعود ويخلفون الوعود، ومن المستحيل أن يصدقوا مع أنفسهم ومع المسلمين لأنّهم نقضوا العهد مع الله عزّ وجل فكيف نأمنهم على ديننا وأخلاقنا ومجتمعاتنا.

وبخصوص موقف المنصفين تجاه الحضارة العربية الإسلامية فهو في الأصل نابع عن قناعة تامة وفهم راسخ، ولم يفرض عليهم أحدا أن يتبنّوا هذا الموقف، وأقوالهم ليست أقوالا عابرة بل هي مبنية على أسس علمية ودراسات وبحوث مستفيضة ودقيقة، ومن ثمّ فهي شهادات صادقة خلّدها التاريخ لكل الأجيال التي أتت من بعدهم، وفي الحقيقة هذا يزيدنا اعتزازا وفخرا بحضارتنا الإسلامية، ويجعلنا نرفع رؤوسنا في السّماء، لأنّنا ننتمي إلى حضارة إنسانية مكتملة الأركان وقوية البّنيان لا اعوجاج فيها ولا نقصان، فتبارك الرحمان خالق السّموات والأرض وجميع الأكوان، وله الحمد كلّه على ما أنعم به علينا من نعم تترى لا يحصيها إلاّ هو العزيز المنّان.

ونحن نقول دائما بأنّ ما ذهب إليه المستشرقين المنصفين تجاه حضارتنا الإسلامية، وما أدلوا به من حقائق يضع الجانب الآخر –أي المعادي للحضارة الإسلامية– في حرج كبير، لأنّه كشف أكاذيبهم ودحض أباطيلهم التي هي على شفا جرف هار، ولم يبق للمعاندين والمناوئين إلاّ أن يعودوا إلى رشدهم أو يخرسوا ألسنتهم وأن يتوقّفوا عن الترّهات والخزعبلات التي ما زادتهم إلاّ خبالا وجهالة وبعدا عن الحق،

وحتّى إن لم يفعلوا ذلك فهم إلى مزبلة التاريخ ذاهبون، وعن طريق الحق دائما زائغون، ولن يسعدوا ولن يذوقوا طعم الرّاحة الأبدية ما داموا على هذا الحال، وهذا المعتقد الفاسد، ولهم في صناديدهم دروسا وعبر وأمامهم كتب التاريخ إن أرداوا التحقق من صدق ما قلناه، ومن لم يعتبر منهم فسيرى مصيره حتما وسيلقى جزائه كما لقيه نظرائه وأمثاله من الجّهال والحمقى.

ومهما يكن من موقف الغرب تجاه الحضارة العربية الإسلامية فستظل هاته الأخيرة شامخة راسخة في أذهان الملايين من البشر المسلمين وغير المسلمين لأنّها حضارة قامت على الحق والعدل والأخلاق الرّفيعة ولم تقم على القوّة والإكراه كما يزعم بعض المتعالمين أو الجهال، لأنهم لم يقرؤوا التاريخ الحقيقي لتلك الحضارة بل قرؤوا أخبارا ملّفقة ومشوّهة بقيت عالقة في أذهانهم وبنوا عليها أحكاما واهية لا تمت للإسلام بصلة، ولا يصدّقها من له ذرة من عقل وحكمة وبصيرة.

وقد رأينا –ولله الحمد– كيف تبوء محاولات اليهود والنصارى والمجوس والملحدين دائما بالفشل تجاه الدّين الإسلامي والحضارة الإسلامية؛ فالباطل مهما طال فلا بدّ وأن ينكشف زيغه وضلاله ولو بعد حين، وسنة الله في خلقه أن يجعل النّصر والتّمكين لعباده المؤمنين والصّادقين ولو كان عددهم أقل بكثير من أعداد المنافقين والزائغين عن طريق الهدى والصّراط المستقيم، فالعبرة دائما بصدق الاتباع والمنهج القويم الذي جاء به سيّد الأنبياء والمرسلين نبيّنا محمد عليه أفضل صلاة وتسليم.

وليبشر إخواننا المسلمين في كل مكان وفي كل زمان أنّ الله سيظهر دينه ولو على يد رجل واحد وسينصر المسلمين على أعدائهم ولو بقي يوما واحد في عمر هذه الدّنيا، وليثقوا بعلمائهم المسلمين فهم أهل دراية ويقين، ولا يغرّنهم ما يروّجه بعض

الحاقدين على الإسلام أنّ زمن الحضارة العربية الإسلامية قد ولّى بلا رجعة؛ فهذا قول يدل على جهل وسوء أدب مع الله رب العالمين الّذي تولّى نصر هذا الّدين ولو تكالب أهل الأرض إنسهم وجنّهم على وأد هذا الدّين ودحره ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

وهذا حال من تكبّر وتعالى على الحق واتباعه ولنا في القدامى أسوة وعبرة، فانظر كيف أبادهم الله عزّ وجل وجعلهم أثر بعد عين ولم يبق لهم ذكر إلاّ من جهة العبرة والعظة لعموم الانس والجن، ومن زاغ عن الحق أذلّه الله، وكما قال الحسن البصري رحمه الله: "**إنّهم –أي الكفّار والمنافقين– و إن طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين فإنّ ذل المعصية لا يفارق قلوبهم، أبى الله إلاّ أن يذّل من عصاه** "، وقد صدق والله الحسن البصري فيما قاله فما زلنا نرى كيف يذل الله أهل الباطل وكيف يؤول أمرهم إلى مهانة وخسران، وهم الّذين كانوا بالأمس جبابرة لا يرعوون ويتكبرون على الحق وأهله إلى أن صاروا أذّل خلق الله وحقّ لهم أن يكونوا كذلك حتّى يكونوا عبرة لمن يعتبر.

الخاتمـــة

الخاتمة:

في ختام هذا الكتاب يمكن أن نقول إنّنا لم نكن السبّاقين في دراسة هذا الموضوع المهم، حيث سبقنا إليه الكثير من الكتّاب والمؤلّفين والباحثين سواء من المسلمين أو غير المسلمين، ومع ذلك فلا نحسب أنّ هذا الموضوع قد أُستوعبت جميع مضامينه وأبعاده، فهناك من الجزئيات المهمّة لم يتم التّركيز عليها في تلك الكتب، حيث اكتفى بعض الباحثين بالإشارة إليها فقط دون تفصيل، كما أنّه لم يتم في الغالب التّركيز على الدروس والعبر المستفادة من الحضارة العربية الإسلامية، وعلى كل حال فقد حاولنا من خلال هذا الكتاب المتواضع أن نلفت عموم المسلمين ومثقفيهم إلى موضوع مهم قلّ الاهتمام به في زمننا الحاضر الذي انكبّ فيه عامة المسلمين على الاختصاصات العلمية التي سبق وأن ذكرناها في ثنايا هذا الكتاب، مع إعراض أو قلّة اهتمام بالجانب الحضاري والتاريخ الإسلامي، وهذا له علاقة بطبيعة العالم بالتطّورات الحاصلة في العالم خاصة ما تعلّق بالجانب التكنولوجي والاتصالي.

ومن خلال دراستنا لهذا الموضوع والغوص فيه تبيّن لنا ما يلي:

1-أنّه حُقّ للمسلم أن يفتخر ويعتز بما جاءت به الحضارة العربية الاسلامية وتبنّته من قيم ومبادئ إنسانية راقية جدا، فهي عكس الحضارات الانسانية الأخرى جمعت بين الرُّوح والمادة وجعلت من الانسان أسمى أهدافها ومضامينها، ولذلك تجد كل من له ذرّة من عقل يعترف بأفضلية الحضارة العربية الإسلامية عن باقي الحضارات لأنّها الحضارة الوحيدة التي عرفت كيف تدخل السعادة الحقيقية على قلب الإنسان التي هي أسمى أمانيه (أي السعادة)، ولذلك لا تعجب حينما يقرّ المنصفين من الفلاسفة

والمفكّرين وعلماء الغرب بأنّ الحضارة العربية الإسلامية هي الحضارة الوحيدة التي جعلت من الإنسان كائنا عاقلا وراشد ونافعا أينما حلّ وارتحل.

2-أنّه هناك اتّهامات باطلة ومغرضة طالت الحضارة العربية الإسلامية بهدف الحطّ من قدرها والاستصغار من شأنها ليصرفوا النّاس عن رغبتهم في الإطلاع عليها واكتشاف أسرارها، ومن ثمّ فإنّه ينبغي التّصدي لهذه الظاهرة المشينة بقوّة لأنّها لم تتوقف بعد، وقد زادت حدّتها وخطورتها مع التّطور التّكنولوجي الذي شهده العالم في العقود الأخيرة، ورغم هذه حملات هذه التّشويه الدّنيئة فإنّ أعداد المسلمين يتزايدون كل يوم بتوفيق من الله، لأنّ عزّ وجل هو الذي تولّى حفظ هذا الدّين إلى قيام الساعة، فكلّما أراد أعداء الدّين الإسلامي أن يثيروا الشُّبهات ضد الإسلام والحضارة العربية الإسلامية كشف الله باطلها وزيفها على يد العلماء والدّعاة المخلصين والمربّين المصلحين، وكأنّه كلّما حورب الدّين الإسلامي زاد عدد المعجبين به، وهذا ما كشفته الأحداث العالمية التي تستغل دائما لتشويه الإسلام والمسلمين كتفجيرات 09 سبتمبر 2001 وغيرها من الأحداث التي جعلت غير المسلمين يبحثون عن حقيقة الإسلام والتي انتهت بدخول عدد كبير منهم إلى الإسلام طواعية وبلا إكراه من أحد.

3-أنّ ما تركته الحضارة العربية الإسلامية من إسهامات وانجازات في جميع المجالات العلمية والمعرفية مدعاة للفخر لكل مسلم محبّ لدينه وأمتّه الإسلامية، ففي الوقت الّذي مال فيه كثير من المسلمين وانبهروا بما وصلت إليه التكنولوجيا الحديثة من اختراعات واكتشافات علمية نالت اعجابهم الشّديد بها الأمر الذي جعلهم يتناسون عن قصد أو غير قصد ما حقّقه المسلمون من إنجازات متعدّدة عجز عنها علماء الغرب في ذلك الزمان، حيث كانوا مضطرين لتعلّم اللغة العربية لينهلوا من علوم المسلمين وآدابهم الاجتماعية وثقافتهم الإسلامية لقرون من الزّمن، وبعبارة أخرى فإنّ

ما حققّه المسلمون ما انجازات متعدّدة لا تقل أهمية عن ما وصل إليه العالم اليوم، بل إنّ ما وصل إليه العالم من تطوّر عجيب هو في الحقيقة مستوحى من انجازات الحضارة العربية الإسلامية بشكل كبير، ولكن الغرب لا يقر بذلك لأن ذلك لا يخدم أطماعه الإمبريالية ولا مصالحه الاستراتيجية.

4-أنّ التّفريط في دراسة الحضارة العربية الإسلامية وعدم الاهتمام بها والاستفادة منها في الجوانب السّلوكية والتّربوية والتّعليمية يترتّب عليها نتائج وخيمة على الأمة الإسلامية منها التأثر بالحضارة الغربية ومحو الهوية الإسلامية تدريجيا خاصة في ظل الانتشار الكبير لشعارات الموضة في وقتنا المعاصر، ولذلك يجب تخصيص برامج خاصة تهتم بدراسة التراث العربي والإسلامي في جوانبع العلمية والسلوكية والاخلاقية، وهذا حتّى تندثر معالم الحضارة العربية الإسلامية وتبقى راسخة في قلوب وعقول الشباب المسلمين الذيت يتطلّعون لغذ أفضل ومستقبلا زاهرا بالعطاء والانجازات المادية.

5-أنّ محاكاة الغرب في أنظمتهم التعليمية والتربوية والأخلاقية عمّق جراح الأمة الإسلامية بشكل كبير وجعلها تابعة تبعية مطلقة للغرب وأذنابهم، و قد كان ذلك سببا في ضعفهم الاقتصادي والسياسي، كما كان سببا مباشرا في تراجع القيم الأخلاقية التي كان عليها أسلافنا الأماجد، وهذا يعني أنّ الأمة الإسلامية إذا لم تنطلق في بناء حضارتها وعزّها من تعاليم دينها الإسلامي وموروثها الحضاري الرّاقي فإنّها ستظل في غبن كبير لا يزيله إلاّ العودة إلى حضن الحضارة العربية الإسلامية وتعاليم ومقاصد الشّريعة الإسلامية التي جمعت بين سعادة الدنيا والآخرة.

6- أنّه بالإمكان عودة الحضارة العربية الإسلامية إذا كنّا جادّين وصادقين في ذلك، ولا يكون ذلك بمجرّد الشّعارات الرنّانة ولا الحماسات الفارغة إنمّا يكون بصدق النية

والعزم على المضي نحو الأمام وإن لم يعجب ذلك أعدائنا من اليهود والنّصارى والملحدين، فانظر مثلا كيف أعزّت دولة باكستان الإسلام وأذلّت أهل الشّرك والأوثان في حربها الأخيرة ضد دولة الهند، حيث عقدت العزم على أن تعطي درسا للعالم أجمع أنّ المسلم لا يذل نفسه إلاّ لله وأن نصرة الدين الإسلامي تكون بالفعل لا بالقول والعمل بما أنزله الله عزّ وجل وليس بما تدعو إليه الهيئات الدولية القائمة في الأساس على الكذب والزور والنفاق، فالله عزّ وجل يأمرنا في كتابه الكريم بإعداد العدّة والعتاد حتّى لا نترك مجالا لأعدائنا الكفار بأن يفكّروا بغزونا والاعتداء علينا، وهم أي الكفّار يقولون بأنّ التّسلح محرّم عليكم إلى الأبد صدق الله وكذب هؤلاء ونعمة ولا كرامة لهم.

7- أنّ الغرب لا يريدون للحضارة العربية الإسلامية أن تنهض من جديد وأن تستردّ مكانتها الحقيقية التي كانت عليها من قبل، لأنّهم يعلمون علم اليقين أنّ سر قوّة المسلمين في دينهم الإسلامي الحنيف، وهو الوحيد الّذي من خلاله تلتئم جميع جروح وندوب المسلمين مهما كان غورها وألمها، ومن العجب أن يوصف الدّين الإسلامي من قبل الغرب وأشياعهم بأنّه أفيون الشعوب (وهذه مقالة تُنسب إلى النكرة السّفيه حامل لواء الشيوعية كارل ماركس)، وهذا قول إلى جانب أنّه باطل ومحال فإنّ فيه شطحات إبليسية واضحة ظهرت على ألسنة الحمقى من النّاس ومن في عقلهم خبل وسفه وإلاّ كيف يكون الدّين مفسد لعقول الناس إن لم يكونوا هم أنفسهم المفسدين!!، بل هم الأفيون وهم الجنون الذي لا يزيد المرء إلاّ حقارة وتفاهة وحمقا وجهلا.

8- أنّ التصريحات التي أدلى بها المستشرقون المنصفون تجاه الحضارة العربية الإسلامية لا تدع مجالا للشّك بتفوّق الحضارة العربية الإسلامية وتقدّمها على باقي الحضارات

الانسانية، ومن أراد أن يتحقّق من ذلك فليطالع ما كتبه هؤلاء تجاه حضارتنا الإسلامية وحينها ستتضّح له كثير من الحقائق المغيّبة التي ظلّت لعقود من الزّمن في طي النسيان أو الإهمال، وكما قيل فالحق ما شهد به الأعداء ومن باب أولى ما شهد به الفضلاء والعقلاء والحكماء منهم.

وفي الجملة فإنّ الحديث عن أمجاد الحضارة العربية الإسلامية وما ألصق به من تهم باطلة وجائرة لا يسعنا الحديث عنها جميعا، وقد كفانا مؤنتها غيرنا من الباحثين المسلمين فجزاهم الله عنّا وعن الإسلام خيرا وزادهم الله علما وشرفا، وجعل عملهم خالصا لوجهه الكريم، والذي أؤكد عليه في ختام هذا الكتاب أنّ الحضارة العربية الإسلامية هي أرقى حضارة عرفها التاريخ بلا أدنى مجاملة، وهي الحضارة الوحيدة التي عرّفت الانسان بحقيقته وما له وما عليه، ومن ثمّ فحري بنا أن تكون الحضارة العربية الإسلامية هي الموئل الذي نرجع عليه في أوقات الشدّة والرّخاء وحسبنا أن تكون هي دليلنا نحو التقدّم والرُّقي والازدهار المادي والخلقي.

وهذا؛ والله أسأل أن يجعل هذا العمل المتواضع خالصا له وحده؛ إذ لا نبغي من ورائه أي حاجة دنيوية لأنّ ما كان لله دام واتصل وما كان لغير الله انقطع وانفصل، والله وحده يعلم مقاصدنا ونيّاتنا، ومنه نستمد العون والتوفيق، وما كان من صواب في هذا الكتاب فمنه وحده وما كان من خطأ فمنّي ومن الشيّطان، ونحن مهما بلغنا أعلى مراتب العلم الدنيوية بتوفيق منه هو وحده، والأصل في المسلم كلّما زاد علما ازداد تواضعا وتقرّبا إلى الله، أمّا الكبر فهو دليل على سوء الطوية وضعف ابن آدم، ولا حوة ولا قوّة إلاّ بالله، وأرجو أن ينفع الله بهذا الكتاب إخواني المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وأن يكون له أثر حسن على من يقرأه ويتصفحّه، هذا الذي أردت قوله والسّلام عليكم ورحمة وبركاته.

ملحق الكتاب:

ملحق الكتاب:

أقوال بعض المستشرقين المنصفين تجاه الحضارة العربية الإسلامية والمسلمين:

1– **روبرت بريفولت الفرنسي:** حيث قال عن الحضارة العربية الإسلامية والمسلمين: "إنّ القوة التي غيرت وضع العالم المادي كانت من نتاج الصلة الوثيقة بين الفلَكيين والكيميائيين والمدارس الطبية، وكانت هذه الصلة أثرًا من آثار البلاد الإسلامية والحضارة العربية، إن معظم النشاط الأوربي في مجال العلوم الطبيعية إلى القرن الخامس عشر الميلادي كان مستفادًا من علوم العرب ومعارفهم، وإني قد فصلت الكلام في الدور الذي لعبته العربية في اليقظة الأوربية، لأن الكذب والافتراء كانا قد كثرا في العصر الحاضر، وكان التفصيل لا بد منه للقضاء عليهما."

2–**هينولد**" حيق قال: إنّ ما قام على التجربة والترصد هو أرفع درجة في العلوم، وأن المسلمين ارتقوا في علومهم إلى هذه الدرجة التي كان يجهلها القدماء. فقد قام منهاج المسلمين على التجربة والترصد وكانوا أول من أدرك أهمية المنهاج في العالم، وظلّوا عاملين به وحدهم زمنًا طويلاً."

3–**توماس أرنولد:** "كانت العلوم الإسلامية وهي في أوج عظمتها تضيء كما يضيء القمر فتُبدد غياهب الظلام الذي كان يلف أوربا في القرون الوسطى". في السياق ذاته، يذكر "جورج سارتون" في كتابه مقدمة في تاريخ العلم أن "الجانب الأكبر من

مهام الفكر الإنساني اضطلع به المسلمون؛ فـ''المسعودي'' أعظم الجغرافيين، و''الطبري'' أعظم المؤرخين."

4-**مسيو ليبري**: "لو لم يظهر المسلمون على مسرح التاريخ لتأخرت نَهضة أوروبا الحديثة عدة قرون''. وأكد المؤرخ الفرنسي ''سديو'' في كتابه الذي استغرق تأليفه عشرين عامًا أن ''المسلمين نشروا العلوم والمعارف والتمدن في الشرق والغرب حين كان الأوروبيون يعيشون في ظلمات الجهل في القرون الوسطى."

5-**غوستاف لوبون**: فقد أوضح أنّ: "جامعات الغرب لم تعرف لها مدّة خمسة قرون موردًا علميًّا سوى مؤّلفات المسلمين، وإنهم هم الذين مدّنُوا أوروبا مادة وعقلاً وأخلاقًا، ولم يَفُقْهم قوم في الإبداع الفني" . ويقول كذلك: "كلّما أمعنا في دراسة حضارة العرب والمسلمين وكتبهم العلمية واختراعاتهم وفنونهم ظهرت لنا حقائق جديدة وأفاق واسعة، ولسرعان ما رأيتَهم أصحاب الفضل في معرفة القرون الوسطى لعلوم الأقدمين... وإنّ التاريخ لم يعرف أمّة أنتجت ما أنتجوه في وقت قصير، وأنه لم يَفُقْهم قوم في الإبداع الفنّي".

6-**الرئيس البرتغالي "جورج سمبايو**" في خطاب ألقاه بمدينة لشبونة بمدى التأثير الذي تركته الحضارة الإسلامية في بلاده خلال العهد الأندلسي،وأشار إلى أنّ "البرتغال مدينة للتراث العربي الغني الذي أثّر في لغتها، وأسمائها، وعاداتها الاجتماعية، وفنونها،

وعمارتها، وأدبها، وزراعتها وتجارتها''، مؤكدًا أنّ "إجلاء العرب والمسلمين من الأندلس كان أحد أسباب انحطاط الشعوب في شبه الجزيرة الإيبيرية."

7-**المستشرق البريطاني "وليام مونتغمري واط"** في كتابه الموسوم ب "تأثير الإسلام في أوروبا العصور الوسطى" صرّح بأنّ: "الكتّاب المسيحيين في العصور الوسطى حطّوا من شأن الإسلام عمدًا، ولكن بفضل جهود الباحثين في القرن الماضي، أصبح هناك إدراك أكثر موضوعية لأثر الإسلام في الثقافة الأوروبية". وأضاف قائلا: إنّ الأوروبيين يجهلون الفضل الذي تدين به ثقافتهم للإسلام، وفي بعض الأحيان يستخفون بمدى تأثير المسلمين في التراث الغربي''، داعيًا إلى ضرورة الاعتراف الكامل بفضل الحضارة الإسلامية.

8-**المؤرخُ الفرنسيُّ الشّهير "سديو"** في تاريخه الكبير صرّح بكل موضوعية وأمانة علمية خالصة بقوله: "لقد استطاع المسلمون أن ينشروا العلوم والمعارف والرّقيَّ والتمدُّن في المشرق والمغرب، حين كان الأوروبيون إذ ذاك في ظلمات جهل القرون الوسطى..."، ثمّ أردف قائلا: "لقد كان العرب والمسلمون -بما قاموا به من ابتكارات علمية- ممن أرْسَوا أركان الحضارة والمعارف، ناهيك عما لهم من إنتاج، وجهود علمية، في ميادين علوم الطب، والفلك، والتاريخ الطبيعي والكيمياء والصيدَلَة وعلوم النبات

والاقتصاد الزراعي وغير ذلك من أنواع العلوم التي ورِثناها نحن الأوروبيين عنهم، وبحقٍّ كانوا هم معلّمينا والأساتذة لنا."

9-**المستشرق "أدم متز"** في كتابه "الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري صرّح قائلا": "لا يعرف التاريخ أمّة اهتمت باقتناء الكتب والاعتزاز بها كما فعل المسلمون في عصور نهضتهم وازدهارهم، فقد كان في كل بيت مكتبة."

10-**جورج سارتر** تحدّث عن عظمة اللّغة العربية ومآثر الحضارة الإسلامية: "حقق المسلمون عباقرة الشرق أعظم المآثر في القرون الوسطى وكانت اللّغة العربية أعظم اللّغات خلال هذه العصور فلقد كتبت بها المؤلّفات القيمة شديدة الأصالة وكان على أي باحث يريد أن يلم بثقافة العصر أن يتعلم اللّغة العربية ولقد فعل ذلك الكثير من غير العرب.

11-**ريتشارد كوك** في كتابه مدينة السلام قال: إنّ أوروبا لتدين بالكثير لإسبانيا العربية فقد كانت قرطبة سراجاً وهّاجاً للعلم والمدنية في فترة كانت أوروبا لا تزال ترزخ تحت وطأة القذارة والبدائية.

12-**قال العالم الصيني "لي قوان فبين"**: "إنّ الحضارة الإسلامية هي من أقوى حضارات الأرض وهي قادرة على اجتياز أي عقبات تواجهها لأنها حضارة إنسانية

الطابع عالمية الأداء رفيعة القدر علميًّا وفكريًّا وثقافيًّا وبعدما تعمّقتُ في الأدب العربي القديم والحديث ازْداد اقتناعي بأن الشرق يمتلك سحر الحضارة والأدب والثقافة وأنه صاحبُ الكلمة المفكِّرة والعقلية المنظمة."

13-**المستشرق الفرنسي كارا دي فو** أكّد على أنّ "السبب الآخر لاهتمامنا بعلم العرب هو تأثيره العظيم على الغرب؛ إنّ العرب ارتفعوا بالحياة العقلية والدراسة العلمية إلى المقام الأسمى، في الوقت الذي كان العالم المسيحي يناضل نضال المستميت للانعتاق من أحابيل البربرية وأغلالها".

14-**المستشرق النمساوي "جوزيف اوبرمان ج**" في كتابه «مهد الإسلام يقول: "الإسلام هو النظام المثالي الفريد الذي يحتاج إليه العالم في عصرنا الحاضر ومحمد «صلى الله عليه وسلم» أعظم المصلحين ومقدرته الخارقة في تقويم قومه وتهذيب أخلاقهم وتحويلهم من رعاة فظاظ الطبع إلى رجال يصنعون التاريخ، ما أحوجنا اليوم لأن يكون بيننا مثل هذا الرجل العظيم أو حتى نقتدي بسنّته وتعاليمه".

15- **إريك بنتام** يقول في أحد تصريحاته: "إنّ الإسلام هو دين الوداعة والوفاق والصدق والأمانة فلو أنصفنا أنفسنا لوحدنا صفوفنا مع المسلمين، ولنبذنا ما فينا من عصبية عمياء، أوجدها لنا ذوو المطامع اللاهوتية وسنها لنا من دفعت به شهواته للحيد عن الطريق القويم".

"16-ويقول العالم الإسباني **خوسيه لويس بارسلو**: "أرسى الإسلام مدنية متقدمة تعد في الوقت الحاضر من أروع المدنيات في كل العصور، كذلك فإنه جمع حضارة متينة متقدمة، وذلك إذا ما طرحنا جانبًا الاضمحلال الواضح للقوى السياسية، فإنّ الشّخصية الجماعية للإسلام قد صمدت أمام كافة أنواع التّغيرات؛ ذلك لأن معيار الشّخصية الجماعية هو المدنيةُ عامة والتّقاليد التي لم تنطفِئْ أو تَخمُد، هذه هي روح الإسلام كما يجب أن يفهمها أولئك الذين يحاولون عن عمدٍ وسوء نية تشويه صورته".

17-أمّا الباحث اليهودي "**فرانز روزنتا**" فيقول عن الحضارة العربية الإسلامية: "يعد ترعرع الحضارة الإسلامية من أكثر الموضوعات استحقاقًا للتّأمل والدراسة في التاريخ، ذلك أنّ السّرعة المذهلة التي تمّ بها تشكّل هذه الحضارة أمر يستحق التّأمل العميق، وهي ظاهرة عجيبة جدًّا في تاريخ نشوء الحضارة ويمكن تسميتها بالحضارة المعجزة لأنّها تأسّست وتشكّلت وأخذت شكلها النهائي بشكل سريع جدًّا ووقت قصير جدًّا، بحيث يمكن القول إنّها اكتملت وبلغت ذروتها حتّى قبل أن تبدأ" .

هذا نزر قليل من شهادات أدلى بها المنصفون من المستشرقين والعلماء والرؤساء الذين لم يجدوا بدّا من قول الحق وكشف الأباطيل التي ألصقت زروا وبهتانا ضد الحضارة العربية الإسلامية، وهذا في الحقيقة يعزّز قولنا بأنّ الحضارة العربية الإسلامية

هي أرقى حضارة انسانية شهدها التاريخ؛ ومن ثمّ فهي الحضارة الوحيدة التي تستطيع تحقيق الاستقرار الاجتماعي والسياسي والأمني بين الشُّعوب والدول والأفراد.

الفهرس

تمهيد..... 5

الفصل الأوّل: ماهية الحضارة..... 9

المبحث الأوّل: تعريف الحضارة..... 10

أوّلا: الحضارة لغة 10

ثانيا: الحضارة اصطلاحا 11

1-التعريف الغربي للحضارة: 12

2-التعريف الإسلامي للحضارة: 16

المبحث الثاني: شروط بناء وتأسيس الحضارات الانسانية 21

1-الانسان: 21

2-العلم والمعرفة: 25

3- القيادة الكفؤة: 28

4-الأمن: 30

5- المال: 32

6- التفاني والإخلاص في العمل: 34

7- التّخطيط العلمي: 37

8-الحزم والصّرامة: 39

9- العدل: 41

المبحث الثالث: دورة الحضارة(مراحل الحضارة الانسانية) 44

المرحلة الأولى: مرحلة البداوة 45

المرحلة الثانية: مرحلة التّحضر (التّمدن) 47

المرحلة الثالثة: مرحلة التّدهور والانهيار 51

المبحث الرابع: أسباب انحطاط الحضارات وتدهورها 53

أوّلا: الأسباب السياسية 53

ثانيا: الأسباب السلوكية والأخلاقية 56

ثالثا: الأسباب الاقتصادية 59

رابعا: الأسباب الأمنية 61

خامسا: الأسباب الاجتماعية: 64

سادسا: الأسباب النفسية 67

الفصل الثاني: لمحة عن الحضارة العربية الإسلامية:.....70

المبحث الأوّل: مفهوم الحضارة العربية الإسلامية..... 71

المبحث الثاني: أركان الحضارة العربية الإسلامية 77

1-الدّين الإسلامي: 77

2- اللّغة العربية (اللّسان العربي): 80

3- الجهاد: 84

4-الأُخَوة في الإسلام: 88

5-**المساجد:** 91

المبحث الثالث: خصائص الحضارة العربية الإسلامية 95

1-الحضارة الإسلامية حضارة عالمية:. 95

3-الحضارة العربية الإسلامية خالدة: 99

4-أنّها حضارة إنسانية:. 101

5-أنّها حضارة أصيلة:. 102

6- الشُّمولية:. 104

7-أنّها حضارة أخلاقية: 106

8-أنّها حضارة تمجّد العلم وتدعو إليه وترّغب فيه 109

9- أنّها حضارة توازن بين الرّوح والمادة: 111

10-ملاءمتها للفطرة الإنسانية: 112

11- أنّ مصدرها القرآن والسُّنة: 113

12-إنّها حضارة معطاءة: 114

13-أنّها حضارة إيمانية عقدية:. 115

المبحث الرابع: أبعاد الحضارة العربية الإسلامية 118

1-البعد الدّيني: 118

2- البعد الأخلاقي: 119

3-البعد الأمني: 121

4- البعد الثقافي: 123

5- البعد الاجتماعي: 125

6- البعد الاقتصادي والعسكري: 127

الفصل الثالث: تفاعل الحضارة الإسلامية مع باقي الحضارات.....129

المبحث الأوّل: إسهامات الحضارة العربية الإسلامية وأبرز مظاهرها.....132

أوّلا- في الطّب والتّطبب (العلاج الطبّي): 133

ثانيا- في الصيدلة والأدوية: 140

ثالثا- في الهندسة والعمران..... 143

رابعا – في علم الفلك: 148

خامسا- في الفيزياء: 152

سادسا- في الرياضيات: 154

سابعا- في الجغرافيا: 158

ثامنا- في البصريات: 162

تاسعا- في الطيران: 166

عاشرا- في علم الزّراعة: 169

حادي عشر– في علم الجيولوجيا:.....170

المبحث الثاني: الحضارة الإسلامية تتفاعل أم تتصادم مع الحضارات الأخرى 175

- الضّابط الأولّ: 179

–الضّابط الثاني: 180

–الضّابط الثالث: 180

الضّابط الرابع: 181

الضّابط الخامس: 181

الضابط السادس: 182

المبحث الثالث: أسرار تفوّق الحضارة العربية الإسلامية وتأثيرها في بقيّة الشّعوب 183

1–اعتزازهم بدينهم الإسلامي.....183

2–الجد في العمل 184

3- توحيد كلمة المسلمين 187

4–إقبال العلماء المسلمين على العلم والعمل.....189

5–إيلاء أهمية كبيرة للعلماء. 190

6–ثقتهم بأنفسهم وبقدراتهم العلمية 193

7–أنّ المسلمين كانوا يتكلّون على أنفسهم في أوقات الشّدّة والرّخاء ولا يثقون في أعدائهم:.....195

الفصل الرابع: سقوط الحضارة العربية الإسلامية.....198

المبحث الأوّل: أسباب سقوط وانحطاط الحضارة العربية الإسلامية.....199

أوّلا: الأسباب الدّينية والأخلاقية 199

1–ضعف التّوحيد وانتشار مظاهر الشّرك في البلاد الإسلامية: 202

2- ميل قادة المسلمين إلى ملذّات الدّنيا وزخارفها: 203

3- تدهور أخلاق المسلمين وقلة الوازع الدّيني فيهم: 204

4- الجهل بالدين وعدم الاكتراث به في تنشئة الأجيال والأبناء: 205

5-عدم الاحتكام إلى الكتاب والسّنة عند حدوث الخلافات بين المسلمين: 205

ثانيا: الأسباب السياسية 206

ثالثا: الأسباب العسكرية 210

رابعا: الأسباب الاقتصادية 214

خامسا: الأسباب النفسية والإيديولوجية 217

المبحث الثاني: مدى إمكانية نهوض الحضارة العربية الإسلامية من جديد.....220

1- تحكيم شرع الله في العبادات والمعاملات: 221

2- إصلاح النّفوس والنيّات: 222

3-إصلاح المناهج التّعليمية والتربوية وربطها بواقع المسلمين حاضرا ومستقبلا: 225

4- ربط حاضر الأمة الإسلامية بماضيها وتاريخها الإسلامي: 227

5- الحفاظ على ثوابت الأمّة الإسلامية وبخاصة اللّغة العربية: 229

6- الوقوف في وجه المخطّطات التّغريبية والعلمانية: 230

7-الاهتمام بتحقيق اكتفاء ذاتي في الأمن الغذائي لقطع دابر التّبعية للخارج: 234

8- تقوية الحالة الدّفاعية والقتالية للجيوش العربية والإسلامية:. 235

9- غلق باب الانقسامات السياسية بين المسلمين: 237

10- الاهتمام بشباب المسلمين وتوعيتهم بالتّحديات التي تواجههم بشكل دائم: 239

11-تثمين التراث العربي الإسلامي في المجال العلمي والبحثي: 241

12-تمكين العلماء من دورهم التّوعوي في الأمة الإسلامية وتحفيزهم معنويا: 243

13- تعزيز علاقات التعاون بين الدول الإسلامية في مختلف الجوانب:. 245

14- استغلال وسائل الاتصال الحديثة للتّعريف بأصول الحضارة الإسلامية وثوابتها: 246

15-تعزيز مكانة الجامعة في معالجة القضايا التي تهم المسلمين والموروث الحضاري الإسلامي: 248

16- إقامة دورات علمية تعنى بدراسة الحضارة العربية الإسلامية خلال الإجازات الصيفية:..... 249

17– تنظيم جوائز قيمة وثمينة لمن يقدّم أعمال علمية تهتم بدراسة بالحضارة الإسلامية: 250

المبحث الثالث: موقف الغرب من عودة الحضارة العربية الإسلامية ونهضتها من جديد...252

الخاتمـــة.....259

ملحق الكتاب:.....265

الفهرس.....273

الحضارة العربية الإسلامية
بين الريادة والعالمية

حقائق ساطعة ومغالطات واهية

نبذة عن المؤلف:

الدكتور رضا كشان متحصل على شهادة الدكتوراه في العلوم السياسية والعلاقات الدولية وأستاذ محاضر دائم بقسم العلوم السياسية والعلاقات الدولية بجامعة 20أوت 1955 سكيكدة. أشرف على تأطير العديد من مذكرات الماستر في العلاقات الدولية، وتدريس العديد من المواد منها الحضارة العربية الإسلامية. ومؤلف عدة كتب، وله كذلك العديد من المقالات العلمية المنشورة في المجلات العلمية، وعلاوة على ما سبق له اهتمام بمجالات عدة من البحث العلمي من بينها الدراسات الأمنية والفكرية والحضارية التي تُعنى بالرّد على الأفكار التغريبية والعلمانية في البلاد الإسلامية، ويقدّم من خلالها جملة من الحلول والمقترحات لحماية التراث الإسلامي من حملات التّشويه والتّغريب التي طالت العالم الإسلامي.

نبذة عن الكتاب:

في هذا الكتاب حرص الكتاب على إظهار ما قدّمته الحضارة العربية الإسلامية من إنجازات وإسهامات علمية في العديد من مجالات العلم والمعرفة، وحاول من خلاله دحض وتفنيد العديد من الشّبهات التي ألصقت زورا وبهتانا بهذه الحضارة الفريدة، كما تعرّض من خلاله إلى أهم الأسباب التي أدّت إلى سقوط وانهيار الحضارة العربية الإسلامية وقدّم على إثرها جملة من الحلول والمقترحات التي يمكن من خلالها استعادة مجد الحضارة العربية الإسلامية التليد، وختم الكتاب بالحديث عن موقف الغرب من عودة الحضارة العربية الإسلامية، والحديث عن مخطّطات الغرب تجاه المسلمين والحضارة العربية الإسلامية بصفة عامة.

Isbn 978-9969-515-39-8

دار العكاظية للنشر والتوزيع

قسنطينة في:09/05/2026

ترخيص بنشر كتاب

أنا الممضية أسفله السيّدة : بن ام العيد فضيلة صاحبة دار نشر العاكظية للنشر والتوزيع –قسنطينة –

أرّخص للدكتور : **كشان رضا**

بنشر كتابه : **الحضارة العربية الإسلامية بين الريادة والعالمية**

حقائق ساطعة ومغالطات واهية

الحامل للردمك الدولي:

978-9969-515-39-8

في الفضاء الرقمي قصد الاستفادة منه قدر الإمكان .

وشكرا

الإمضاء

العكاظية للنشر والتوزيع
حي واد يعقوب المحلة رقم 31 ب
قسنطينة/س.ت: 21 i 0402936 - 25/00